تاريخ أوروبا المعاصر

الفرقة الرابعة- آداب

أستاذ المقرر

د/آية عبد الوارث سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب

جامعة جنوب الوادي

2025 -2024

أولًا الموضوعات	الصفحة
الفصل الأول **أوروبا والتحالفات العسكرية** - بسمارك ونظام التحالفات. - الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين. - المسألة الشرقية. - التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) . - التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك. الفصل الثاني: **الأزمات الدولية التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الأولى1914- 1918** أولًا: أزمة ضم البوسنة والهرسك. ثانيًا: أزمة أغادير. ثالثًا: الحروب البلقانية. رابعًا: مصرع ولي عهد النمسا خامسًا: الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى. الفصل الثالث: **الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م** - الوضع الدولى قبل نشوب الحرب. - مسار الحرب - الجيش الفرنسي - الجيش البريطاني - الجيش الأمريكى نتائج الحرب العالمية الأولى - معاهدة فرساى 1919م الفصل الرابع: **أوروبا بين الحربين العالميتين** تطور أوروبا بين الحربين - ظهور الدكتاتوريات - الشيوعية فى روسيا - الفاشية في إيطاليا - النازية في ألمانيا - العلاقات الدولية بين الحربين العالميتين - عصبة الأمم **الفصل الخامس: الحرب العالمية الثانية 1939- 1945م** أسباب الحرب العالمية الثانية - قيام الحرب العالمية الثانية.	

	- أدوار الحرب - نتائج الحرب العالمية الثانية الفصل السادس **الحرب الباردة** تداعيات الحرب الباردة. -الصراع بين الدول المتحالفة. -ترسيم الحدود. -سباق التسلح. -العالم الثالث وسياسات الحرب الباردة. -الحرب الباردة بالداخل. -تأثير الحرب الباردة داخل أوروبا. **ثانيا: الأشكال والصور** **ثالثًا: الخرائط.** **رابعًا: المراجع** **خامسًا: روابط الفيديو** **https://www.youtube.com/watch?v=OgIN5x5x4Ow** **https://www.youtube.com/watch?v=tf-3HFY5n5A** **https://www.youtube.com/watch?v=pbuWDihmVmI**	

تمهيد

يتميز التاريخ الحديث بالتوسع الأوربي الذي فرضته ظروف أفرزتها النهضة الأوربية والثورة الصناعية والقوميات الناشئة، التي تطلعت إلى التوسع رمزاً للتفوق من ناحية، وبحثاً عن أسواق لتصريف منتجاتها من ناحية ثانية وتوظيف اليد العاملة والقضاء على البطالة من ناحية ثالثة، والبحث عن المزيد من المواد الخام من ناحية رابعة. وقد حاول المؤرخون تمييز أربعة مراحل من التوسع الأوربي منذ بداية العصور

أولاً: مرحلة التوسع القاري الحديثة، نتناولها فيما يلي:

وتعني التوسع داخل القارة الأوربية، وقد بدأت تلك المرحلة مع ظهور الدول القومية في مطلع العصر الحديث، وترتبط بمحاولات التوسع داخل القارة الأوربية، وقد اتخذت في البداية شكل وراثة العرش بين القوميات الناشئة مثل بريطانيا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وإمبراطورية النمسا؛ فعند موت الإمبراطور مكسميليان انتقل عرش إمبراطورية النمسا إلى الإمبراطور الأسباني شارل الخامس، وعندما ضعفت الولايات الإيطالية تنافست عليها كل من فرنسا وأسبانيا. وتتضمن مرحلة التوسع القاري الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وحرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ – ١٧١٣م) وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ – ١٧٤٨م) وكذلك حرب السنوات السبع بين فرنسا وإنجلترا (١٧٥٦ – ١٧٦٣م) والثورة الفرنسية وما ترتب عليها من حروب في الحقبة النابليونية، وحرب الإلزاس واللورين بين فرنسا وألمانيا ١٨٧٠م ، وتدخل في التوسع القاري حربي البلقان وبدايات الحربين العالميتين الأولى والثانية والحروب التوسعية للإمبراطورية الروسية، وتعد المحاولات الفاشية والنازية بين الحربين إحياء لهذا النمط من التوسع.

ثانياً: مرحلة التوسع الإمبريالي

وتعاصر المرحلة السابقة زمنياً، واستعمر بالمعنى الأوربي Colonies و Colonize لغة من الفعل عمر ويعمر وتعني إعمار أرض خربة لا صاحب لها ، أو إعمار أرض لا يستطيع أهلها إعمارها، وهي تسمية خيالية لا علاقة لها بالواقع المرير في الأراضي المحتلة، ولم تشتكي الأرض من عدم قدرة أهلها على إعمارها. والمصطلح لا يعدو كونه محاولة لحل مشكلات الدول الكبرى مثل مشكلة البطالة وأسواق لتصريف المنتجات والحفاظ على التفوق للجنس الأبيض،وعرف" جرانت وتمبرلي" معنى الاستعمار استيطان الجنس الأبيض فيما وراء البحار. وبدأت بوادر

التوسع الاستعماري من جانب أسبانيا والبرتغال كرد فعل لحركة الاسترداد المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا، حيث استولت البرتغال على سبتة ١٤١٥م ثم ميناء أغادير ، بينما استولى الأسبان على مليليه ١٤٩٧ ، وقد حالت حكومات المغرب القوية دون استيلاء الأوربيين على مزيد من أراضي المغرب. ومع نجاح الأسبان في الوصول إلى العالم الجديد تمكنت أسبانيا من ضم معظم أرجاء أمريكا اللاتينية، فيما استولت البرتغال على البرازيل ثم اتجهت عبر رأس الرجاء الصالح إلى الهند والشرق الأقصى.

وبحلول عام ١٥٨٠م آل عرش البرتغال بمستعمراتها إلى فيليب الثاني ملك أسبانيا، بعد أن خلا عرش البرتغال من وريث للعرش، ولم تهنأ أسبانيا فقد هزم أسطولها هزيمة منكرة على يد البحرية الإنجليزية الناشئة في معركة الأرمادا ١٥٨٨م دخلت أسبانيا مرحلة الأفول، فيما شهدت الساحة نشاطاً ملحوظاً لدول جديدة منها هولندا وإنجلترا وفرنسا. فتمكنت القوى الأوربية من تكوين مستعمرات في الأمريكتين والشرق الأقصى وبعض الجزر ، وبعض جيوب على الساحل الأفريقي، بما فيها مستعمرة الكاب التي تعاقبت عليها البرتغال فهولندا ثم إنجلترا.

تمكنت هولندا من فرض سيطرتها على طريق رأس الرجاء الصالح في القرن السابع عشر، لذا حاولت إنجلترا وفرنسا كسر احتكار هولندا لطريق التجارة إلى الشرق، وخاضا معها عدة حروب أسفرت عن إقرار مبدأ التعويض الأرضي فيما بينهم، ولم يمنع هذا الهدف المشترك بين إنجلترا وفرنسا من التنافس والتناحر من أجل السيطرة على المضايق في الطريق إلى الشرق؛ بدأ هذا التنافس في حوض البحر المتوسط بعقد سلسلة من المعاهدات التجارية من الدول الإسلامية ممثلة في العثمانيين ودول المغرب سعدية وعلوية، ثم تحول الصراع إلى صراع عسكري في حرب السنوات السبع ١٧٥٦- 1763م فكانت سنة ١٧٥٩م سنة حاسمة في تاريخ الإمبراطورية الفرنسية، إذ فقدت مستعمراتها في كندا في البحر الكاريبي وجوريا وفورت لويس في السنغال بغرب أفريقيا وبونديشري في الهند، لصالح إنجلترا التي تساهلت مع فرنسا في صلح ١٧٦٣م بسبب تعاطف أوربا مع الدول المنهزمة، فأعادت لها مستعمرتيها في الكاريبي (جواد لوب والمارتينيك) وأعادت لأسبانيا هافانا في الكاريبي ومانيلا في الشرق الأقصى، وإبان حرب الاستقلال الأمريكية استعادت فرنسا بعض مستعمراتها في جزر الهند الغربية وغرب أفريقيا.

وبانتهاء الحروب النابليونية خرجت بريطانيا بنصيب الأسد من مستعمرات فرنسا وأسبانيا والبرتغال، فلم يبق للدول الثلاث سوى بعض الجيوب الساحلية غير المؤثرة، في حين حرصت بريطانيا على فرض سيطرتها على المراكز المؤثرة فى

طرق مواصلاتها العالمية إلى الشرق والغرب في مداخل البحار والمحيطات فأقمت سلسلة من القواعد البحرية في مسقط بمدخل الخليج العربي ١٦١٨م، ثم مضيق هرمز في المنطقة ذاتها ومستعمرة جبل طارق سنة ١٧٠٤م، واستولت على مستعمرة الكاب من هولندا ١٨١٤م نظير رد جاوه إليها، واستولت من فرنسا على مالطة وجزر موريشيوس في أعقاب الحروب النابليونية سنة ١٨١٥م، واستولت على بعض جزر الهند الغربية وسنغافورة سنة ١٨١٩م، ثم استولت على عدن ١٨٣٩م، وفي سنة ١٨٧٨م فرضت سيطرتها على قبرص.

وإن كانت فرنسا قد فقدت معظم مستعمراتها في اليابسة عقب مؤتمرات الصلح ١٨١٥م، فليس معنى ذلك أنها فقدت نفوذها، فقد احتفظت بحقوقها في الصيد والتجارة في أعالي البحار، حيث تطورت الفكرة الاستعمارية، فأقرت الدول الكبرى فكرة مبدأ حرية التجارة وحقوق الصيد، في ظل مرحلة جديدة من مراحل الاستعمار، هي مرحلة الإمبريالية والكلمة تعني بلوغ التوسع مداه، الأمر الذي أطلق يد القوى الأوربية عقب مؤتمر برلين ١٨٧٨م ولعل أكبر الدول الاستعمارية التي استفادت من النظم الاستعمارية الجديدة كانت بريطانيا، التي تحكمت في تلك النظم لمصلحتها والحد من منافسة أعدائها، فاستحدثت نظم استثمارية جديدة في مستعمراتها ثم ألغت تجارة الرقيق عام ١٨٠٦م، ساعدها على ذلك أن إمبراطوريتها قامت على النشاط التجاري، وقد استفادت بريطانيا بهذه الطريقة من حماية مبدأ مونرو في الولايات المتحدة الأمريكية، فأصبح لبريطانيا إمبراطورية غير رسمية إلى جوار إمبراطوريتها الرسمية.

وعندما حدث تسابق أوربي على تقسيم أفريقيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاولت بريطانيا أن تسيطر على مداخل ومخارج البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. وعندما تمكنت بريطانيا من تأمين طريق مواصلاتها أخذت في توطين رعاياها في المستعمرات وعملت على توسيع مستعمراتها، فتغلبت على البنجاب في الهند سنة ١٨٥٧م، وأخضعته لنفوذها وعملت على تنمية الإدارة لدى الأمم الخاضعة لها، فلم يأت عام ١٨٦٠ حتى أقامت حكومات مسئولة في استراليا ونيوزيلندا وكندا، بينما تأخرت جنوب أفريقيا إلى سنة ١٩١٠م بسبب حروب بريطانيا مع البوير عبر ثلاثة حروب في أعوام ١٨٤٨ و ١٨٨١ و ١٨٩٩ – ١٩٠٢م وانتهى الأمر بإقامة اتحاد جمع بين البريطانيين والهولنديين، وقد ساعدت هذه السياسة بريطانيا في التخلص من المجرمين السياسيين وقدامى المحاربين وفائض السكان، لاسيما بعد الثورة الصناعية، التي عرفت طريقها إلى بريطانيا كأول دولة أوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أما التجربة الاستعمارية الفرنسية فقد اختلفت عن نظيرتها البريطانية، فبعد أن فقدت فرنسا معظم مستعمراتها عام ١٨١٥م لجات إلى أفريقيا ثم إلى الشرق الأقصى، بدأت فرنسا بالجزائر على الساحل المقابل في سنة ١٨٣٠م ، وبعد سبع عشرة سنة من المقاومة التي قادها عبد القادر الجزائري تمكنت فرنسا من إحكام سيطرتها على الجزائر، ثم أخذت في شق الترع والقنوات وإنشاء شبكة من الطرق، واستقطبت اليهود من الجزائريين فمنحتهم الجنسية الفرنسية، ثم قامت بتوطين مواطنيها في الأراضي التي صادرتها من البكوات والزعماء الجزائريين وتدريجياً غدت الجزائر وكانها واحدة من المقاطعات الفرنسية، فمنحتها فرنسا حق انتخاب أعضاء البرلمان الفرنسي، ولم تتوقف فرنسا عن التوغل في الصحراء، في محاولة للاتصال بالجاليات الفرنسية التي استوطنت غرب أفريقيا، وقد أدى هذا التوسع إلى احتكاك فرنسا بسلطان المغرب وباي تونس في الوقت الذي تطلعت فيه إيطاليا لاحتلال تونس، كما أثار التوسع الفرنسي في السودان الغربي ثائرة بريطانيا.

وشهد منتصف القرن التاسع عشر تنافساً دوليا متوازناً في الشرق الأقصى، بدأته بريطانيا مع الصين في حرب (٤٠ – ١٨٤٣م) لإرغامها على فتح بعض موانيها ولاسيما شنغهاي أمام التجارة الدولية التي كان معظمها من الأفيون، واستغلت فرنسا الفرصة فحصلت لبعثتها التبشيرية على حق حماية مصالح المواطنين المسيحيين سنة ١٨٤٤م، وعندما حاولت الصين المقاومة تعاونت بريطانيا وفرنسا في ضربها عامي ٥٨ و١٨٦٠م حتى فتحت الصين أبوابها على مصراعيها أمام التجارة الدولية، بما فيها تجارة الأفيون ومن ناحية أخرى وحف الدب الروسي في محاولة للوصول إلى المياه الدفيئة، فاستولى على بعض أراضي كوريا والصين ومنها ميناء فلاديفيستك. وعندما حدث اعتداء في جنوب الصين على البعثات التنصيرية الفرنسية أرسل نابليون الثالث حملة استولت على ما يعرف بالصين الهندية وجزء من كمبوديا في الفترة من ١٨٦٢ – ١٨٨٥م، في محاولة لإيجاد توازن مع ممتلكات بريطانيا في هونج كونج والفلبين ونيوزيلندا واستراليا.

تعددت دوافع روسيا للتوسع في آسيا، فقد كان توسعها في سيبيريا للتخلص من العمالة الزائدة والمجرمين السياسيين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، أما في الصين فكان الهدف متمثلا في البحث عن ثغر على المحيط الهادئ لا يتجمد ماؤه، ولكن مع تأجج مسألة الشرق الأقصى وسياسة الباب المفتوح في الصين توقف الزحف الروسي سنة ١٨٦٠م عند ميناء فلاديفيستك الذي لا يتجمد ماؤه إلا في بعض شهور الشتاء، فحولت روسيا نشاطها إلى التركستان والدويلات الإسلامية الواقعة شمال وشمال غرب إيران وأفغانستان، فاستولت على طشقند سنة ١٨٦٤م، وسمرقند ثم كل من التركستان الشرقية والغربية سنة ١٨٧٣م. وحالت الصحراء القاحلة وجبال

أفغانستان دون وقوع صدام بين بريطانيا وروسيا، وكانت بريطانيا قد تصدت لروسيا عندما اعتدت على أفغانستان سنة ١٨٨٥م فتحولت إلى منشوريا في الصين لتقع في صدام مباشر اليابان، وانتهى الأمر بهزيمة قاسية للدب الروسي على يد اليابان الفتية التي لم يتجاوز تاريخها الحديث نصف قرن. وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر تنافساً أوربياً حول استعمار أفريقيا، إلى درجة أن الجزء المستعمر من أفريقيا قبل مؤتمر برلين ١٨٧٨م لم يتجاوز 10% من مساحة القارة السوداء، وبنهاية القرن التاسع عشر لم يتبق من القارة السوداء مستقلاً سوى 10% فقط من مساحتها، أي أن حوالي 80% من مساحة القارة المذكورة تم احتلاله خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر؛ ففي سنة ١٨٨١ انقضت فرنسا على تونس، تبارك خطواتها كل من بريطانيا وألمانيا، في حين استشاطت إيطاليا غضباً، وفي العام التالي التهمت بريطانيا مصر، واعتبرت فرنسا أنها تعرضت لخديعة كبرى من جانب بريطانيا، ففرنسا صاحبة امتياز حفر قناة السويس وشريكة بريطانيا في المراقبة الثنائية، لكن بريطانيا اشترت نصيب مصر في أسهم القناة بالاتفاق مع الخديو إسماعيل دون علم فرنسا كما استشاط الوطنيون في مصر غضباً بسبب تلاشي شخصية الخديو أم بريطانيا، واستغلت بريطانيا أحداث الشغب في الإسكندرية ضد الخديوي وتدخلت بقواتها المسلحة لقمع ما اعتبرته ثورة ضد الخديوي واحتلت مصر في يونيو ١٨٨٢ ووعدت بريطانيا بالجلاء عن مصر بعد استتباب الأمن بها، لكنها كانت مجرد تهدئة لغضب كل من الدولة العثمانية وفرنسا وروسيا. وتبنت فرنسا المقاومة في مصر، وبلغت العداوة مداها في نهاية القرن التاسع عشر عندما تقدمت الجيوش الفرنسية من السنغال على السودان الغربي لتطويق الوجود الإنجليزي وإعاقته حتى التقت القوتان عند فاشودا غربي السودان ١٨٩٩م ، وكاد يقع صدام مسلح بينهما لولا مبدأ التعويض الأرضي التي أقرته الدول الأوربية في مؤتمر برلين الثاني فظهر نوع من التقارب بين الدولتان اكتملت حلقاته في سنة ١٩٠٤م، وأسفرت هذه السياسة عن إطلاق يد فرنسا وأسبانيا في المغرب الأقصى. مع أما ألمانيا التي كانت عازفة لمدة طويلة عن الاستعمار جاء تأييدها لبريطانيا في مصر طمعاً في تأييد بريطانيا لها في الحصول على بعض المستعمرات في أفريقيا لتأمين تجارتها، ففي يوليو من عام ١٨٨٢م أعلنت ألمانيا ضم ساحل الكاميرون وتوجو، وبعد نزاع مع بريطانيا تم تقسيم غينيا الجديدة إلى جزاين؛ شمالي لألمانيا وجنوبي لبريطانيا، وفي سنتي ٨٤/١٨٨٥ ضمت ألمانيا أفريقيا الشرقية (تنجانيقا) وفي خلال عامين أصبح لألمانيا إمبراطورية كبيرة دون أسطول أو جيوش جرارة. وعلى نسق سياسة بسمارك ولكن بأسلوب آخر تمكن ليوبولد الثاني ملك بلجيكا من إيجاد مركز اقتصادي قوي لنفسه في الكونغو، بعد أن كلف المستكشف "ستانلي" بعقد معاهدات . أهالي البلاد لإنشاء دولة الكونغو الجديدة (١٨٧٨ – ١٨٨٤م) وعلى الرغم من الطابع التجاري .

استمرت الإمبريالية في النصف الأول من القرن العشرين تحميها معاهدات التحالف والتكتلات، غير أن الأزمات التي أفرزتها الأحقاد المتبادلة بين الدول الإمبريالية أتت في النهاية إلى اشتعال حرب عالمية استمرت من ١٩١٤ ١٩١٨ جرت إليها قوى عديدة لم تشارك في أصول الحرب، لكنها اشتركت بفضل سياسة التحالفات، واستمرت الإمبريالية بعد الحرب العالمية الأولى ممثلة في نظام الانتداب، الذي أقرته عصبة الأمم وما لبث العالم أن انجرف إلى حرب عالمية ثانية في الفترة من ١٩٣٩ – ١٩٤٥م والتي قلبت موازين القوى في العالم تماماً، واستمرت الإمبريالية بشكل محدود ممثلا في نظام الوصاية الذي أقرته الأمم المتحدة. ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين بدأت الحركات الاستقلالية في دول العالم الثالث، ونجحت هذه الدول في الحصول على استقلالها، ساعدها على ذلك انتشار عدوى الروح القومية فيما بينها من ناحية والوعود التي حصلت عليها من الدول الاستعمارية بالاستقلال إبان الحرب العالمية من ناحية ثانية، ولعل أهم العوامل التي ساعدتها للحصول على استقلالها ما أسفرت عنه الحربين من تدمير مقدرات الدول الاستعمارية وإنهاك قواها وانتقال مراكز القوى إلى عواصم جديدة، بدأت صراعاً جديدا باردا فيما بينها، أبعدها مؤقتاً عن تبني سياسة استعمارية عسكرية مباشرة.

المعاهدات فقد أبدت فرنسا والبرتغال خشيتهما، الأمر الذي أدى إلى عقد مؤتمر برلين في الفترة من أكتوبر ١٨٨٤ إلى فبراير ١٨٨٥ الذي أقر المصالح البلجيكية في دولة مع الكونغو الحرة.

استمرت الإمبريالية في النصف الأول من القرن العشرين تحميها معاهدات التحالف والتكتلات، غير أن الأزمات التي أفرزتها الأحقاد المتبادلة بين الدول الإمبريالية أتت في النهاية إلى اشتعال حرب عالمية استمرت من ١٩١٤ ١٩١٨ جرت إليها قوى عديدة لم تشارك في أصول الحرب، لكنها اشتركت بفضل سياسة التحالفات، واستمرت الإمبريالية بعد الحرب العالمية الأولى ممثلة في نظام الانتداب، الذي أقرته عصبة الأمم وما لبث العالم أن انجرف إلى حرب عالمية ثانية في الفترة من ١٩٣٩ – ١٩٤٥م والتي قلبت موازين القوى في العالم تماماً، واستمرت الإمبريالية بشكل محدود ممثلا في نظام الوصاية الذي أقرته الأمم المتحدة. ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين بدأت الحركات الاستقلالية في دول العالم الثالث، ونجحت هذه الدول في الحصول على استقلالها، ساعدها على ذلك انتشار عدوى الروح القومية فيما بينها من ناحية والوعود التي حصلت عليها من الدول الاستعمارية بالاستقلال إبان الحرب العالمية من ناحية ثانية، ولعل أهم العوامل التي ساعدتها للحصول على استقلالها ما أسفرت عنه الحربين من تدمير مقدرات الدول

الاستعمارية وإنهاك قواها وانتقال مراكز القوى إلى عواصم جديدة، بدأت صراعاً جديدا باردا فيما بينها، أبعدها مؤقتاً عن تبني سياسة استعمارية عسكرية مباشرة.

الفصل الأول

أوروبا والتحالفات العسكرية

- بسمارك ونظام التحالفات.
- الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين.
- المسألة الشرقية.
- التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) .
- التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك.

كان نمو القومية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر فرصة حقيقية لنمو النزعة إلى الحرب مع بداية القرن العشرين، وذلك بعدما اكتمل تحقيق الوحدة القومية لمجموعة من الدول الأوروبية، وعلى رأسهم ألمانيا وإيطاليا، والنزعة إلى الحرب جعلت الدول الأوروبية تخشى من بعضها البعض، فكانت النتيجة لذلك تكوين الأحلاف العسكرية، والتي وجدت فيها الدول الأوروبية تأمينا لحدودها، بل وفرصة لتحقيق أطماعها، فكانت الأزمات الدولية التي خلفتها الدول الأوروبية رغبة في جني المكاسب من ورائها.

أولا : بسمارك ونظام التحالفات (١٨٧١ – ١٨٩٠) .

1- الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين :

كان عام ١٨٧٠ سنة مهمة في تاريخ العالم وفي توجيه سياسة الدول الكبرى وجهة جديدة . لقد انهارت فرنسا كأولى دول القارة من الناحية الحربية ، وحلت محلها الدولة الألمانية الجديدة التي قامت بصفة خاصة على يد بسمارك وعلى تفوق الجيش الألماني وعلى زعامة بروسيا ؛ ونتيجة لذلك ، أخذت الدول الأوروبية المختلفة تعمل على التقرب من هذه الدولة الجديدة المتفوقة .

أصبحت الدولة الألمانية الجديدة بمواردها الاقتصادية الغنية ، وبحماستها الوطنية ، أقوى دولة في أوروبا من الناحية الحربية ، ولكن بسمارك كان يعلم بأن فرنسا كدولة قوية لم تنته بعد ، فلا زالت لها حيويتها الكبيرة ونشاطها وأملها في المستقبل ، خاصة وأن الدول الأوروبية لم تكن لترضى مطلقا القضاء عليها تماما. وكان بسمارك يعلم ، كذلك ، أن ألمانيا مهما بلغت قوتها الحربية ومواردها الاقتصادية ، فهي ما برحت دولة حديثة التكوين ، لم تصبح جزءا من النظام الدولي الأوروبي إلا في عام ١٨٧٠ . وهكذا أيقن بسمارك أن الألمان بانتصارهم الحاسم على الفرنسيين قد أثاروا بقية الدول الأوروبية الكبرى وأحقادها .

لقد أفاقت انجلترا من حيادها الطويل ومن سياسة العزلة التي اتبعها جلادستون لتجد أن قوة حليفتها القديمة فرنسا قد تحطمت ، وأن دولة أعظم نشاطا وهي ألمانيا قد سيطرت على هذه الدولة الجديدة . وأخذت تفكر في مصير أسواقها الأوروبية إذا تمكنت تلك القوة الناهضة من السيطرة على وسط أوروبا اقتصاديا ، كما سيطرت عليه إلى حد ما سياسيا . ولذلك يتغير موقف انجلترا عندما تولى بينجامين ديزريلى (Bengamin Disraeli) زعيم المحافظين الوزارة في عام 1874 ، الذي كان يتوثب إلى اتباع سياسة خارجية نشيطة تخرج انجلترا من عزلتها ونعود بها إلى مركزها الممتاز في أوروبا والعالم ، ولذا سيكون بسمارك حريصا على استرضاء انجلترا في عهدها الجديد لكي توافق على النظام الجديد الذي أوجده.

أما إمبراطورية النمسا والمجر فكانت تحسب حسابا حقيقيا للدولة الألمانية الجديدة التي تجاورها من الشمال . فكان يوجد في النمسا عدد كبير من الجيش الألماني يقطن في أوستريا (Austria) ويتطلع الجزء الأكبر منه للإنضمام إلى ألمانيا ، وبذلك تحقق الوحدة الألمانية الحقيقية وبجانب هذا الفريق ، وجد فريق آخر كان متشبعا بحب آل الهابسبرج ، وله مصالح إقطاعية ومعنوية تربطه بذلك البيت العتيق ، ثم إن انفصال الجزء الألماني عن جسم إمبراطورية النمسا والمجر كان معناه زوال إمبراطورية الهابسبرج لأنها تعتمد في ثروتها ونفوذها على الجزء الألماني الصرف من أراضيها ، وهو الجزء الصناعي . ولم ينس هذا الفريق بسهولة الهزيمة المرة التي تلقتها النمسا على يد ألمانيا في سادوقا ، ولذلك عمل جاهدا على إيجاد تحالف بين النمسا وأعداء ألمانيا مثل فرنسا وعلى فصم العلاقة القوية بين روسيا وألمانيا . غير أنه وجد فريق آخر وهو الفريق المجرى الذي كان يتزعمه الكونت أندراشي وزير خارجية النمسا ، كان هذا الفريق يريد السيطرة على الفريق الألماني السابق ، ووسيلته الوحيدة في تحقيق ذلك هي توثيق الصله بينه وبين ألمانيا حتى لا يتفوق فيها العنصر الصقلبي وعلى العموم كان موقف النمسا يتسم بالتردد والحذر والخوف ، غير أن بسمارك كان يفهم الموقف في النمسا جيدا ، فأخذ يعمل على استرضائها فهي الحليف الذي يعده للمستقبل.

أما روسيا فكانت تربطها صداقة قديمة مع بروسيا منذ حرب القرم ، كما كانت هناك علاقات شخصية وعائلية بين الأسرتين الحاكمتين : أسرتى رومانوف وهوهنزلرن . وبسبب هذه الصلة المتينة ، وقفت روسيا موقف الحياد والعطف على الهوهنزلرن في حربهم مع النمسا ومع فرنسا . وإذا كانت روسيا قد اتخذت هذا الموقف انتقاما لنفسها من النمسا وفرنسا ، فإنها كانت تشعر بأنها أدت خدمة جليلة لبسمارك ولذلك فهي تنتظر المكافأة من ألمانيا ، ولكن بسمارك كان يعرف تماما بأن روسيا تعمل لمصلحتها قبل كل شئ . غير أن روسيا عام ١٨٧٠ لتجد على حدودها الغربية أقوى دولة حربية في أوروبا ، وأدركت أنه ربما من مصلحتها ألا تترك فرنسا تنهار أمام ألمانيا بهذا الشكل . ولذلك وقفت روسيا موقف الحاسد المترقب لأية فرصة تمكنها من الحد من قوة ألمانيا وكان بسمارك يفهم موقف روسيا تماماً ، ورأى من الحكمة استصلاحها وضمها إلى جانبه والإبقاء على صداقتها بقدر المستطاع .

حاول بسمارك عزل فرنسا وإبعادها عن أصدقائها وهما الروسيا والنمسا ، ولذلك أسرع بالتفاهم معهما . ففى عام ١٨٧٢ دعا بسمارك كل من إمبراطور النمسا وقيصر الروسيا إلى برلين حيث اجتمعا بالإمبراطور الألماني وليم الأول ، واتفق الأباطرة الثلاثة شفويا على المحافظة على الوضع الراهن في أوروبا ، ومقاومة الحركات الثورية التي تهدد أنظمة الحكم القائم في هذه الدول . وازدادت العلاقات

بين الأباطرة الثلاثة توثقا عندما زار بسمارك روسيا في العام التالي بصحبة الإمبراطور الألماني ، وأمكن التوصل إلى عقد إتفاقية عسكرية سرية بين ألمانيا وروسيا ، وعدت ألمانيا بموجبها إرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندى إلى روسيا فيما إذا اعتدت على الأخيرة دولة أوروبية ، على أن تقدم روسيا نفس المساعدة إلى ألمانيا إذا وقع عليها إعتداء . وفي يونيو من نفس العام زار القيصر الروسي فينا حيث وقع الجانبان الروسي و النمسوى إتفاقية تقضي بإجراء مشاورات في كل مسألة تتعارض فيها مصالح الدولتين ، وكذلك وعد كل منهما الآخر بالتفاهم حول توحيد الخطط في حالة اعتداء عسكري عليهما دون ما حاجة إلى إتفاق عسكري جديد . وبعد إنضمام الإمبراطور الألماني إلى هذا الإتفاق تكون تحالف (أو عصبة) القياصرة الثلاثة في عام 1873.

وعلى آية حال ، فلقد اقتنع بسمارك أن الوسيلة المناسبة لاقناع الدول الأوروبية الكبرى بالاعتراف بمركز ألمانيا الجديد في أوروبا ، هو استصلاح تلك الدول كان بسمارك محتاجا إلى السلام لكى يتفرغ لمعالجة المشاكل الداخلية الخطيرة التي واجهته ، ولتدعيم الوحدة التي تمت في ميدان الحرب . ولكن فرنسا كانت تقف وراء الحدود متعطشة للإنتقام إذا سنحت لها الفرصة المناسبة ، فلقد تخلصت سريعا من نتائج أخطاء الماضي ، ودفعت الغرامة الحربية بسرعة أثارت إعجاب العالم بقدر ما أزعجت بسمارك . ووجد بسمارك في سقوط تيير ، ذلك الجمهورى المحافظ ، وفي إعتلاء مكماهون الكاثوليكي الملكي ورجل الحرب ، مدعاة لإثارة مخاوفه لأنه كان يعرف جيدا أن فرنسا في ظل حكم الأحزاب اليمينية ستكون أكثر تفاهما مع روسيا ومع البابوية .

وهذا ما سعى بسمارك إلى تجنبه لعزل فرنسا عن القوى الأوروبية المناهضة له ولسياسته . كذلك كان بسمارك متضجرا من رغبة فرنسا في الثأر ، ومن « حركة الانتقام » التي كانت ترمي إلى الإنتقام من ألمانيا واسترداد الالزاس واللورين ، ولهذه الأسباب اضطر بسمارك دائما إلى إتباع سياسة تهديد فرنسا وتحذيرها وإنذارها حتى لا تفكر في إثارة حرب جديدة ربما أدت إلى تدخل الدول الأوروبية والإطاحة بما لألمانيا من مركز متفوق . وبلغت الأزمة بين فرنسا وألمانيا حداً هددت بالحرب بين الدولتين في عام 1875 ، وعندئذ اضطر ديكاز ، وزير خارجية فرنسا ، إلى الاستنجاد بانجلترا وروسيا موضحاً لهما أن فرنسا لا تريد الحرب وأن ألمانيا تعد حربا تقضى فيها على فرنسا تماما . وكانت كل من الدولتين تؤيدان فرنسا ، فالإبقاء عليها كقوة دولية ضروري لحفظ التوازن الأوروبي، وتدخلت الدولتان بسرعة لمنع تدهور الموقف ، وأرسل كل من قيصر الروسيا وملكة انجلترا خطابا للإمبراطور الألماني يدعوانه فيهما إلى ضرورة الحفاظ على السلام .

وكان لهذا التدخل أثره على سياسة بسمارك إزاء فرنسا فلقد غير بسمارك سياسة التهديد والوعيد التي اتبعها مع فرنسا ، لإنها لم تعد في عزلة سياسية كما كان يعتقد ، بل أن دولتين من دول أوروبا الكبرى تعطفان عليها ولا تسمحان بإبعادها أو القضاء عليها . وتأكد بسمارك الآن أهمية استصلاح انجلترا وروسيا ، ورأى ضرورة استخدامهما حتى تتمكن ألمانيا من المحافظة على تفوقها في أوروبا .

ووجد بسمارك في ممتلكات الدولة العثمانية ما يحقق تنفيذ سياسة التعويض ، وألمانيا ليست كالروسيا أو النمسا لها أطماع في الدولة العثمانية تحاول الوصول إليها بمختلف السبل ، فهي عازفة عزوفا تاما عنها ، كما أنها لا تساوى عند بسمارك دم جندي بروسي . غير أنها في نظره تمثل الوليمة التي ستدعى إليها الدول الكبرى لاشباع رغباتهم ونزواتهم ، وهو لذلك رحب بأن توجه هاتان الدولتان جهودهما نحو تقسيم البلقان لينشغلا بعض الشئ عن مناصبة ألمانيا العداء أو العمل على الاتفاق مع فرنسا . وعلى هذا الأساس قامت النظرية الألمانية أو سياسة « التعويض » على الأسس التالية :

1- تستطيع حكومة القيصر الروسي الإشراف على شرقي البلقان
2- تستطيع إمبراطورية النمسا والمجر الإشراف على غربي البلقان في المناطق الغربية من حدودها الدلماشية والكرواتية.
3- تستطيع انجلترا إرضاء مطامعها والمحافظة على التوازن الدولي في شرقي البحر المتوسط بالسيطرة على مصر ، وكان بسمارك يعلم تماما مدى اهتمام انجلترا.
4- بمصر وخصوصا بعد تطور سياستها الهندية وإشراف الحكومة البريطانية نفسها على الهند منذ عام 1858 ، بعد أن كانت شركة الهند الشرقية هي المشرفة عليها ، وقد تزايد اهتمام انجلترا بمصر منذ إفتتاح قناة السويس عام 1869 التي ستصبح في نظرها الشريان الحيوى لإمبراطوريتها .

تستطيع فرنسا إذا أحسنت سلوكها نحو ألمانيا وتناست مسألة استرجاع الألزاس واللورين أن تستعيض عن الولايتين المفقودتين بأخذ سوريا أو تونس . وهكذا عمل بسمارك على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية لإرضاء الدول الكبرى ولحفظ السلام في أوروبا ، وبالتالي المحافظة على الوضع الدولي المتفوق لألمانيا في أوروبا . وهكذا رأى بسمارك ضرورة استخدام سياسة استصلاح الدول الكبرى ، وهي السياسة التي سيقوم عليها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، والسياسة التي ستطبق خلاله وفي السنوات التي تليه . وفي الواقع كانت الظروف مواتية لبسمارك بسبب قيام الثورة في البلقان على الحكم العثماني وظهور المسألة الشرقية من جديد ، وعودة فكرة الإبقاء أو عدم الإبقاء على ممتلكات الدولة العثمانية .

(٢) المسألة الشرقية (١٨٧٦-١٨٧٨) وسياسة الاستصلاح :

ثارت المسألة الشرقية في عام 1875 وبدأت الاضطرابات في البلقان بثورة البوسنة والهرسك ضد الحكم العثماني . وكانت روسيا تؤيد تلك الثورة ، ولكن ألمانيا كانت تفضل سياسة التعاون مع غيرها من الدول لحل هذا النزاع سلميا ، لأن قيام حرب تشترك فيها الدول الأوروبية قد يجر ألمانيا إلى الاشتراك فيها . ولهذا أيدت ألمانيا فكرة روسيا في أن تتدخل دول إتحاد القياصرة الثلاثة (ألمانيا والنمسا وروسيا) لدى الدولة العثمانية للضغط عليها لاتباع سياسة تهدف إلى القضاء على أسباب الثورة. ولكن هذا الموقف لم يرض انجلترا وفرنسا ، لأنه يحول بينهما وبين الإسهام في حل المسألة الشرقية التي كانت تعتبر من أهم المشاكل الأوربية في ذلك الوقت . كما أنه يمنح روسيا حرية العمل على تحقيق أطماعها في ممتلكات الدولة العثمانية وهو ما يتعارض مع سياسة كل من الدولتين. واضطر الباب العالي أمام تدخل الدول إلى إصدار فرمان في ١٢ ديسمبر عام 1875 يتضمن بعض الاصلاحات لتحسين أحوال سكان هاتين الولايتين.

ولكن الثورة لن تنقطع بصدور هذا الفرمان ، فاستمرت الثورة في البوسنة والهرسك واستعد الجبل الأسود والصرب لمساعدتهما . ولهذا اجتمع بسمارك وجورتشاكوف(Gortchakoff) , وزير خارجية روسيا ، والكونت أندراشي ،وزير خارجية النمسا ، في برلين في مايو عام ١٨٧٦ دون اشتراك انجلترا ، وتقدموا إلى الحكومة العثمانية بمقترحات من وحي الروسيا تضمنتها ما أطلق عليه إسم مذكرة برلين بعد موافقة الحكومتين الإيطالية والفرنسية عليها وقد طلبت هذه المذكرة من الحكومة العثمانية إيقاف العمليات العسكرية لمدة شهرين ، والدخول مباشرة في مفاوضات مع رؤساء الثوار في البوسنة والهرسك بخصوص المطالب التي تقدموا بها ولكن الحكومة العثمانية رفضت المذكرة وشجعها على ذلك عدم اشتراك انجلترا في توقيعها ، هذا بالإضافة إلى ما تضمنته من مساس لحقوق الشرعية للدولة العثمانية.

وازدادت الحالة سوءاً في البلقان بقيام الثورة في بلغاريا ، إذ قام أهل البلاد بتدبير مذبحة للموظفين المحليين من العثمانيين ، ورأى العثمانيون في تلك الثورة أصابع الروس واضحة تنذر بتفويض الحكم العثماني في أوروبا . وتلا قيام الثورة في بلغاريا إعلان الصرب والجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية وبإعلان الحرب تمت الحلقة الأولى من المخطط الروسي ، الذي كانت روسيا تعمل جاهدة على تحقيقه ، وذلك بأن تتاح لها فرصة التدخل للقضاء على الدولة العثمانية . ولكي لا تعرقل النمسا تنفيذ هذا المخطط ، عقدت معها في 8 يوليو عام ١٨٧٦ اتفاقية وفيها

اتفق الطرفان على مبدأ عدم ا التدخل ، فإذا انتصر العثمانيون على الصرب وجب التدخل لمنع العثمانيين من الانتقام وحرمانهم ثمرة النصر ، وإذا انتصرت الصرب تتدخل الدولتان فتأخذ الروسيا بسارابيا من رومانيا وتحتل النمسا البوسنة والهرسك ، وفي حالة انهيار الدولة الأستانة مدينة حرة ؛ وعلى أساس هذه التسوية أمنت الروسيا جانب النمسا وأمنت النمسا جانب.

وعندما فشلت الصرب في الحرب فشلا ذريعا ، اضطرت روسيا للتدخل الفعلى مناصرة لفكرة الجامعة الصقلبية واضطرت روسيا للتدخل عندما أصبحت بلغراد نفسها عاصمة الصرب في خطر . ولذا أسرعت روسيا باقتراح هدنة وعقد مؤتمر من الدول ، ولكن العثمانيين المنتصرين رفضوا الهدنة قبل أن تقدم الصرب شروط صلح يرضونها . وكانت روسيا ترغب في مدة هدنة طويلة حتى تستطيع الصرب لم شعث قواها ، بينما كانت الدول الأخرى ترغب في هدنة قصيرة ، واختلفت الآراء بين الدول ووجد المستشار الألماني بسمارك في هذا الموقف فرصته في التدخل لتنفيذ سياسته التي طالما أعلنها من قبل ، وهي عدم حل المسألة الشرقية بشكل جزئي ، وإنما تطرح المسألة برمتها على بساط البحث .

وحرص بسمارك على توجيه نظر انجلترا إلى استغلال فرصة هياج المسألة الشرقية وقال بأنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية ، فإنه يقترح بريطانيا نفس السنن التي تنتهجها روسيا ، فإذا كانت روسيا تريد أن تستحوذ على النقط الاستراتيجية اللازمة لها بالسيطرة على المضايق ، البوسفور والدردنيل ، والإشراف على الآستانة ، فعلى الحكومة الإنجليزية أن ، تقابل ذلك بالسيطرة على مصر وقناة السويس . وكان هذا الحل خيرا في نظره من معارضة انجلترا لروسيا في البلقان وقيام حرب بينهما قد تتحول إلى حرب أوروبية , ربما تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق ، ولقد قال بسمارك في هذا الصدد أنه من الخير لانجلترا أن تأخذ قناة السويس والإسكندرية بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا ، وبذلك وحده تتوثق عرى السلم في أوروبا . ولكن حكومة المحافظين في انجلترا لم تقبل هذا الاقتراح بسهولة ، فرئيسها دزريلى ، رغم أنه هو الذي اشترى أسهم الخديو إسماعيل في قناة السويس عام 1875 ، ورغم تعلقه الكبير بالشرق ، ورغم أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وضخامة آثارها وبهاء نيلها وكثرة خيراتها ، إلا أنه لم ير في ذلك الوقت أن احتلال انجلترا لمصر وسيلة مفيدة لدرء الخطر الروسي عن الشرق الأدنى فقال إذا أخذ الروس الأستانة ، فإنه يمكنهم في أي وقت الوصول إلى سورية ووادى النيل .

ويبدو في عام ١٨٧٧ كانت تخشى عواقب اتباع سياسة بسمارك ؛ وفي الواقع كانت سياسة انجلترا قبل السبعينات من القرن التاسع عشر هي سياسة المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وعلى تماسك ممتلكاتها ، وهي السياسة التي وضع أسسها اللورد بامستون ، وزير خارجية انجلترا خلال النصف الأول من هذا القرن . ولكن حملات جلادستون التي قامت في انجلترا بعد حركة القمع التي قام بها العثمانيون في بلغاريا ، كانت من أهم العوامل التي أطاحت بسياسة انجلترا التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، تزعم جلادستون زعيم المعارضة من الأحرار الحركة التي ترمي إلى التخلص من هذه السياسة القديمة ، وكتب عدة مقالات أهمها " The Bulgarian Horrors " ، التي وصف فيها الأتراك بأبشع ما توصف به أمة من الأمم ، واتهمهم بأنهم أعداء الإنسانية كان لهذا الموقف أثر كبير على الرأى العام الإنجليزي فلم يعد هناك من نصير قوى للدولة العثمانية خصوصا بعد أن أعلنت الحكومة العثمانية عجزها عن دفع فوائد الديون التي اقترضتها من انجلترا ، فازداد السخط في الدوائر المالية عليها، وشعرت حكومة المحافظين في انجلترا بأنه لم يعد في استطاعتها الدفاع عن سياسة انجلترا التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، ولكن موقف انجلترا نحو روسيا وأطماعها لم يتغير ، فلا زالت حريصة على وقف التوسع الروسي نحو البحر المتوسط ، وعندما يتولى اللورد سولزبرى منصب وزير الخارجية في أوائل صيف عام ١٨٧٨ ، ستتخذ انجلترا موقفا حاسما إزاء كل من روسيا والدولة العثمانية ؛ فكان سولزبرى يمقت الدولة العثمانية مقتا شديداً ، ويعتقد أن الأتراك لا يصلحون للبقاء كدولة حديثة فأفكارهم في نظره غير معقولة ، وحكومتهم فوضى.

لقد أدرك سولزبرى أن وجود الدولة العثمانية الضعيفة، شأنه أن يعرض مصالح بريطانيا الإمبراطورية للخطر ، ولذلك قرر استبعاد الدولة العثمانية من شرق أوروبا وتقسيم ممتلكاتها ، وهكذا وضع سولزبرى حداً نهائيا للسياسة الإنجليزية التقليدية نحو الدولة العثمانية من الناحيتين العملية والنظرية .

وبدأت تظهر أطماع انجلترا في ضم جزء من ممتلكات الدولة العثمانية مثل مصر أوكريت أو قبرص . وفي حقيقة الأمر كانت نفس انجلترا تهفو إلى احتلال مصر ، وطالما شجعها بسمارك على ذلك منذ عام 1875 ولكنها خشيت الاقدام على هذه الخطوة حتى لا تسئ إلى علاقاتها مع فرنسا، ولذا اتجه نظر انجلترا إلى جزيرتى كريت وقبرص ، ولكن سولزبرى ورجال الحرب فضلوا احتلال قبرص لها من موقع ممتاز في البحر المتوسط ، فهي « مفتاح آسيا » وجبل طارق جديد ؛ ومما رجح قبرص على غيرها إشرافها على السواحل المصرية الشمالية ، وقربها من ممتلكات الدولة العثمانية الآسيوية حيث تتركز أطماع روسيا .

وبدأت المفاوضات السرية بين الدولة العثمانية وانجلترا ، واختارت انجلترا توقيتا مناسبا للدخول في تلك المفاوضات ، وهو الوقت الذي استعرت فيه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، واندحرت قوات الأخيرة أمام ضربات روسيا . وأمام التهديد الانجليزي بالقضاء على الإمبراطورية العثمانية ، اضطر السلطان إلى توقيع اتفاقية ٢٦ مايو عام ١٨٧٨ ، التي قبلت الدولة العثمانية بمقتضاها احتلال الانجليز لجزيرة قبرص مقابل حماية انجلترا للدولة ، وعلى هذا النحو نفذت انجلترا من الناحية العملية فكرتها لنظرية تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، ومغادرة السياسة التقليدية نهائيا . أما عن الموقف في البلقان ، فقد كانت روسيا تستعد للحرب ، ودخلت في مفاوضات مع النمسا انتهت في 15 يناير بتوقيع اتفاقية بودابست السرية (Budapest Convention) ، وتنص على وقوف النمسا على الحياد في حالة قيام حرب بين الدولة العثمانية وروسيا بشرط أن توافق روسيا على احتلال النمسا للبوسنة والهرسك في معاهدة الصلح .

وفي ٢٤ أبريل عام ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وأقدمت على ذلك لاعتقادها أن انجلترا لن تستطيع التدخل هذه المرة لتأييد الدولة العثمانية ، فالرأى العام الإنجليزي كان قد انصرف كلية عن السياسة التقليدية القديمة، وكانت خطة روسيا عند دخولها الحرب الإسراع بعبور الدانوب ، ومهاجمة القوات العثمانية ثم اختراق جبال البلقان ومهاجمة القسطنطينية نفسها ، وبذا تضع حدا لمسألة الدولة العثمانية ، كما تضع الدول أمام الأمر الواقع . ودعا انتصار الروس إلى التفكير في شروط الصلح التي تفرض على الدولة العثمانية ، ولكن عندما بدا الخطر واضحا على الاستانة والمضايق ، أرسلت انجلترا ببعض قطع من أسطولها إلى البحر المتوسط للوقوف على مقربة من الدردنيل وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين روسيا وانجلترا ، ودخلت ألمانيا للتوفيق بين الدولتين .

وفي تلك الأثناء فرضت روسيا في 3 مارس عام ١٨٧٨ معاهدة سان استفانو على الدولة العثمانية ، ونصت تلك المعاهدة على اعتراف الدولة العثمانية بحرية الملاحة في المضايق ، وتعهدها بإغلاق البحر الأسود في وجه الدول المعادية لروسيا في وقت الحرب . كذلك نصت على استقلال رومانيا بصفة نهائية عن الدولة العثمانية مع منحها جزءاً من دلتا نهر الدانوب . أما بلغاريا فتضم إليها إقليم دبروجة وبذلك تتسع رقعتها ، وتصبح ولاية كبيرة تتمتع بالاستقلال الذاتي مع الاعتراف بالسيادة الإسمية للباب العالي ، وإلى أن تصبح تلك الولاية قادرة على حماية نفسها تقرم القوات الروسية باحتلالها ؛ كذلك تلحق أجزاء من الهرسك بالجبل الأسود . أما بخصوص روسيا فتضم إليها إقليم بسارابيا وأردهان وقارص وباطوم وجزء من

أرمينية ، هذا بالإضافة إلى غرامة حربية فرضتها على الدولة العثمانية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه.

هاجمت انجلترا والنمسا تلك المعاهدة لأنها منحت روسيا امتيازات واسعة في البلقان ، إلى جانب سيطرتها على المضايق والملاحة في البحر الأسود . فرأت انجلترا أن روسيا حصلت بمقتضى المعاهدة على مركز متفوق في شرقي البحر المتوسط يهدد مصالح انجلترا وسلامة مواصلاتها إلى الهند وجنوب شرقي آسيا ، أما النمسا فلم تحصل على نصيب من الغنيمة ، وكانت تطمع في زيادة نفوذها في غربي البلقان . وهنا اتجهت الأنظار إلى ألمانيا وانتقل مركز الثقل السياسي إلى برلين ، وتدخل بسمارك لإنقاذ السلام الأوروبي فتوسط بين النمسا وروسيا ، ووافقت الأخيرة على الاعتراف بحق النمسا في البوسنة والهرسك . وبذلك تحقق النمسا السيطرة على غربي البلقان مقابل سيطرة الروس على شرقيه ، وتعادل بالتالي نفوذ الدولتين في البلقان . أما في انجلترا فقد جرت مفاوضات بين سولزبرى وشوفالوف ، السفير الروسي في لندن ، وأوضحت انجلترا أنها تعارض معاهدة سان استفانو لسببين أولهما أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هي بلغاريا مما أخل بالتوازن بين دويلات البلقان ؛ وثانيهما ، أنها وضعت الباب العالى تحت رحمة روسيا .

ولم تمانع روسيا في تعديل بنود معاهدة سان استفانو بما يتمشى مع مقترحات انجلترا ، ولكن انجلترا كانت قد وقعت في تلك الأثناء المعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي احتلت بمقتضاها قبرص ولما كانت هذه المعاهدة سرية ، فلم تعلم بها روسيا والدول الأوروبية الأخرى . وبذلك ضمنت انجلترا سلامة ممتلكات الدولة العثمانية الأسيوية وسلامة مصالحها الإمبراطورية واتفقت الدول الأوروبية على ضرورة إعادة النظر في معاهدة سان استفانو في مؤتمر دولي عقد في برلين ، وكان انعقاد المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك اعتراف من الدول الأوروبية بتفوق النفوذ الألماني . وفي الواقع لم يكن اجتماع الدول الأوروبية الكبرى لإعادة النظر في معاهدة سان استفانو بقدر ما كان للموافقة على الاتفاقات التي تمت بين روسيا والنمسا من ناحية ، وبين روسيا وانجلترا من ناحية أخرى . واجتمع المؤتمر في 13 يوليو عام ١٨٧٨ ، وثارت مناقشات عنيفة خلال الجلسات رغم أن كثيراً من المسائل قد سويت قبل عقد المؤتمر ، ولا سيما ما يتعلق ببلغاريا وباطوم . وعلى آية حال ، توصل المندوبون إلى الاتفاق فيما بينهم على بنود معاهدة برلين التي تكونت من أربع وستين مادة، ونصت على ما يلى :

1 ـ تصبح بلغاريا ولاية لها استقلال داخلي ، وتدفع الجزية وتدين بالولاء للسلطان العثماني ، وتكون لها حكومة مسيحية وقوة بوليس قومية .

٢ ـ فصل ولاية الروملي الشرقية عن بلغاريا الكبرى ووضعها تحت الحكم العثماني المباشر ، وبذلك تكون بلغاريا قد تقلصت.

3 ـ توضع البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمسوى على أن تظل الإدارة العثمانية في صنجق نوقى بازار .

4 ـ يعترف الباب العالي والدول باستقلال الجبل الأسود .

٥ ـ اعتراف الدول باستقلال الصرب (بهذا وضع الأساس الذي ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة)

6 ـ اعتراف الدول باستقلال رومانيا التي حصلت على إقليم دبروجة ولكن فقدت بسارابيا التي حصلت عليها روسيا .

7 ـ تنازل الباب العالي لروسيا في آسيا عن أراضي اردهان وقارص وباطوم .

8 ـ أعلن الباب العالى رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني ، ولا يجب أن يقف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل في حماية رعاياهم .

وهكذا حاولت معاهدة برلين ١٨٧٨م التوفيق بين مصالح الدول الكبرى في البلقان ، ونفذت إلى حد كبير سياسة الاستصلاح والتعويض التي وضعها بسمارك بين روسيا وانجلترا والنمسا والمجر ، فقوى النفوذ الروسي في شرقي البلقان ، ونمى النفوذ النمسوي في غربة ، ورضيت انجلترا حين وضع حد لأطماع روسيا في الإشراف على القسطنطينية والمضايق ، وكذلك في تقسيم بلغاريا إلى قسمين أحدهما مستقل والآخر تحت حكم الدولة العثمانية .

وبذلك قضت على أهداف روسيا في إنشاء الدولة البلغارية الكبرى التي تتمتع بتأييدها ولكن مع ذلك ، لم تستطع انجلترا القضاء كلية على أطماع روسيا ، فلقد أتاح لها الاستيلاء على القوقاز وأزدهان وباطوم فرصة طيبة للتوسع في آسيا من ناحية ، وفي متاخمة حدود الدولة العثمانية واقترابها من آسيا الصغرى والعراق من ناحية أخرى . ولكن مما خفف على انجلترا ، استيلاؤها على جزيرة قبرص لإيجاد نوع من توازن القوى في شرقي البحر المتوسط أما ألمانيا فقد بدت أمام الدول الأوروبية الكبرى دولة منزهة عن الأطماع ، كل همها هو استصلاح دول أوروبا، وتحقيق السلام المنشود . ولكن خلال السنوات التي ستعقب مؤتمر برلين سيظهر التقارب الواضح بين ألمانيا والدولة العثمانية ، إذ سيعتبر العثمانيون أن ألمانيا رغم قسوتها كانت أكرم من غيرها من الدول فلم تقتطع شيئاً لنفسها في المؤتمر .

وترتب على معاهدة برلين بعض النتائج الهامة نذكر منها ما يلي :

1 ـ وضعت المعاهدة حدا لأطماع روسيا في تقدمها نحو الغرب ، ووجهتها

٢ ـ كان استيلاء انجلترا على قبرص مقدمة منطقية لاحتلال مصر في الوقت المناسب ، فجزيرة قبرص تواجه السواحل المصرية الشمالية ، وتمثل نقطة وثوب ومراقبة في مواجهتها ، وتمنح انجلترا موقعا استراتيجيا هاما تستطيع بطريق غير مباشر إلى التوسع في آسيا ، حيث بدأت تصطدم بقوى آسيوية وأوروبية مثل اليابان وانجلترا وفرنسا . الهيمنة على مصر ، ومنع أية دولة أوروبية من الاقتراب منها

3- تزايد اهتمام العثمانيين وخاصة السلطان عبد الحميد الثاني بفكرة الجامعة الإسلامية ، وبالتقارب من ألمانيا لتستطيع الوقوف أمام مطامع الفرنسيين في تونس ، ومطامع الفرنسيين والإنجليز في مصر فاستقدمت الحكومة العثمانية بعثة حربية ألمانية لتنظيم الجيش العثماني ، وزاد النفوذ الألماني في ممتلكات الدولة العثمانية إلى حد أخذت تستغله المطامع الاستعمارية الألمانية الناشئة ، فحاولت ألمانيا وخاصة بعد سقوط بسمارك أن تعمل على تفوق نفوذها في آسيا الصغرى والجزيرة العربية فوضعت مشروع سكة حديد بغداد لتربط بين برلين واستانبول وبغداد لتقاوم نفوذ انجلترا التجاري في الشرق الأوسط وأعلنت ألمانيا صداقتها للعثمانيين وتفوق نفوذها في البلاط العثماني ، الأمر الذي دعا إلى إثارة مخاوف انجلترا من الناحية السياسية والتجارية مما سيكون له أثر كبير في التقارب الإنجليزي الروسي وتقسيم إيران إلى منطقتى نفوذ شمالية لروسيا ، وجنوبية لانجلترا ، ودعا تفوق الألمان في استانبول انجلترا إلى أن تفكر جديا في القضاء النهائي على الدولة العثمانية بتأييد الفريق الأكبر سكان الدولة العثمانية وهم العرب ، إذا وقفوا إلى جانب انجلترا .

4 ـ كان أثر المعاهدة أيضا توجيه النشاط الاستعماري نحو القارتين الآسيوية والإفريقية ، وسينظم مؤتمر برلين الذي سيعقد في عام ١٨٨٤ هذا النشاط في المجال الإفريقي ، ووضع مبادئ عامة للاستعمار ، ونظم التسابق على مناطق النفوذ طبقا لقاعدة التراضي والتبادل . ووجهت فرنسا حملاتها إلى شواطئ أفريقيا الغربية من ناحية وإلى حوض النيجر من ناحية أخرى ، واستولت على ما عرف فيما بعد باسم غانا الفرنسية وعلى ساحل العاج وداهومي . كذلك اتسع نفوذها في منطقة النيجر الأعلى حتى بلغت بحيرة تشاد ، وأنشأت ما عرف باسم السودان الفرنسي .

وهكذا انقسمت مناطق النفوذ الأوروبي في أفريقيا الغربية إلى : المنطقة الفرنسية ، وقد ارتبطت بشمال أفريقيا بعد الاستيلاء على الصحراء ، وتشمل أفريقيا الغربية الفرنسية والكونغو الفرنسي وملحقاته وعرفت باسم أفريقيا الفرنسية الاستوائية ؛ ومنطقة النفوذ الإنجليزي وهي أوسع مدى وأعظم ثروة من المنطقة

الفرنسية ، وتشمل جامبيا وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا ، ولا يحدها من الداخل سوى منطقة النفوذ الفرنسي . أما الكونغو البلجيكية فكانت من نصيب بلجيكا وكانت أرضها تفيض بالأخشاب الثمينة والمطاط والجلود والأورانيوم . وكان يتلو هذه المناطق في الأهمية والثروة منطقة النفوذ الألماني في توجو والكاميرون ، إلا أن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى اضطرتها إلى التنازل بمقتضى معاهدة فرساي عن كل حقوقها وامتيازاتها فيما وراء البحار، وتطبيقا لنظام الانتداب الذي وضع عقب الحرب ، ندبت فرنسا وانجلترا لإدارة توجو والكاميرون . ولم يقتصر النفوذ الأوروبي على إفريقيا الغربية بل امتد كذلك إلى إفريقيا الجنوبية وإلى شرقي أفريقيا .

ه ـ اتخذت فرنسا من استيلاء انجلترا على قبرص موضوعا للمساومة ، واعتبرت هذا العمل من قبل انجلترا إخلالا بالتوازن الدولي في شرقي البحر المتوسط ، ولم تهدأ ثائرة فرنسا إلا بعد أن أكدت لها انجلترا بأنها لن تغير شيئا في الموقف السياسي في منطقة الشرق الأدنى إلا بموافقتها . كما أبدت انجلترا موافقتها على مطامع فرنسا في تونس ، وتطلعاتها إلى المساواة في النفوذ مع

انجلترا في مصر.

3 . التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) :

لم يؤد مؤتمر برلين (١٨٧٨) إلى إقرار الحالة في أوروبا ، كما لم تعمل معاهدة برلين على حل الخلافات بين الدول الأوروبية الكبرى حلا حاسما ولقد خرجت روسيا من برلين غاضبة ، حقيقة أنها اقتطعت من الدولة العثمانية بعض أجزائها الأسيوية ، وفرضت عليها غرامة كبيرة ، وأحلت نفوذها في بلغاريا ، إلا أنها ستعمل هي والدولة العثمانية على عرقلة تنفيذ معاهدة برلين . ولقد شعر بذلك ساسة أوروبا منذ اللحظة الأولى وخصوصا في مسألة بلغاريا . كما أن روسيا كانت حانقة على ألمانيا لأنها لم تؤيد روسيا التأييد الكافي الذي انتظرته منها عرفانا بالجميل لروسيا . علاوة على ذلك ، لم تكن العلاقات الروسية ـ النمسوية جيدة ، إذ سيطر الشك المتبادل على العلاقات بين الدولتين ، كما أن أطماعها في البلقان كانت متنافسة ومتضاربة، وكانت النمسا تشكو دائما من دعاية روسيا الصقلبية وأدركت أن تقدم روسيا في البلقان من الأمور الخطيرة على حياة الدولة النمسوية وأنه يجب عليها مقاومتها . وهكذا لم يكد مؤتمر برلين بدأت تظهر الصعوبات في تنفيذ قراراته . ولكن ، رغم ذلك ، ساد السلام في أوروبا فترة طويلة بفضل سياسة بسمارك القائمة على المحافظة على السلام وتفوق ألمانيا في أوروبا ينتهي حتى التحالف الثنائي بين ألمانيا والنمسا (١٨٧٩) .

ساء لروسيا قبل مؤتمر برلين وأثناؤه أن التأييد الألماني لم يكن قويا في جانبها ، بل أحست بأن بسمارك كان يعمل على الانتقاص من مر مركزها ، واستصلاح انجلترا على حسابها ومما أثار روسيا كذلك موقف بسمارك إزاء النمسا، إذ كانت تعمل على عرقلة نشاط الجامعة الصقلبية في البلقان ، ومساندة المعارضة ضد الروس في رومانيا . وكان بسمارك يعضد النمسا في هذه السياسة حتى يضمن إنشغالها نهائيا عن مسائل ألمانيا ، ولكي يجعل مسألة التحالف بين النمسا وروسيا أمرا مستحيلا . ففي عام ١٨٧٩ وافق بسمارك على احتلال النمسا لصنجق نوقى بازار ، ولم تستطع روسيا اخفاء غضبها لذلك فقامت بمناورات حربية في بولونيا على حدود ألمانيا . وعبر القيصر الروسي في خطاب إلى القيصر الألماني في أغسطس عام 1479 وحذر القيصر الألماني من العواقب الوخيمة التي سوف تترتب على سياسة بسمارك .

أما بسمارك فلم يفكر قط في قطع علاقاته مع روسيا ، وكان يعمل دائما على المحافظة على العلاقات السلمية بين ألمانيا وروسيا . ولكن موقف روسيا أثار مخاوفه ، ورأى نتيجة لذلك ضرورة توطيد علاقته مع النمسا حتى ألمانيا في أوروبا ، واستفاد بسمارك من وجود عناصر مجرية لها نفوذ كبير في فينا. فالكونت أندراشي ، وزير خارجية النمسا ، كان قليل الثقة باتحاد القياصرة الثلاثة وأراد عقد تحالف ثنائي بين ألمانيا والنمسا ضد روسيا . ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أن روسيا قد فاتحت هي الأخرى فرنسا وإيطاليا بخصوص عقد اتفاق فيما بينهما ، الأمر الذي حدا ببسمارك إلى الإسراع في عقد التحالف الثنائي مع النمسا ، ولقد اتخذ بسمارك من موقف روسيا ذريعة لكي يثبت للقيصر الألماني سوء نيات روسيا نحو ألمانيا . ولم تكن موافقة القيصر الألماني سهلة ، فلقد كان حريصا على صداقة زميله الروسي ولكن بسمارك بدأ حملته المدروسة لإظهار الخطر الروسي في ربيع عام ١٨٧٩ . وكانت أول إشارة إلى ذلك عدما نشر في 4 فبراير اتفاقا مع النمسا والمجر تعفي ألمانيا بمقتضاء من اجراء استفتاء في شمال شازفيج ، وكان هذا تحديا للقيصر الروسي الذي طالب مرارا بوجوب إجراء الاستفعاء . واستطاع بسمارك في 17 أكتوبر عام 1879 من توقيع معاهدة التحالف بين النمسا والمجر وألمانيا ، وكانت هذه المعاهدة أول خيط في شبكة التحالفات التي قدر لها أن سطى أوربا كلها ؛ وكانت المعاهدة عبارة عن حلف دفاعي بسيط ضد هجوم روسى هى ونصت على ما يلي : أولا : أن تبادر كل من الدولتين المتعاقدين (النمسا وألمانيا) إلى مساعدة الثانية بكامل قواتها إذا ما هاجمتها روسيا.

ثانياً : وفي حالة مهاجمة فرنسا وإيطاليا لإحدى الحليفتين فإن الحليفة الثانية تلتزم جانب الحياد الودي ، فإذا أيدت روسيا الدولة المهاجمة بادرت الدولة الحليفة الثانية المتعاقدة إلى مساعدة حليفتها بكامل قوتها .

وتعنى هذه المعاهدة الدفاعية السرية انه إذا هاجمت روسيا النمسا فإن ألمانيا تساعد الأخيرة ، وإذا هاجمت فرنسا ألمانيا فتقف النمسا على الحياد الودي ، أما إذا ساعدت روسيا فرنسا فإن النمسا تساعد ألمانيا . وكانت مدة المعاهدة خمس سنوات ، وحددت في عامي ١٨٨٣ و ١٩٠٢ واستمرت حتى عام ١٩١٨ عندما هزمت الدولتان في الحرب العالمية الأولى ولقد عملت تلك المعاهدة على تقوية السلم في أوروبا لسنوات كثيرة ، كما ، أنها على وجه اليقين أيضا ، أدخلت ألمانيا وأوروبا كلها في الحرب العالمية الأولى.

اتحاد القياصرة الثلاثة (١٨٨١) :

ولكن روسيا وجدت في التحالف الألماني النمسوى خطرا جديدا موجها إليها ، وأخذت الصحف الروسية تندد بالسياسة الألمانية . ومما ساعد روسيا على تفادى موقف العداء العلني من ألمانيا العلاقة بين قيصري روسيا وألمانيا ، وأخبر القيصر الألماني صديقه قيصر روسيا بأن هذه المعاهدة ليست إلا أداة دفاعية لضمان السلام في أوروبا ، ورأى القيصر أن من الخير قبول هذا التفسير بسبب المشاكل التي تعرض لها عرشه ، ولم يفكر في يوم من الأيام قطع علاقاته مع ألمانيا ، لأنها دولة ملكية تعمل على صيانة حقوق الملوك . ومن ناحية أخرى ، لم يكن بسمارك قد تخلى عن روسيا نهائيا ، بل كان يود تجديد عرى الصداقة معها على أن لا يضر ذلك حليفته النمسا ، وكان يعمل دائما على إعادة تدعيم اتحاد القياصرة الثلاثة.

وفى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٧٩ ، وقبل التوقيع على التحالف الألماني – النمسوى ، عين سابوروف سفيراً لروسيا في برلين . وكان سابوروف يحتقر الميل إلى السلاف ويناصر السياسة الدفاعية القائمة على التحالف مع ألمانيا ، وكتب إلى القيصر الروسي يقول أن بروسيا الحميمة تضعنا في الموقف الممتاز لنكون القوة الوحيدة في أوروبا التي لا تخشى هجوما والتي يمكنها تقليل ميزانيتها دون ما مخاطرة كما فعل سيدنا أوغسطين بعد حرب القرم » . وفي يناير عام ١٨٨٠ ، عرض سابوروف رسميا على بسمارك إحياء اتحاد القياصرة الثلاثة ولما كان بسمارك بخشى انتقام فرنسا رحب بتلك المبادرة ، وبعد مفاوضات طويلة بين الجانبين استطاع بسمارك أن يقنع النمسا بالاشتراك في تحالف الأباطرة الثلاثة الذي وقع في ١٨ يونيو عام ١٨٨١ . وقد نص هذا التحالف على الشروط التالية :

أولا : في حالة اشتباك أحد الأطراف المتعاقدة السامية في حرب مع دولة عظمى رابعة ، يلتزم الطرفان المتعاقدان الآخران الحياد الودى . ومعنى هذا أنه إذا دخلت ألمانيا في حرب مع فرنسا فإن النمسا وروسيا تبقيان على الحياد ؛ وكذلك إذا دخلت النمسا في حرب مع إيطاليا ، أو روسيا مع انجلترا ، فإن كلا من ألمانيا وروسيا ، أو ألمانيا والنمسا تبقيان على الحياد) .

ثانيا : تحترم الدول المتعاقدة الثلاث حقوق النمسا في مقاطعتي البوسنة والهرسك كما نصت عليها معاهدة برلين ١٨٧٨ م .

ثالثاً : تسلم الدول الثلاث بمبدأ إغلاق المضايق (البوسفور والدردنيل) ، ويجب على الدولة العثمانية ألا تشذ هذه القاعدة لمصلحة دولة ما ، على الدول الثلاث أن تخبر الدولة العثمانية بأنها (أي الدولة العثمانية) في حرب مع الدولة التي تمسها للمحالفة فيما إذا أرادت الدولة العثمانية أن تسمح لدولة ما أن تستخدم المضايق في حالة الحرب ضد دولة أخرى عضوة في المحالفة ؛ (أي أن المضايق يجب أن تغلق في وجه كل الدول وإذا أرادت الدولة العثمانية فتح المضايق لانجلترا ضد روسيا ، فإن كلاً من ألمانيا والنمسا ، بالإضافة إلى روسيا ، تكون في حالة – ضد الدولة حرب العثمانية).

وهكذا نجح بسمارك في التوفيق بين مصالح روسيا والنمسا وقسم البلقان إلى منطقتى نفوذ : منطقة روسية في الشمال ، ومنطقة نمسوية في الجنوب . ولم تتشابه كثيرا العصبة الجديدة بعصبة عام ١٨٧٣ ، وكان ذلك آخر مظهر للمقاومة من جانب العناصر المحافظة في أوروبا . وكان اتحاد القياصرة الثلاثة نصرا للروس وربما لبسمارك أيضا ، فقد تحررت ألمانيا من اضطرارها للخيار بين الروسيا والنمسا والمجر في البلقان . وحصلت روسيا على الأمن في البحر الأسود في مقابل وعد باتباع السلوك السلمي الذي دفعها إليه ضعفها الداخلي لتحافظ عليه على آية حال . ولقد أدى اتحاد القياصرة الثلاثة ، الذي كان حلفا للصداقة بطريقة غير مباشرة ، إلى التحالف الثلاثي الذي كان تخالفا ضدها بكل وضوح مع روسيا

التحالف الثلاثي (١٨٨٢) :

رمى بسمارك بشباكه لاقتناص حليف آخر ، وتمكن بدهائه المنقطع النظير من أن يجمع شمل النمسا وإيطاليا في صعيد واحد ، رغم ما كان بينهما من تضارب كبير في المصالح الحيوية وعلى العموم كانت الرابطة بين إيطاليا وأوروبا الوسطى أقدم الروابط في التاريخ الأوروبي . وكانت إيطاليا القومية أساسا لانتصار ألمانيا القومية. وكان التحالف الإيطالي حاسما في حرب عام ١٨٦٦ ، ولولا إيطاليا لاتحدت فرنسا والنمسا والمجر ضد بسمارك عام ١٨٧٠ . ولكن في مؤتمر برلين تجاهلت

الدول الأوروبية مطالب إيطاليا وعوملت على نفس مستوى اليونان والدولة العثمانية وحصلت النمسا والمجر على البوسنة والهرسك ، وانجلترا حصلت على قبرص ، وشجعوا فرنسا على أخذ تونس ، وعاد مندوبو إيطاليا بمفردهم من المؤتمر وأياديهم نظيفة . ودعا ذلك الموقف إلى اتجاه نشاط إيطاليا إلى الشاطي الإفريقي المواجه لها، ونازعت إيطاليا كل خطوة أو مشروع فرنسي في تلك المناطق منازعة عنيفة وكانت فرنسا على يقين بأن ايطاليا تسعى إلى أن يكون لها مركز مساو لمركز فرنسا في تونس ، واحتدم النزاع بين الدولتين وادعت إيطاليا أن وجود فرنسا في تونس فيه تهديد خطير لإيطاليا ومستقبلها .

ولكن فرنسا عزمت على ألا تتواجد دولة أوروبية بجوار الجزائر ، ورأى الفرنسيون في النهاية سرعة التدخل الحربي في تونس ، وكان من أكبر العاملين على تنفيذ ذلك سان فالير ، سفير فرنسا في برلين، الذي بذل جهده لإقناع الحكومة الفرنسية بالتدخل قبل أن تقفز دولة أخرى فتحل محل الفرنسيين في هذه البلاد . فاحتلت قوة فرنسية البلاد ، وفي ١٢ مايو عام ١٨٨١ وقع الباي معاهدة باردو وقبل الحماية الفرنسية صارت إيطاليا لا حول لها ولا قوة ، ونظرت إلى احتلال الفرنسيين لتونس كإذلال جديد لها . ووجدت ايطاليا أن كلا من انجلترا وفرنسا لا يأبه كثيراً للمصالح الإيطالية ، كما وجدت الملكية الإيطالية إزاء الفوضويين والاشتراكيين والجمهوريين الإيطاليين أن الملجأ الحقيقى هو ملكيات أوروبا الوسطى .

ورأت إيطاليا ضرورة التضامن مع ألمانيا ، لا سيما عندما أخذ بسمارك يستصلح البابوية ، فخشيت الحكومة الإيطالية أن يقوم حلف بين ألمانيا والبابوية على حساب الوحدة الإيطالية الحديثة ولما قررت الانضمام إلى ألمانيا ذكرها بسمارك أن الطريق لي برلين لابد أن يمر بقينا وعلى إيطاليا أن تحسن علاقاتها بالنمسا . وفي أكتوبر عام ١٨٨١ قام همبرت ، ملك إيطاليا ، بزيارة فينا ، وكان طريقاً طويلا منذ أيام كافور العظيمة وعرض الإيطاليون على النمسا والمجر أمنا متبادلا، وأوضحوا أن فرنسا تهددهم ، ولكن الهدف الحقيقي من داخليا ، لكى يصونوا الملكية من تغيير مفاجئ يقوم به الجمهوريون ، أو من تدخل الدول الأجنبية لإعادة سلطة البابا الزمنية . ولكن هذه الزيارة لم تؤد إلى النتيجة المرجوة .

ذلك أن في فبراير عام ١٨٨٢ أحيا بسمارك المفاوضات مرة أخرى ، والسبب في "جمبتا Gambetta " الوطني الراديكالي الكبير قد أصبح رئيسا للوزراء في فرنسا للمرة الأخيرة (نوفمبر عام ١٨٨١) ، وود في نهاية الأمر أن يتحالف . الروسيا وانجلترا ، كما ود أكثر أن يتصالح مع إيطاليا ، وانتهى أن :

الأمور ثقل وزن ألمانيا وتجعل تسوية مسألة الألزاس واللورين بالمفاوضات أمرا ميسورا . ولم ينزعج بسمارك من هذه البادرة ، فقد تمنى شخصيا بطريقة غامضة أن يتصالح مع فرنسا ، بيد أن وصول جمبتا للحكم كان له تأثير ملحوظ على سياسة روسيا التي سعت في هذا الوقت إلى التحالف مع فرنسا حقيقة أن جمبتا قد سقط ولم يتحقق أمل الروسيا في تنفيذ تلك السياسة ، ولكن موقف روسيا هذا هز إيمان بسمارك في سياسة المحافظين الروس . وفي ٢٨ فبراير حث بسمارك النمسا على إحياء المفاوضات مع إيطاليا ، وأسفرت المفاوضات الثنائية : وإيطاليا عن مخالفة ثلاثية اشتركت فيها ألمانيا ووقعت في ٢٠ مايو عام ١٨٨٢ تنهى هذه بين النمسا وقد نصت معاهدة التحالف الثلاثي على المواد التالية المادة الأولى : تعد الأطراف المتعاقدة السامية بعضها البعض بالصداقة ، وبعدم الدخول في أي تحالف أو التزام موجه ضد أي وتتعهد الدول المتحالفة بتبادل الآراء حول المسائل السياسية والاقتصادية ذات الصبغة العامة ، كما تتعهد أيضا بتأييد بعضها البعض في نطاق مصالحهم الخاصة .

كان من جانب تثير المادة الثانية : في حالة تعرض إيطاليا للهجوم لأي سبب فرنسا دون أن تثير (إيطاليا) أي استفزاز ، فإن الطرفين الأخيرين المتعاقدين سيضطران إلى تقديم العون والمساعدة بكل قواها للطرف الذي يهاجم . وينطبق هذا الالتزام نفسه على إيطاليا في حالة هجوم من جانب فرنسا ضد ألمانيا دون أن أي استفزاز مباشر.

المادة الثالثة : إذا ما حدث وهوجم طرف أو طرفان من الأطراف السامية المتعاقدة دون ما استفزاز مباشر من جانبها ، وإذا ما وجدت نفسها وقد انخرطت في حرب مع دولة أو أكثر من الدول العظمى لم توقع على المعاهدة الحالية ، فإن هناك ما يبرر قيام كل الأطراف المتعاقدة السامية بالحرب في وقت واحد .

المادة الرابعة : إذا ما هددت دولة عظمى غير موقعة على المعاهدة الحالية سلامة الدول السامية المتعاقدة ، وإذا ما وجدت الدول المهددة نفسها على هذا النحو مدفوعة إلى شن الحرب ضد تلك الدولة ، فإن الطرفين الآخريين يلتزمان بالحياد المشوب بالعطف بجانب حليفتهما ، وتحتفظ كل منهما بحقها في الاشتراك في الحرب إذا ما رأت أنه من المناسب جعلها قضية عامة مع – حليفتها . المادة الخامسة : إذا ما برز أي تهديد لسلم أحد الأطراف المتعاقدة في الأحوال المنصوص عليها في المواد السالفة الذكر ، فإن الأطراف المتعاقدة السامية تجتمع مع بعضها البعض في الوقت المناسب حول موضوع الاجراءات العسكرية المطلوبة لأجل تعاونهما النهائي .

وتتعهد أنه الآن فصاعدا ، وفي كافة الأحوال وفي حالة اشتراكهما في الحرب معا ، بأنها لن تعقد هدنة أو صلحا أومعاهدة إلا بالاتفاق المتبادل.

وكانت مدة المعاهدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، وكانت معاهدة دفاعية بحتة غايتها المحافظة على السلم في أوروبا . وفي الظاهر ربط هذا التحالف وسط أوروبا معا وأحيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة على أوسع نطاق يتمشى مع السياسة الخارجية . أما من الناحية العملية ، فقد أيد التحالف فقط الملكية الإيطالية ، وضمن حياد إيطاليا في حالة نشوب حرب نمسوية مجرية ضد الروسيا . وقد وعدت ألمانيا بالدفاع عن إيطاليا ضد فرنسا ، ولما كانت المساعدة الإيطالية لا قيمة لها ، فلم تحصل ألمانيا إذا على المقابل ، وفي الواقع كان بسمارك يعلم أن الفرنسيين لا ينوون الهجوم على ايطاليا ، ولهذا السبب فلم يعتبر أن الالتزام يشكل عبئا ، كما علم بذلك الإيطاليون أيضا وكانت حاجتهم الحقيقية هي الاعتراف بهم كدولة عظمى لا حمايتهم من فرنسا ، ولقد أعطاهم التحالف الثلاثي هذا الأمر .

وعلى أية حال ، تقوت المحالفات التي قام بها بسمارك بإتفاقيتين آخريين قامت بهما النمسا الصرب ورومانيا ، ففي عام ١٨٨١ وقعت النمسا معاهدة الصرب ، وعدت بموجبها الصرب بمساعدة العائلة المالكة هناك ، وأن تستخدم نفوذها بين الدول الأخرى لتأييد مصالح الصرب ومن ناحية أخرى ، وعدت الصرب النمسا بعدم عقد معاهدة سياسية مع دولة أخرى دون تفاهم سابق النمسا . وفي عام ١٨٨٣ عقدت النمسا معاهدة مع رومانيا ، التي أجبرت على التنازل عن جزء من بسارابيا إلى الروسيا في معاهدة برلين ؛ وتعهدت النمسا بمقتضى هذه المعاهدة بمساعدة رومانيا إذا هوجمت من قبل دولة ثالثة دون استفزاز من جانبها ، كما يجب على رومانيا التفاهم مع النمسا إذا هوجمت الأخيرة في جزء من أراضيها المتاخمة لرومانيا وقد انضمت ألمانيا إلى هذا التحالف ، أما إيطاليا فقد انضمت إليه عام ١٨٨٨ . وجددت المعاهدة إلى عام ١٩١٣ وهكذا أصبحت النمسا في مركز قوى في البلقان .

تجديد التحالف الثلاثي (١٨٨٧) :

بعد مؤتمر برلين لم تستقر الأحوال في البلقان ، وكانت الروسيا غير راضية عن تقسيم بلغاريا ، ولكنها حاولت على الرغم من ذلك الاستفادة من شروط معاهدة برلين التي تقضى باحتلال الروس بلغاريا أشهراً معدودات . واختار القيصر بموافقة الدول أحد أقربائه وهو اسكندر أمير باتنبرج | الألماني للعرش البلغاري . ورغم إخلاء الروس لبلغاريا ، الا أنهم ظلوا يحتلون معظم الوظائف المهمة ، مؤملين أن يظلوا أصحاب النفوذ الأعلى فيها . وفي بلغاريا الجنوبية (

الروملي الشرقية) ، التي تركت تحت إشراف الباب العالي ، عمل المندوب الروسي الذي كان يحكمها على إثارة الشعور ضد الباب العالى ، وعلى إيجاد نظم مماثلة لنظم بلغاريا الشمالية لتوحيد بلغاريا . ولكن البلغاريين كانوا يعملون على الاستقلال عن كل من الدولة العثمانية وروسيا ؛ وحقد البلغاريون على الروس لاحتلالهم المناصب المهمة في الدولة . وفي ذلك الوقت أعلن بسمارك أنه ليس لألمانيا مصالح في بلغاريا وأن مصلحتها هي إقامة علاقات السلام مع روسيا ، وكان يرى ألا تقحم النمسا نفسها في مسائل بلغاريا ، وأن تترك الروسيا تفعل ما تشاء في بلغاريا ، وكان دائما قلقاً لاضطراب العلاقات الروسية ـ النمسوية ، لأن النمسا ربما كانت تطمع في أن يحل نفوذها محل الروس في بلغاريا .

أما الروسيا فكانت ترى أنه إذا انضمت البلغاريتان فينبغي أن يكون ذلك عن طريق الروسيا لا عن طريق باتنبرج . وفي عام 1885 قامت الثورة في بلغاريا الجنوبية (الروملي الشرقية) وطرد الحاكم العثماني ، واضطر باتنبرج إلى قبول التاج بعد تردد . وغضبت روسيا وطلبت من الدولة العثمانية عقد مؤتمر دولي في الأستانة للنظر في هذه المسألة ، ولكن الصرب استعدت لاحتلال مقدونيا وإعادة التوازن في البلقان ، وطلبت من النمسا تأييدها . وإزاء تردد النمسا ، أعلنت الصرب الحرب على بلغاريا ، وبعد هزيمة الصرب أرسلت النمسا إلى بلغاريا تطلب وقف الحرب وإلا فإنها ستساعد الصرب ، وفعلا عقدت الهدنة بين الطرفين في ديسمبر عام 1885 . أما بالنسبة لبلغاريا ، فقد اتفق باتنبرج مع العثمانيين على ضم الروملي على أن تعين الدولة « الأمير البلغاري حاكما على الروملي الشرقية » ، وتم تحقيق ذلك في 8 فبراير عام ١٨٨٦ لمدة خمس سنوات .

ولكن روسيا عملت على طرد باتنبرج من العرش البلغاري ، وأجبروه على التنازل عنه ، وفرض القيصر على بلغاريا أميراً يوافق عليه هو . واختار البلغاريون أميراً دانمركيا فرفض القيصر ، وتقرر عقد مجلس وطني في بلغاريا لتقرير من يحكم البلاد ، غير أن روسيا أعلنت عدم استطاعتها الاعتراف بهذه الخطة ولا بقرارات المجلس ؛ وعندما انتخب المجلس أميراً دانمركيا قطعت الروسيا علاقاتها السياسية ببلغاريا .

وأعلنت النمسا في ذلك الوقت أنها لا تسمح بتغيير الوضع الراهن في البلقان مما أدى إلى تكدير العلاقات الروسية ـ النمسوية بدرجة أعلن معها السفير الروسي في برلين « بأنه من الضروري لنا أن نعمل على اختفاء النمسا من خريطة أوروبا » . وأصبح موقف بسمارك حرجا للغاية ، إذ قال الروس أنه لولا تأييد ألمانيا لما استطاعت النمسا أن تتحدث بهذه اللغة . وكان بسمارك حريصاً على عدم اصطدام

المصالح النمسوية ـ الروسية في البلقان ، وعلى المحافظة على اتحاد الأباطرة الثلاثة ؛ وفي نفس الوقت أعلن أنه سيقف بجانب النمسا إذا تهدد مركزها كقوة عالمية . لكنه ، من ناحية أخرى ، قال بأنه لا يعارض أي خطوة تخطوها الروسيا في بلغاريا ما عدا الاحتلال ، وأنه لا يعارض في أن تشرف الروسيا على المضايق . ومما دفع بسمارك إلى اتباع هذه السياسة هو علاقاته السيئة مع فرنسا في عام ١٨٨٦ ، ففرنسا كانت مستعدة للحرب إذا ما قامت بين ألمانيا والروسيا ، فلقد قوى مركز الملكيين في البرلمان الفرنسي وعين بولنجر وزيرا للحربية ، وأعلنت فرنسا أن سياستها ستتركز في أوروبا .

وفي الواقع كانت الأوضاع في فرنسا مثيرة للقلق فلقد شعرت فرنسا بعزلتها السياسية منذ معاهدة فرانكفورت ، ونتيجة لمسألتي تونس ومصر ، وبعد توقيع التحالف الثلاثي . فبالنسبة لمصر أعلنت انجلترا أنها لن تبقى فيها بعد استقرار النظام في البلاد ، ولكن مرت سنوات ولم تنفذ انجلترا وعدها ، ورفضت مناقشة فرنسا في موضوع الجلاء كما أن العلاقات الفرنسية ـ الإيطالية لم تكن أسعد حالا بسبب احتلال فرنسا لتونس ، وعمل ساسة فرنسا حينئذ على إيجاد وفاق فرنسي - روسى . ومنذ أن تولى بولنجر منصب وزير الحربية ، أصبح رمز المطالبة بالثأر والانتقام ، ومحرر الألزاس واللورين ، ومصدر فزع ألمانيا وأمل فرنسا . ولم يشعر بسمارك بالارتياح إزاء موقف فرنسا ، خصوصا وأن بولنجر اهتم بالجيش وإصلاحه ، ولقد خشى بسمارك أن تغتر فرنسا ففتعلن الحرب ، وإزداد الموقف خطورة بعد التطورات السابقة التي حدثت في بلغاريا ، واستياء الروس من سياسة النمسا واعتقادهم بأن ألمانيا تعضدها ، وهنا أصبح تخالف فرنسا مع روسيا أمرا محتمل الوقوع في عام ١٨٨٦

وعلى أثر ذلك تقدم بسمارك بلائحة إلى الرايخ الألماني في ٢٥ نوفمبر عام ١٨٨٦ يذكر فيها نية الحكومة في تقوية الجيش وتسليحه ، وخاصة لأن اتحاد القياصرة الثلاثة أصابه الفتور ، وأن روسيا تعطف على فرنسا التي ظهر فيها الجنرال بولنجر بطل الانتقام الفرنسي من ألمانيا . وبدأ بسمارك يهتم بتجديد التحالف الثلاثي الذي كانت مدته على وشك الانتهاء ، وذلك لبناء سد منيع في وجه التقارب الروسي – الفرنسي وكانت النتيجة المباشرة هي تجديد المخالفة التي كانت ستنتهي في مايو ١٨٨٧ بين إيطاليا والنمسا ، ولكن ايطاليا لم ترغب في تجديد المحالفة الأولى بحذافيرها ، وإنما رغبت في إدخال بعض التعديلات في قسم من موادها .

ولما كان الموقف الدولي حرجا ، اضطر بسمارك إلى قبول التعديلات التي اشتملت على تجديد المحالفة القديمة كما هي ؛ عقد معاهدة جديدة بين ألمانيا وإيطاليا

؛ وعقد معاهدة جديدة بين النمسا وإيطاليا ؛ ووقعت المعاهدات في برلين في ٢٢ فبراير عام ١٨٨٧ وقد نصت المادة الثالثة من المعاهدة الألمانية الإيطالية على أنه « إذا حدث أن أرادت فرنسا بسط سيطرتها أو فرض حمايتها على الأراضي في شمال أفريقيا كطرابلس أو تونس أو مراكش ، فإن للحكومة الإيطالية الحق ، كى تحافظ على وضعها في البحر المتوسط ، أن تقوم بحركات في شمال أفريقيا أو أن تتخذ إجراءات عسكرية في الأراضي الفرنسية في أوروبا . إن الحالة الحربية التي تنشأ من جراء ذلك بين فرنسا وإيطاليا تلزم الدولتين الحليفتين (ألمانيا وإيطاليا) التشاور فيما بينهما بطلب من إيطاليا لأجل اتخاذ المقاييس العسكرية كما لو كانت الدولتان في تفاهم سابق بينهما .

وجاء في المادة الرابعة من نفس المعاهدة أنه « إذا دارت الدائرة على فرنسا من جراء الحرب التي تقوم بها ألمانيا وإيطاليا بصورة مشتركة ضدها ، وأرادت إيطاليا الضمان الإقليمي من فرنسا لأجل المحافظة على حدود المملكة ولأجل حماية أقاليمها البحرية ، وللمحافظة على سلامة البلاد واستقرارها والسلام الأوروبي ، فيجب على ، ألمانيا أن لا تقدم عوائق بشأن هذه المطالب ، وإذا اقتضت الحاجة ، أن تقدم ألمانيا التسهيلات اللازمة لأجل الحصول على هذه المطالب من فرنسا »

أما المادة الأولى من المعاهدة الإيطالية- النمسوية فقد نصت على ربط الدولتين بالمحافظة على الوضع الراهن في الشرق ، وأضافت « إذا كانت المحافظة على الوضع الراهن صعبة في البلقان أو في بحر ايجة أو في سواحل الدولة العثمانية وجزر الأدرياتيك ، وإذا أرادت دولة ثالثة ، أو أن النمسا أو إيطاليا وجدت أنها مضطرة إلى تعديل هذا الوضع باحتلال مؤقت أو دائم ، يجب أن يكون هذا الاحتلال نتيجة لاتفاق سابق بين الدولتين على أساس التعويض المتبادل لكل جديدة بين ألمانيا وإيطاليا ؛ وعقد معاهدة جديدة بين النمسا وإيطاليا ؛ ووقعت المعاهدات في برلين في ٢٢ فبراير عام ١٨٨٧ وقد نصت المادة الثالثة من المعاهدة الألمانية الإيطالية على أنه « إذا حدث أن أرادت فرنسا بسط سيطرتها أو فرض حمايتها على الأراضي في شمال أفريقيا كطرابلس أو تونس أو مراكش ، فإن للحكومة الإيطالية الحق ، كى تحافظ على وضعها في البحر المتوسط ، أن تقوم بحركات في شمال أفريقيا أو أن تتخذ إجراءات عسكرية في الأراضي الفرنسية في أوروبا . إن الحالة الحربية التي : تنشأ من جراء ذلك بين فرنسا وإيطاليا تلزم الدولتين الحليفتين (ألمانيا وإيطاليا) التشاور فيما بينهما بطلب من إيطاليا لأجل اتخاذ المقاييس العسكرية كما لو كانت الدولتان في تفاهم سابق بينهما .

وجاء في المادة الرابعة من نفس المعاهدة أنه « إذا دارت الدائرة على فرنسا من جراء الحرب التي تقوم بها ألمانيا وإيطاليا بصورة مشتركة ضدها ، وأرادت إيطاليا الضمان الإقليمي من فرنسا لأجل المحافظة على حدود المملكة ولأجل حماية أقاليمها البحرية ، وللمحافظة على سلامة البلاد واستقرارها والسلام الأوروبي ، فيجب على ، ألمانيا أن لا تقدم عوائق بشأن هذه المطالب ، وإذا اقتضت الحاجة ، أن تقدم ألمانيا التسهيلات اللازمة لأجل الحصول على هذه المطالب من فرنسا »

أما المادة الأولى من المعاهدة الإيطالية النمسوية فقد نصت على ربط الدولتين بالمحافظة على الوضع الراهن في الشرق ، وأضافت : « إذا كانت المحافظة على الوضع الراهن صعبة في البلقان أو في بحر ايجة أو في سواحل الدولة العثمانية وجزر الأدرياتيك ، وإذا أرادت دولة ثالثة ، أو أن النمسا أو إيطاليا وجدت أنها مضطرة إلى تعديل هذا الوضع باحتلال مؤقت أو دائم ، يجب أن يكون هذا الاحتلال نتيجة لاتفاق سابق بين الدولتين على أساس التعويض المتبادل لكل فائدة تجنيها هاتين الدولتين ، سواء أكانت الفائدة إقليمية أو غيرها .. وأن ترضى كل منهما الأخرى من ناحية المصالح والمطالب التي تدعيها كل منهما » . ولقد رفعت هذه المعاهدة قيمة إيطاليا ومن مركزها في البحر المتوسط وفي البلقان . وعلى العموم أصبح لهذا التحالف صبغة هجومية ، واعترف بحق إيطاليا في تأسيس إمبراطورية استعمارية ؛ كما اعترف بحقها في نيس وكورسيكا وتونس كضمانات في حالة حرب ناجحة مع فرنسا كذلك اعترف بحق إيطاليا في تعويض أرضى في حالة قيام حرب ألمانية فرنسية . ولقد وافق بسمارك على إعطاء كل تلك الامتيازات لإيطالي لأنه كما قال : « إذا أرادت دولة التخلص من شرط معاهدة لن تجد صعوبة كبيرة في تفسيره التفسير الملائم » . ومما تجدر ملاحظته أن المادتين الأخيرتين في المعاهدة غامضتان.

معاهدة الضمان الألماني ـ الروسي (١٨٨٧) :

في اليوم الذي تم فيه تجديد التحالف الثلاثي كتبت صحيفة نورد Nord الروسية تقول أن روسيا سترقب الأحداث على الراين باهتمام ، وأن مصلحتها تحتم عليها ألا تقف موقف الحياد كما حدث في عام ١٨٧٠ عند وقوع الحرب الفرنسية البروسية وأن روسيا لن تسمح بأن تصبح فرنسا دولة ضعيفة . وقد ساعد تسرب الأخبار عن تجديد التحالف الثلاثي على التقارب بين روسيا وفرنسا . وفي تلك الأثناء أيضا وقع حادث تافه على الحدود الفرنسية الألمانية مما دفع ببولنجر إلى حشد قواته على الحدود والتهديد بالحرب ، ولكن الوزارة الفرنسية سقطت وسر بسمارك لخروج بولنجر ، وبدأ يعمل على استصلاح روسيا وتوجيه اهتمامها إلى

الشرق وإلى المناطق التي تحتاج فيها إلى تأييد ألمانيا . وفي ذلك الوقت تغيرت وجهة نظر السياسة الروسية تجاه ألمانيا ، وأرسل القيصر الروسى شوفالوف إلى برلين بعد أن عرضت فكرة عقد اتفاق روسى –ألماني على سفير ألمانيا في بطرسبرج ووجدت ترحيبا منه . واشتملت التعليمات التي أصدرها القيصر إلى شوفالوف على الموضوعات التالية :

1- ضمان السلام اللازم لنمو قوى روسيا الحربية والبحرية ولحماية روسيا من المخالفات الأوروبية .

٢ ـ العمل على إبقاء الوضع الراهن في البلقان والاعتراف بتفوق النفوذ الروسي في بلغاريا

3 ـ إغلاق المضايق

وكانت روسيا ترغب في تحقيق ذلك عن طريق التأييد الألماني وقد اعترضت فكرة التحالف الروسي الألماني عدة صعوبات ، فبسمارك لم يكن على استعداد لإخراج النمسا من التحالف ؛ وعلى الرغم من ذلك بدأت المفاوضات في ١١ مايو ١٨٨٧ وانتهت في 18 من نفس الشهر ، واتفقت الدولتان (ألمانيا وروسيا) على توقيع معاهدة سرية بينهما سميت بمعاهدة الضمان الروسي الألماني وقد نصت المادة الأولى على أنه « إذا هوجمت إحدى الدولتين المتعاقدتين من قبل دولة ثالثة تلتزم الدولة الأخرى المتعاقدة جانب الحياد الودى ، إن هذا النص غير نافذ المفعول في حالة هجوم إحدى الدولتين المتعاقدتين على النمسا أو فرنسا » ، ونصت المواد الأخرى على ما يلي

1 ـ اعتراف ألمانيا بالحقوق لروسيا في البلقان ، وبحق الروس في تفوق نفوذهم في بلغاريا.

٢ ـ تتعهد الدولتان بالعمل على المحافظة على الوضع الراهن في البلقان.

3 ـ تتعهد الدولتان بفرض رغبتهما على الدولة العثمانية بضرورة إغلاق المضايق في وجه أعدائهما.

وهكذا ضمنت ألمانيا حياد روسيا في حالة إعتداء فرنسا عليها ، كما أن روسيا ضمنت حياد ألمانيا إذا ما هاجمتها النمسا ، ولم يكن بسمارك مضطرا لمساعدة النمسا في حالة اعتدائها على روسيا كما أنه لم يكن ينوى الهجوم على فرنسا لأن ألمانيا لا تنوى الحرب مع فرنسا ولقد اعترف بسمارك بمصالح روسيا في البلقان ، وأيد روسيا في الإجراءات التي تتخذها بشأن المضايق (البوسفور والدردنيل) وذلك بوقوف ألمانيا على الحياد وتأييد روسيا دبلوماسيا ، ولكن بسمارك كان يعلم

أن بنود معاهدة التحالف الثلاثي بخصوص البحر المتوسط والبلقان كانت قوية إلى درجة تمنع روسيا من تحقيق ما تريده بشأن المضايق حتى إذا وقفت ألمانيا على الحياد .

وكانت مدة المعاهدة ثلاث سنوات وقد وقعت هذه المعاهدة في عام ١٨٩٦ ، واتهم بسمارك بأنه خان النمسا في هذه المعاهدة ، لكن الأمر غير ذلك فلقد أعلن بسمارك بأنه غير ميال لتأييد سياسة النمسا البلقانية أو الدخول في حرب من أجلها . ولقد جاءت هذه المعاهدة وفقا لرغبته في تقسيم البلقان إلى منطقتى نفوذ شرقية في بلغاريا والأستانة والمضايق لروسيا وغربية للنمسا . وبتوقيع معاهدة الضمان أتم بسمارك سياسة التحالفات ، وبذلك ضمن سلامة ألمانيا نظريا على الأقل . وعمل بسمارك على عدم معارضة السياسة الروسية في بلغاريا ، وأيد اتحاد دول البحر المتوسط ليضع حدا لمطامع الروسيا ، ولكي يمنع تحالفها (أي الروسيا) مع فرنسا ثانيا .

التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك (1890-1914) :

في عام ١٨٨٨ توفى الإمبراطور الألماني وليم الأول وخلفه حفيده وليم الثاني على العرش ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلاف بين الإمبراطور وبسمارك . وكان وليم الثاني رجلا ذكيا ونشيطا ، وعلى الرغم من إعجابه ببسمارك إلا أنه لم يرغب أن يقف مكتوف الأيدي بينما يحكم بسمارك حكما مطلقا ، وكان بسماك قد بلغ سن الشيخوخة ، وأصبح متمسكا بآرائه الأمر الذي أدى إلى الصدام بين الطرفين وانتهز أعداء بسمارك الفرصة لتوسيع الخلاف بينهما ، فعندما حل موعد انتهاء معاهدة الضمان الألماني ـ الروسي في عام ١٨٩٠ ، والتي كان بسمارك قد وعد القيصر الروسي بتجديدها ، رفض وليم الثاني ذلك ، واقتنع بآراء خصومه بأن مواد معاهدة الضمان تخالف مواد المعاهدة الثنائية بين النمسا وألمانيا في عام 1879 ، وحينئذ استقال بسمارك ، ولم تجدد ألمانيا المعاهدة على الرغم من رغبة روسيا في ذلك ، ولذلك اضطرت روسيا إلى البحث عن حليفة أخرى ، وارتمت في أحضان فرنسا.

وترجع أهمية عام ١٨٩٠ في التاريخ الأوروبي إلى أنها سنة فاصلة في الفترة ما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ ، فلقد تخلى بسمارك في تلك السنة ، كما رأينا، عن إدارة أمور السياسة الأوروبية ، ولقد أعلن سولزبرى أن سقوط بسمارك «مصيبة هائلة) وكانت برلين مركز السياسة الدولية الأوروبية ، وفي الواقع كان بسمارك دعامة السلام الأوروبي ، ولكن سقوطه كان يعني تغيير السياسة الخارجية الألمانية ، فرفضت ألمانيا تجديد معاهدة الضمان مع روسيا ، بينما كانت سياسة بسمارك بناء التحالف الثلاثي وتجديده وحفظ العلاقات الودية مع روسيا ، والعمل على كسب

صداقة انجلترا ، وإبقاء فرنسا في عزلة سياسية حتى لا تفكر جديا في حرب مع ألمانيا .

التحالف الثنائي بين فرنسا وروسيا (١٨٩١ ـ ١٨٩٤) :

أعطى عدم تجديد معاهدة الضمان ، ورفض ألمانيا إعطاء روسيا وعدا مكتوبا ببقائها على سياستها القديمة إزاء روسيا ، أعطى الدولة الأخيرة حرية في العمل . فلقد شعرت روسيا بعزلتها ، وعرفت أن ألمانيا تريد أن تستبدل بالتحالف الروسي التحالف الإنجليزي ، فأخذت روسيا تبحث عن حلفاءها ولذلك تعاونت مع فرنسا في المسألة المصرية ، وتأكدت روسيا نهائيا من موقف ألمانيا التي حاولت تقوية التحالف الثلاثي وتأييد النمسا ، بل وأطلعت النمسا على معاهدة الضمان التي عقدها بسمارك معها ، وأيدت نهائيا وجهة النظر النمسوية في البلقان ومن ناحية أخرى ، أخذت فرنسا ، بعد سقوط بسمارك ، تلعب دورا إيجابيا في السياسة الأوروبية ، فحاولت إبعاد إيطاليا من التحالف الثلاثي ومن تحالف البحر المتوسط ، وتدخلت في أمور الفاتيكان وضد مصالح إيطاليا الاستعمارية . وتعاونت فرنسا مع الروسيا في خلق المشاكل لانجلترا في مصر ، كما احتجتا على المعاهدة الإنجليزية الألمانية التي أعطت الإنجليز الحق في فرض الحماية على زنزبار. وشعرت انجلترا بالقلق إزاء موقف الروسيا وفرنسا من السياسة الإنجليزية في مصر ولذلك عمل سولزبرى على توثيق علاقاته ، وإيطاليا ، وفي نفس الوقت دارت محادثات بينه وبين مارشال (Marshall) ، وزير خارجية ألمانيا ، أظهرت اتفاق آراء الدولتين . وكان لذلك وقع سيئ في كل من فرنسا والروسيا ، لا سيما بعد أن أعلنت الحكومة الانجليزية في البرلمان عن وجود اتفاق بينهما وبين إيطاليا منذ عام ١٨٨٧ .

وكان الرد الطبيعي على ذلك هو التقارب بين فرنسا وروسيا ، و ، وأظهرت فرنسا أنها لا تستطيع إقراض الروسيا إلا إذا عملت الأخيرة على زيادة التقارب منها . وكانت الروسيا في أشد الحاجة إلى مساعدة فرنسا المالية لتنظيم ماليتها ولاستكمال بناء خطوطها الحديدية . وكان الرأي العام الروسي والصحافة الروسية مؤيدة للتحالف ، وهكذا بدأت المفاوضات بين الدولتين وانتهت بعقد التحالف بينهما عام ١٨٩١ . وقد نصت الاتفاقية على ما يلي :

1- تتعهد الدولتان المتعاقدتان التفاوض في كل مسألة من شأنها تهديد السلام العام.
٢ـ إذا حدث تهديد السلم فعلا ، وخاصة في حالة تهديد أحد الطرفين المتعاقدين من قبل الأعداء ، فإنهما يتفقان على الخطط التي تتطلبها أهدافهما .

وهكذا اتفقت الدولتان على أن تساعد كل منهما الأخرى حربيا إذا اعتدت دولة من دول التحالف الثلاثي على إحداهما ، وأن يتناقش أركان – الدولتين في وقت السلم ، وألا تعقد فرنسا أي معاهدة منفردة مع دول التحالف الثلاثي ، وأن تكون المعاهدة سرية ، غير أن هذا التحالف كان غامضا وكان الوضع الدولي قلقا خلال عام ١٨٩٣ . فطلب الفرنسيون إكمال الحلف بميثاق ١٨٩٣ عسكرى ، وقد تم ذلك في عام ١٨٩٤ ، وبموجبه تعهدت روسيا بمساعدة . فرنسا بمليون ونصف جندي إذا ما هاجمتها ألمانيا ، كما وعدت فرنسا روسيا بنفس العدد إذا ما هاجمتها النمسا تساعدها ألمانيا . وبذلك تكون ما يسمى بالتحالف الثنائي ، ووطدت دعائم الحلف زيارة القيصر نقولا الثاني لفرنسا عام ١٨٩٤ حيث استقبل بحفاوة بالغة ، ورد مسيو فور رئيس الجمهورية الفرنسية ، له الزيارة في العام التالي.

التحالف الإنجليزي – اليابانى (١٩٠٢) :

تم التوازن بين دول الوفاق الثنائي (فرنسا وروسيا) والتحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) بعد عام ١٨٩١ ، واستمر هذا التوازن حتى عام ١٩٠٤ ، إذا انصرفت الدول الأوروبية الكبرى إلى التوسع الاستعمارى خارج القارة الأوروبية وقد سبقت انجلترا غيرها في هذا المضمار واتبعت سياسة الانعزال عن الشئون الأوروبية ، وقد تميزت الفترة الواقعة فيما بين عامي ١٨٩٤ و ١٩٠٤ بثلاثة اتجاهات هامة :

1 ـ تخلى روسيا عن الشؤون الأوروبية واتجاهها إلى الشرق الأقصى بهدف التوسع وبسط النفوذ ، ولم تهتم بالشئون الأوروبية مرة أخرى إلا بعد هزيمتها أمام اليابان عام 1905.

٢ ـ اتسع المجال أمام ألمانيا للتحكم في الشئون الأوروبية والدولية ، واستغلت في معظم الأحيان التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا وروسيا للحصول على الأراضي ، وانتهزت الفرص لمنافسة انجلترا بشتى الطرق أوالاشتراك في التنافس الاستعماري والاستيلاء على بعض الممتلكات الأفريقية .

3 ـ ظلت انجلترا منعزلة عن التحالفات الأوروبية ، وقد شعرت انجلترا بمنافسة ألمانيا لها لا سيما في مجال الاستعمار ، ولذلك بدأت تتفاوض مع روسيا وألمانيا لإقامة تقارب معهما .

ومن العوامل التي شجعت على التقارب الإنجليزي الألماني مضايقات فرنسا المتتالية للاحتلال الإنجليزي لمصر ، مما جعل انجلترا في حاجة إلى تأييد قناصل دول التحالف الثلاثي لمشروعاتها في توطيد الاحتلال واستمراره . ولما شعرت

انجلترا بخطورة عزلتها ، فاتح چوزيف تشمبرلين ، وزير المستعمرات ، السفير الألماني في لندن عام ١٨٨٩ في موضوع إقامة تحالف إنجليزي ـ ألماني ولكن بيلوف ، مستشار ألمانيا ، لم يكن متحمساً لذلك التحالف خوفاً من أن تستخدمه انجلترا لأغراضها الخاصة دفاعاً عن مصالحها . وفي عام و زار القيصر الألماني انجلترا ، وفاوض تشمبرلين بيلوف في الموضوع ، غير أن قيام حرب البوير * (١٨٩٩ – ١٩٠٢) .وعطف ألمانيا على البوير زاد من حدة الخلاف بين انجلترا وألمانيا . وعندما زار القيصر انجلترا للمرة الثانية.

في عام ١٩٠١ استؤنفت المفاوضات ، وكانت ألمانيا راغبة في الحلف ،ولكنها أرادت ضم انجلترا إلى التحالف الثلاثي . ولم توافق انجلترا لأن ذلك قد يجرها إلى الحرب ضد روسيا بسبب اختلاف المصالح بين روسيا والنمسا . وانتهت المفاوضات بالفشل ، وبدأت انجلترا تبحث عن حليف ضد الدول الاستعمارية التي كانت تنافسها في الأسواق كألمانيا وفرنسا وروسيا ، وكانت أولى هذه الدول هي اليابان . وشعرت انجلترا بأهمية هذا الحليف بسبب الدور الذي لعبته روسيا بعد الحرب الصينية ـ اليابانية عام ١٨٩٥ ، فقد نصت معاهدة شيمونسكي التي وقعت بين اليابان والصين عام ١٨٩٥ على تنازل الصين لليابان عن كوريا وفورموزا وشبه جزيرة لياوتنج بما فيها ميناء بورت آرثر .

وقد أغضب روسيا وألمانيا وفرنسا استيلاء اليابان على هذا الميناء ، وأرسلت مذكرة شديدة اللهجة تطلب فيها من اليابان ردها ، واضطرت اليابان إلى الموافقة على مذكرة الدول ، وسحبت قواتها من شبه جزيرة لياوتنج وهي ناقمة لاسيما من روسيا خصمها المباشر التي احتلت ميناء بورت آرثر . وكان استيلاء روسيا على هذا الميناء ، من وجهه النظر الإنجليزية ، ـ تغييرا لتوازن القوى ويهدد الإمبراطورية البريطانية ولما كان الخطر الأكبر الذي يهدد انجلترا يكمن في النشاط الروسي في الشرق الأقصى ، اتجه الإنجليز إلى التفاهم مع اليابان على مواجهة هذا الخطر الروسي المشترك . وكانت اليابان في حاجة إلى كسب انجلترا بالذات حتى تعد نفسها لضرب روسيا وهي مطمئنة إلى أن أكبر دولة بحرية أوروبية لا تعرقل مشروعاتها العسكرية ، وإلى أن آية دولة أخرى لن تدخل الحرب إلى جانب روسيا . ولذلك لم تكن المفاوضات بين الطرفين معقدة ، وتوصلا إلى ما عرف بالوفاق الودي الذي وقع في 30 يناير عام ١٩٠٢ ، ويعتبر هذا الوفاق النهاية الفعلية لعزلة انجلترا . ونص على مايلي :

1 ـ اعتراف انجلترا بمصالح اليابان في كوريا .

2 ـ اعتراف اليابان بمصالح انجلترا في الهند

3- اتفقت الدولتان على أنه إذا حدثت حرب بين إحداهما ودولة ثالثة فإن الأخرى تلزم جانب الحياد ، أما إذا دخلت الحرب ضدها دولة رابعة فإن الدولة المتعاقدة الأخرى تبادر إلى مساعدة حليفتها ، ومعنى هذا التحالف أنه إذا وقعت الحرب بين اليابان وروسيا فإن انجلترا تلزم جانب الحياد ، أما إذا دخلت فرنسا إلى جانب حليفتها الروسيا ضد اليابان فإن انجلترا تساعد اليابان . وإذا نشبت حرب بين انجلترا وروسيا فإن اليابان تلزم جانب الحياد ، وإذا دخلت فرنسا الحرب إلى جانب روسيا ، فإن اليابان تساعد انجلترا، وعلى هذا الأساس سحبت انجلترا أسطولها في الشرق الأقصى إلى بحر الشمال للدفاع عن سواحلها والواقع أن الحالة الأولى هي التي حدثت عندما اندلعت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) ، حيث انحصرت الحرب بين اليابان وروسيا ولزمت انجلترا وفرنسا جانب الحياد ولم تتسع الحرب ، وكانت مدة هذا التحالف خمس سنوات وفي الحرب الروسية اليابانية استولت اليابان على بورت آرثر ، وفي معاهدة بورتسموث التي أعقبت الحرب (١٩٠٦) حصلت اليابان على تفوق كبير في الشرق الأقصى ، واعترفت روسيا بتفوق المصالح الاقتصادية والعسكرية اليابانية في كل من كوريا ومنشوريا ، كما وافقت على نقل حقوق روسيا في شبه جزيرة لياوتنج وبورت آرثر إلى اليابان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا (١٩٠٤) .

رأت انجلترا جليا خطر سياسة العزلة على مركزها ، وأثار النمو السريع للأسطول الألماني قلقها ومخاوفها . فإن ألمانيا لم تكتف بمزاحمتها في الأسواق الأجنبية ، وفي تملك المستعمرات في مختلف أرجاء العالم ، بل صرح الإمبراطور وليم الثاني عام ١٨٩٧ بأن مستقبل بلاده مرهون بسيطرتها على أمواج البحار ، وأظهر تصميمه القاطع على خلق أسطول عظيم لألمانيا يعزز مكانتها الأولى بين الدول العظمى ، وعاونه في تحقيق مشروعه وزير بحريته الشهير الأميرال تربتز الذي قال عنه المؤرخ لانجر ربما كان أكفأ شخص ظهر في أية دولة من دول العصر الحديث . وقام تربتز بوضع مشروع هدفه احترام مركز ألمانيا التجاري والاقتصادي ، كما عمل على استكمال أسلحة الحرب البحرية وخاصة الطوربيد ، وأجاز الرايخشتاغ في عام ١٨٩٧ قانونا بتعزيز الأسطول الألماني وزيادة وحداته وبحارته زيادة كبيرة .

ولقد أعلن بيلوف أن ألمانيا لا تفكر في الاعتداء على انجلترا ، ولكن تأكيدات ألمانيا لم تساعد على محو مخاوف انجلترا ، وذلك للاهتمام الكبير الذي أظهره الإمبراطور بالمسائل البحرية ، ولأن تربتز اهتم بألا يكون لألمانيا بحرية دفاعية فحسب بل وهجومية أيضا . وبدأت انجلترا تزيد من اهتمامها بالمسائل البحرية وذلك بإنشاء قاعدة بحرية كبيرة وبناء أربع سفن حربية كل عام ، والاهتمام

بتركيز الأسطول في المياه الإنجليزية . وهكذا زاد القلق في كل من الدولتين بسبب المشروعات البحرية التي تضعها الدولة الأخرى ، وحاولت انجلترا تهدئه خواطر ألمانيا بأن أعلنت بأنها ستخفف قليلا الاهتمام بإنشاء سفن حربية ، وكانت تنتظر أن تقوم ا الحكومة الألمانية بخطوة مماثلة ، ولكن ألمانيا لم تفعل وهكذا قربت العداوة المشتركة لألمانيا بين انجلترا وفرنسا ، فألمانيا أصبحت الدولة الصناعية الفتية التي تنافس انجلترا في الاستعمار ، وهي عدوة فرنسا منذ عام ١٨٧٠ . وأرادت كل من الدولتين (انجلترا وفرنسا) تصفية مصالحهما الاستعمارية لمواجهة العدو المشترك . ووجد الساسة البريطانيون في مليكهم إدوارد السابع وسيلة صالحة للتقرب إلى فرنسا ، فقد كان هذا العاهل يكن حبا شديدا لتلك البلاد التي قضى في ربوعها زمنا من أمتع أيام شبابه ، وبادله الفرنسيون هذا الحب فاغتنم فرصة زيارته لوحدات الأسطول الانجليزي في مياه البحر المتوسط ، وقام في أثناء عودته بزيارة رسمية لباريس عام ١٩٠٣ ، واستقبله الفرنسيون بأعظم مظاهر الترحيب ، ورد رئيس الجمهورية الفرنسية له الزيارة بلندن في العام نفسه ، واستغل ساسة الدولتين هذا التقارب بين شعبيهما للسعى إلى تسوية الخلافات التي تحول دون حسن تفاهمهما.

وفي 8 أبريل عام ١٩٠٤ تمكنت الدولتان من عقد الاتفاق الودى وتضمن هذا الاتفاق مواد علنية وأخرى سرية ، ونص على ما يلي

1 ـ تسوية المشاكل المتعلقة بمصائد الأسماك في نيوفوندلاند بين انجلترا وفرنسا وتعديل الحدود بين المستعمرات الفرنسية الانجليزية في أفريقيا.

٢ ـ تسوية بعض المشاكل في سيام ومدغشقر وأفريقيا الغربية .

3 ـ اعتراف انجلترا بمصالح فرنسا في مراكش ، واعتراف فرنسا بمصالح انجلترا في مصر.

وأعلنت انجلترا بمقتضى الاتفاق أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسي ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل انجلترا في مصر ، ولن تطلب تحديد أمد الاحتلال الانجليزي . وبهذا الاتفاق ثبت الاحتلال الانجليزي أقدامه في مصر من الناحية الفعلية ، ولم يعد هناك ما يحول دون فرض السيادة البريطانية الكاملة على البلاد سوى ذلك الخيط الشرعي الرفيع الذي كان يربط مصر بالدولة العثمانية . غير أنه لم تمر عشر سنوات أخرى حتى أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وأصبح مركزها مضمونا من الناحيتين الفعلية والشرعية وأنهمت هذه التسوية عوامل التنافس بين انجلترا وفرنسا ، ولكنها تختلف عن معاهدات التحالف التي سبقتها من حيث أنها لم تشر إلى التعاون في حالة الحرب، وإنما هي اتفاقية لتسوية المشاكل المعلقة ، ولذلك سميت (بالاتفاق » ولم تسمى « بالتحالف » .

الاتفاق الانجليزي ـ الروسي (١٩٠٧) :

شعرت روسيا بعد هزيمتها أمام اليابان في عام 1905 أنها بحاجة إلى أصدقاء بدلا من إثارة العداوات . وأدركت روسيا أيضا أن الدول التي حالت دون توسعها هي انجلترا والنمسا والمجر وألمانيا . وأصبح مجال التوسع الروسي بعد عام ١٩٠٥ منحصرا في الدولة العثمانية (في اتجاه الأناضول والعراق أو في اتجاه البلقان) وفي إيران . وكانت روسيا تدرك تماما أن انجلترا تعارض فكرة توسعها على حساب الدولة العثمانية خوفا من سيطرتها على المضايق (البوسفور والدردنيل) . كما وقفت النمسا والمجر أمام أي توسع روسي في البلقان ، وبدأ التنافس يتصاعد بينهما هناك منذ عام 1903 ، وهكذا لم يبق أمام روسيا سوى إيران لكي تعمل فيها وتثبت للعالم أن روسيا لا تزال دولة كبرى . ولكن منذ قرن تقريبا وروسيا تواجه مقاومه انجليزية علنية وسرية لمشروعاتها التوسعية في إيران ، ولذلك رأت أن الوسيلة الوحيدة لفتح الطريق أمام مشروعاتها هو التوصل إلى تفاهم مع دول الحلف الثلاثي أو انجلترا . ولما كان أي تفاهم مع ألمانيا يهدد التحالف الروسي ـ الفرنسي ، أصبح التفاهم مع انجلترا أكثر واقعية .

وبعد نكبة روسيا في عام 1905 أخذت انجلترا تقلل من تعنتها ضدها ، وفي الواقع لعبت فرنسا دورا مهما في فتح الطريق أمام التقارب الإنجليزي ـ الروسي . لقد كادت الحرب الروسية ـ اليابانية أن تجر كلاً من انجلترا وفرنسا إلى حرب لا مصلحة لهما فيها ، فكانت فرنسا حليفة لروسيا منذ عام ١٨٩٤ وانجلترا حليفة لليابان منذ عام ١٩٠٢ . ولدفع خطر حرب كهذه حرصت فرنسا على إتمام سلسلة المحالفات بعقد اتفاقية إنجليزية ـ روسية . وبعد هزيمة روسيا في عام 1905 كان من السهل التقرب منها لعقد اتفاقية مع انجلترا ، وفعلا وقعت الاتفاقية أغسطس عام ١٩٠٧ وقد نصت ، بالإضافة إلى التحالف ، على تسوية المشاكل الاستعمارية خارج القارة الأوروبية ولكن بشكل أوسع من تلك التي عقدت بين فرنسا وانجلترا . كما قسمت إيران إلى منطقتى نفوذ : روسية في الشمال ، وانجليزية في الجنوب ، وبقى قسم مستقل في الوسط ، واعترفت روسيا بمصالح انجلترا في الخليج العربي وفي التبت ، ووعدت انجلترا بعد عقد الاتفاقية بتسهيل السبل لفتح المضايق أمام السفن الحربية الروسية ؛ كما أصبحت أفغانستان تحت حماية انجلترا . ومع أن هذه الاتفاقية قد ضمنت مصالح انجلترا أكثر مما ضمنت مصالح روسيا ، فإن الأخيرة علقت عليها الآمال لبلوغ مآربها في البلقان والدولة العثمانية في المستقبل . وقد تم في الوقت نفسه عقد اتفاقية بين روسيا واليابان اعترفت فيها كل من الدولتين بمصالح الأخرى في الصين ومنشوريا . وكذلك عقدت فرنسا واليابان اتفاقية تعترف فيها بأن الصين وحدة لا تتجزأ وبإقرار سياسة الباب المفتوح ؛ وأذاعت كل من انجلترا

وأسبانيا وفرنسا وروسيا معا تصريحات بالمحافظة على الوضع الراهن في البحر المتوسط . وبهذا تمت سلسلة متواصلة من المحالفات والاتفاقيات السياسية التي ألفت جبهة خطيرة ضد دول التحالف الثلاثي .

وهكذا أحكم الوفاق الثلاثي بين فرنسا وانجلترا وروسيا الطوق حول ألمانيا . وقد زادت الأزمات الدولية التي حدثت بعد عقد هذا الوفاق من توثيق عراه ، وأهم هذه الأزمات ضم البوسنة والهرسك (في يوغوسلافيا الحالية) إلى النمسا ، وحادثة أغادير ، والحروب البلقانية (١٩١٢ ـ ١٩١٣) .

وقد أدت هذه الأزمات إلى مفاوضات بين أركان حرب انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٦، وإلى الاتفاق بينهما في عام ١٩١٢ على أن تسحب انجلترا أسطولها من البحر المتوسط . وبذلك يكون قد تم التعاون البحرى بأن تحافظ انجلترا على سواحل فرنسا بحرا إذا هوجمت من الشمال ، وأن يكون الأسطول الفرنسي مقابل الأسطول النمسوي في البحر المتوسط . وقد حاولت ألمانيا في عام ١٩١٢ الاتفاق مع انجلترا بخصوص القوة البحرية للدولتين ، ولكن المفاوضات لم تؤد إلى ، نتيجة ، وهكذا انقسمت أوروبا إلى معسكرين كبيرين قبل عام ١٩١٤ ، فبينما كان الهدف الأساسي من التحالفات تجنب الحروب والمحافظة على السلام أصبحت باعثة على التصادم والتنازع وأنذرت بوقوع الحرب.

الفصل الثاني

الأزمات الدولية التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الأولى

أولًا: أزمة ضم البوسنة والهرسك.

ثانيًا: أزمة أغادير.

ثالثًا: الحروب البلقانية.

رابعًا: مصرع ولي عهد النمسا

خامسًا: الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى.

عقب عقد الوفاق الروسي البريطاين بدا واضحاً أن أوروبا تسري نحو مجابهة بني المعسكرين، وأن مجالات المصالحة أصبحت شبه معدومة، وكانت مجالات اختيار الصلابة هي الباقية، وهي سياسة (حافة الحرب) وهي التي ستسيطر على العالم منذ 1908 حتى نشوب الحرب في 1914 م وكانت قوى العالم الأخرى وخصوصاً اليابان والولايات المتحدة الأمريكية تراقب عن كثب تطور الأزمات بين الكتلتين حتى وصلت الأزمات ذروتها نتيجة حادثة من الحوادث التي وقعت كثيرا في أوروبا، ونعني بذلك اغتيال فرديناند ولي عهد النمسا، فكان الأزمة التي أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى.

أولًا: أزمة ضم البوسنة والهرسك

كانت امبراطورية النمسا والمجر قد تولت إدارة هذين الإقليمين التابعين للدولة العثمانية وفقاً لمقررات مؤتمر برلين 1878. وكانت حكومة النمسا تتطلع إلى ضم هذين الإقليمين ولأسباب تتعلق بأمنها وسلامة امبراطوريتها في المرتبة الأولى. حيث إن مطالبة قومية من قوميات امبراطورية النمساوالمجر بالاستقلال يعني تفكك هذه الامبراطورية المكونة من العديد من القوميات.

فقد كانت حركة (الجامعة الصربية) تقوى سنة بعد أخرى وكان معنى هذا أن الملايين من الصرب الذين يعيشون تحت حكم امبراطورية النمسا والمجر - سيطالبون إن عاجلا أو آجلا بالانضمام إلى بني قوميتهم في مملكة الصرب. وكانت حكومة الصرب حتى 1882 موالية للنمسا حتى وقع انقلاب قضى على الملكية للنمسا ووضع على العرش بطرس قره جورجيفتش في 1903 وبدأت موجة من الدعاية داخل امبراطورية النمسا والمجر نفسها «للصرب الكبرى» الأمر الذي كان يعتبر تهديداً مباشراً لكيان هذه الامبراطورية المتعددة الشعوب.

وكانت هناك دعايات صربية قوية بضم الصربيين الموجودين في ولايتي (البوسنة) و (الهرسك) العثمانيتين إلى الدولة الأم (صربيا). ولكن التطورات في الدولة العثمانية أدت إلى ظروف جديدة في هذه القضية. فقد حدث أن قامت في 1908 ثورة عسكرية ضد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وضد نظام حكمه الإستبدادي الذي أطمع الدول الكبرى في اقتسام بلاد هذه الدولة، وتزعم هذه الثورة رجال جمعية ثورية عرفت باسم «جمعية الإتحاد والترقي»، وكان أحد أهدافها الرئيسية إعادة الحكم الدستوري في الدولة واعادة سيطرة الأتراك بقوة على مختلف أجزاء الولايات. وفعلا تحركت قطاعات عسكرية قوية يقودها ضباط ينتمون إلى تلك الجمعية، وسيطروا على الحكم منذ تلك السنة وعرفوا باسم (الاتحاديين). وعندما قرر الإتحاديون القيام بثورتهم هذه إتجهوا إلى إعطاء حركتهم شكلاً عاماً، بأن طلبوا

من أهالي الولايات ـ ومنها (البوسنة) و(الهرسك) إرسال مندوبين عنهم للاجتماع بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي. ولكن حكومة الامبراطورية النمساوية كانت قد رأت في تلك الثورة ضد السلطان فرصة ثمينة لضرب عصفورين بحجر واحد.

1 ـ ضم الولايتين (البوسنة والهرسك) قبل أن يفيق الأتراك من مشاكلهم الثورية الداخلية.

2 ـ توجيه ضربة قاصمة للأماني القومية الصربية المتعلقة بهاتين الولايتين، إلا أن تغيير خريطة البلقان على هذا النحو ما كان ليتم إلا بعد أخذ موافقة مسبقة من روسيا.

وكان (اهرنتال) السياسي النمساوي الكبير يدرك تماماً هذه الحقيقة فوضع خطته على أساس استدراج روسيا إلى اعتراف بحق ضم الولايتين (البوسنة) و (الهرسك) ثم فرض الأمر الواقع عليها بحيث لا تستطيع روسيا الإفادة من هذا التغيير. ولهذا دخل في مفاوضات مع (إزفولسكي) ـ السياسي الروسي – بقصد تسوية مشكلة ضم (البوسنة والهرسك) إلى النمسا على أساس حصول روسيا على تعويض مناسب. وكان (اهرنتال) من الذكاء لأن يقدم لروسيا موافقة حكومته على مطالب روسية التقليدية الخاصة بحقها في مرور اسطولها الحربي عبر مضايق الدردنيل والبسفور، وكان يدرك أن أعداء روسيا وحلفاءها على السواء ـ وبوجه خاص – انجلترا لا يمكن أن تقبل تحقيق مثل هذه المطالب. ودبر (إهرنتال) ونفذ خطته بمهارة. فقد دارت هذه المفاوضات دون علم من جانب فرنسا، وفي نفس الوقت اتفق مع ملك بلغاريا ـ وكان لا يزال تحت السيادة الإسمية لسلطان العثماني ـ على أن يعلن استقلاله، ولم تلبث أن أعلنت امبراطورية النمسا والمجر فجأة ضم البوسنة والهرسك.

لم يعتبر هذا الضم ضربة موجهة ضد الدولة العثمانية بقدر ما اعتبر ضربة قاسية لمملكة الصرب الفتية في حركتها القومية، وضربة غادرة بروسيا إذ حصلت النمسا على هدفها بينما أصبح على روسيا المطالبة بتنفيذ فكرة التعويض، أبدت حكومة روسيا الكثير من الضجة الدبلوماسية وقليلاً من التهديد العسكري، ولجأت إلى حليفتها القديمة (فرنسا) وإلى صديقتها الجديدة (بريطانيا) ولكن فرنسا رفضت أن تقف إلى جانب روسيا وقفة الحليف لأن روسيا كانت تدبر مع النمسا من وراء ظهرها أموراً كان يجب أن يؤخذ رأيها فيها. أما وقد غدرت حكومة النمسا بروسيا فهذا أمر ـ من وجهة نظر الدبلوماسية الفرنسية – لا يلزم فرنسا بالوقوف إلى جانب حليفتها روسيا. أما بريطانيا فكان موقفها في هذه المسالة هو نفس موقفها التقليدي خلال القرن الماضي وهو الإبقاء على المضايق مغلقة في وجه الأسطول الحربي الروسي. بينما كان طبيعياً أن تضغط ألمانيا على روسيا كي تكف عن تصعيد

الأزمة، وبذلك تكون روسيا قد واجهت هزيمة دبلوماسية في 1908 مشابهة لهزيمة ألمانيا في مؤتمر الجزيرة في 1906م حقيقة شربت روسيا هذا الكأس المرير ولكن أدى هذا إلى تأكيد حقيقة جوهرية، هي أن دول التحالف الثلاثي - وإن كسبوا هذه الجولة - أصبحوا يمثلون القوة الحقيقية المهددة لروسيا الأمر الذي زاد من ارتباط روسيا - رغم تقاعس فرنسا بالذات – بحليفتها (فرنسا).

كانت عملية ضم (البوسنة والهرسك) بالنسبة للصرب تعني أن هذين الإقليمين لن ينضما في المستقبل إلى (الصرب الكبرى). فاحتلال النمسا لهما لا يقضي على مثل هذا الأمل، أما ضمهما فبلا شك يقضي عليه. وكان تخاذل روسيا أمام الضغوط الكبيرة التي تعرضت لها من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء ضربة ثانية للصرب التي كانت تعول كثيراً على تحرك روسي عنيف ضد النمسا. واستكانت الصرب قليلاً. ولكن كان من العسير جداً على حكومتها أن تتحكم في مشاعرالصربيين، سواء أكان هؤلاء في داخل الامبراطورية النمساوية أم في داخل الصرب نفسها. الأمر الذي سيكون له أكبر الأثر في تصعيد الأزمات بين الصرب وإمبراطورية النمسا والمجر.

ثانيًا: أزمة أغادير

وكما كان تغيير أوضاع البلقان على يد النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك - سبباً في إثارة مشكلة دولية معقدة، كان تغيير الوضع في المغرب (مراكش) على يد فرنسا سبباً في أن تثير ألمانيا (أزمة أغادير) التي رفعت حدة التوتر بين الكتلتين المتواجهتين إلى درجات خطيرة. فلقد كان التسابق البحري والاستعماري على أشده بين ألمانيا وبريطانيا، وفشلت المحاولات التي بذلتها انجلترا لوقف هذا التسابق وذلك لأن بريطانيا أصرت على أن تظل قوتها ضعف أية قوة بحرية تالية لها، ولأن ألمانيا أصرت على عدم التخلي عن الجزء الجنوبي لخط حديد بغداد لبريطانيا إلا إذا وافقت الأخيرة على الوقوف على الحياد من حرب تقع بين ألمانيا وفرنسا.

ولكن كان تحييد بريطانيا في 1908 وبعد ذلك يعني خروجها من الوفاق الودي مع كل من فرنسا وروسيا، ومن ثم كانت الأمور كلها تشير إلى صلابة بريطانية إزاء ألمانيا في كافة مجالات التفوق العالمي. كل هذا جعل حكومة ألمانيا تربص بدول الوفاق، وحانت الفرصة لإحراجها بغية هزه من جذوره عندما بعثت فرنسا بقواتها إلى داخل مراكش (المغرب) وكانت حكومة ألمانيا تدرك عن حق أن دخول جيش دولة أوروبية استعمارية بلاداً مثل المغرب يعني وقوع البلاد تحت الإحتلال. وهناك سابقة واضحة

وجلية في مصر عندما دخلت جيوش بريطانيا مصر باسم حماية الخديوي توفيق من المتمردين، وكانت عمليات فرنسا في مراكش لا تضر كثيراً بالمصالح الألمانية، إلا أن الحكومة الألمانية كانت تذكر الهزيمة الدبلوماسية المريرة التي منيت بها في مؤتمر الجزيرة عام 1906، وتصورت أنها لو تدخلت بعنف ضد إجراءات فرنسا في (مراكش) لربما أحرزت كسباً سياسياً يمحو آثار تلك الهزيمة. خصوصاً وأن اسبانيا رغم تواطئها مع فرنسا على استعباد مراكش ـ كانت تعارض تلك العمليات العسكرية الفرنسية في داخل تلك البلاد. إلا أن الإجراء الألماني كان عنيفاً إذ أرسلت الحكومة الألمانية المدمرة (البانثر) إلى ميناء أغادير مسيطرة عليه بمدفعيتها لحين التوصل إلى تسوية تعطي تعويضاً مناسباً لألمانيا ، وطالبت ألمانيا فعلاً بكل الكونغو الفرنسي.

قوبل هذا التهديد الألماني بوقفة صلبة قوية من جانب بريطانيا ضد مطالب ألمانيا وإجراءاتها تلك. وبدا واضحاً أن الحرب لو وقعت ستخوضها بريطانيا إلى جانب فرنسا. وتبادل المختصون العسكريون الفرنسيون والإنجليز الخطط العسكرية لمواجهة الأزمة. وبينما كان الشعب الألماني يتصاعد ثورة ضد بريطانيا ويدعو القيصر إلى التصلب، إلا أن القيصر كان يرى أن المسالة تساوي خوض الحرب الكبرى، وآثر التراجع بقبوله قطعة أرض فقط من الكونغو الفرنسي على أمل أن تفتح له هذه الأرض مجالات واسعة استعمارية في افريقية.

وبذلك تكون فرنسا قد خرجت ظافرة مطلقة اليد في المغرب وأعلنت حمايتها عليه في 1912. وأدت تلك الأزمة إلى نتيجة هامة، وهي أن بريطانيا في علاقتها مع فرنسا تعدت مجال (الوفاق) إلى مجال (التحالف) دون النص على ذلك في معاهدة أو إتفاقية. وخلال هذه الأزمة وفي أعقابها حاولت كل من إيطاليا وروسيا انتهازها لتحقيق توسعات جديدة. فروسيا حاولت مد سيطرتها إلى طهران ولكن المعارضة البريطانية منعتها من تحقيق هدفها. أما إيطاليا فقد أقحمت حرباً على الدولة العثمانية ـ بعد أن حصلت على اعتراف الدول الكبرى بأن – تستولي ايطاليا على طرابلس – وأنزلت جيوشها على الشواطيء الليبية واستولت عليها وعلى جزر الدوديكانيز واضطرت تركيا إلى وقف الحرب معها بسبب تكوين عصبة البلقان (اليونان والصرب وبلغاريا) لشن حرب على الدولة العثمانية تحت ستار اخراجها من أوروبا وفي الحقيقة لتحقيق توسعات اقليمية وقومية.

ثالثًا:الحروب البلقانية 1911 - 1913

يوصف البلقان عادة، قبل الحرب العالمية الأولى – بأنه برميل البارود ولقد كان كذلك فعلاً، وكانت مواقف الدول الكبرى إزاء مشكلاته، وسياسات دول البلقان

نفسها من التضارب لدرجة كان من العسير تحديد من هو صديق الدول البلقانية ومن هو العدو لهذه الدول الكبرى أو تلك، ولكن كانت الصرب بلا جدال العدو الخطير لإمبراطورية النمسا والمجر في أعقاب أزمة ضم البوسنة والهرسك.

وكانت امبراطورية النمسا والمجر تبحث عن وسيلة تسكت بها إلى الأبد الدعايات النشطة للصرب الكبرى، حتى لقد جربت الحصار الاقتصادي ولكن دون جدوى. ومن ثم أخذ ساسة النمسا يعتقدون يوما بعد يوم أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لقتل فكرة (الصرب الكبرى) وإلا تعرضت الإمبراطورية النمساوية للتفكك. ومع هذا سارت الأمور بشكل يتعارض مع أمن وسلامة هذه الأمبراطورية، خصوصاً من حيث نمو المشاعر القومية في البلقان في أعقاب الثورة التي نشبت في مقدونيا ضد الحكم التركي فيها. فمقدونيا كانت تضم يونان وبلغار وصرب، والتهبت الصحافة بكتابات القوميين في اليونان وبلغاريا وصربيا وأصبحت الفكرة القومية مجالاً للمزايدات الديماجوجية تحثها روح صليبية واضحة.

وإذا ما وضعنا جانباً هذه النعرات القومية الحادة وبحثنا عن امكانية تقسيم مقدونيا بينها لوجدنا أن القوميات في مقدونية كانت متداخلة جداً فيما بينها بحيث تستحيل عملية تقسيم له على أساس قومي الأمر الذي وضع بذور الفوضى في العلاقات بين دول عصبة البلقان التي تشكلت في 1912 من تحالف صربي بلغاري ثم من تحالف يوناني بلغاري. ومع أن روسيا كانت تشجع تكوين مثل هذه العصبة إلا أنها اكتشفت أن مجرد ظهورها سيؤدي إلى اشتطاطها في التحرك ضد الدولة العثمانية بشكل يهدد أطماعها نفسها في هذه الدولة العثمانية. وحاولت روسيا وكذلك فرنسا أن تحدا من نشاط هذه العصبة ولكن دون جدوى إذ كانت دول العصبة تدرك أن روسيا لا بد وأن تقف بجانبها. هذا فضلاً عن أن هذه المحاولة الروسية لفرض التعقل على عصبة البلقان جاءت في وقت متأخر، إذ لم يلبث أن أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية وتبعته دول العصبة. كانت العمليات العسكرية التي قامت بها جيوش العصبة ناجحة، ولكنها تمت بشكل أدى إلى قلب الأوضاع السياسية والإستراتيجية بل والدولية بشدة. فقد انتصرت الجيوش الصربية على الأتراك واستولت على موناستير وقلب مقدونيا، بينما كانت بلغاريا تعلق الآمال الكبار على أن تكون هذه من نصيبها هي. ووصلت القوات الصربية في زحفها حتى (دورازو) ، فاستشاطت امبراطورية النمسا والمجر غضباً من حصول الصرب على منفذ على بحر ايجه؛ وتحت الضغوط النمساوية والايطالية أرغمت الصرب على الانسحاب من دورازو.

كـذلك ضـغطت النمسـا علـى (الجبـل الأسـود) حتـى تخلـى عـن اشـقودره. وانتصرت القوات اليونانية كذلك واستولت على (سالونيك)، إلا أن هذه كانت أيضاً محط آمال بلغاريا. وسقطعت (ادرنـه) بجهد مشترك صربي بلغاري ولكن استمرت القوات البلغارية في زحفها حتى مسافة قليلة من الأستانة، فتحركت روسيا، التي لا تقبل أن تكون المضايق بيد دولة أوروبية أخرى صغيرة كانت أم كبيرة صديقة كانت أم عدوة، وضغطت على بلغاريا حتى استبعدت هذه فكرة استمرار الزحف صوب العاصمة العثمانية. هذه الانتصارات، وتلك التدخلات الفورية من جانب الدولتين الكبيرتين المعنيتين بالبلقان، ورغبة الدول الكبرى في إحلال السلام قبل ان تختلط الأوراق بعضها ببعض، أدى إلى عقد صلح بين الدولة العثمانية ودول البلقان الأربع. ولا تكاد تمر إلا فترة وجيزة للغاية حتى شرعت دول العصبة في إعادة النظر فيما حصلت عليه. وكانت بلغاريا شديدة النقمة على ما انتهت إليه الأمور فقد كسبت كل من اليونان والصرب مساحات واسعة تضم أعداداً كبيرة من النفوس، وهذه الرعية الجديدة ليست يونانية ولا صربية فقط بل بلغارية كذلك.

وكان استخلاص هؤلاء البلغار لا يمكن أن يتم إلا بقوة السلاح، ولهذا اعتمد ملك بلغاريا على مفاجأة الصرب بهجوم كاسح ليستولي على «قلب مقدونيا» ولكن الصرب كانت على تفاهم تام مع اليونان ضد بلغاريا. فدخلت اليونان إلى جنب العرب الحرب ضد بلغاريا، وهزمت الجيوش البلغارية ولكن الأدهى من ذلك انتهاز رومانيا الفرصة ودخولها الحرب ضد بلغاريا وزحفت جيوشها حتى هددت صوفيا نفسها، واستطاع كذلك (أنور باشا) ـ الذي تسلم زمام الأمور في الأستانة على اثر انقلاب عسكري جديد من استخلاص (أدرنه) بسهولة واسقط في يد البلغار واضطروا إلى عقد معاهدة بوخارست 1913/8/10 ربحت رومانيا في هذه المعاهدة إقليم (سلستريا) إلى جانب الجزء الجنوبي من (دبروجه) مع أن غالبية سكانه من البلغار. وحصلت اليونان على جنوب مقدونيا وأغلقت بذلك المنافذ البحرية في وجه بلغاريا.

هذا بالإضافة إلى كريت التي أعلنت الثورة على الدولة العثمانية وانضمت إلى اليونان. وظهرت دولة مستقلة جديدة هي البانيا لا حباً في استقلالها ولكن منعا للصرب من الوصول إلى البحر الأدرياتي وهو أمر كانت تقاومه بشدة كل من امبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا. والجدير بالذكر أنه خلال هذه الأزمات البلقانية كان ينعقد في لندن مؤتمر (1912 - 1913) يسعى إلى إيجاد تسوية معقولة، فكان آخر مؤتمر دولي ينظر في قضية السلام في أوروبا وكان أكثر المؤتمرات الأوروبية فشلا، ومن ثم كان تأكيداً على أن الجيوش هي القادرة على تسوية المشاكل.

أدت هذه الحرب البلقانية إلى نتائج وتطورات ستقود إلى الحرب العالمية الأولى، وأهمها:

1 ـ خرجت بلغاريا مهيضة الجناح دون أن تحرك روسيا لإنقاذها، بل إن النمسا هي التي وقفت إلى حد ما، إلى جانبها، ولهذا أصبحت العلاقات البلغارية الروسية غير ودية.

2 ـ كانت حكومة الإتحاديين في الأستانة تميل إلى ألمانيا ، وبعد الحرب البلقانية أصبحت أكثر ميلاً إليها وأكثر استعداداً لإعادة تنظيم القوات المسلحة البرية التركية بواسطة خبراء ألمان عسكريين بل طلب الإتحاديون من ألمانيا إرسال قائد كبير يتولى قيادة الجيش التركي في الآستانة. فأثار ذلك مخاوف من جانب روسيا أن تتحكم ألمانيا بالتدريج على المضايق وطالبت بسحب ليمان فون ساندرس المكلف بتلك المهمة إلا أن بريطانيا لم تؤيد روسيا في طلبها هذا حيث كان في الأستانة قائد بريطاني يتولى إعادة تنظيم البحرية العثمانية وانتهت المفاوضات الخاصة بهذه المشكلة إلى تسوية في ديسمبر 1913، تولى بمقتضاها «ليمان فون ساندرس» رئاسة هيئة أركان الجيش التركي في الأستانة، متخليا بذلك عن القيادة التي كانت في حقيقة الأمر عبئاً يصعب عليه القيام به ومع هذا فكانت ألمانيا تدرك أن الدولة العثمانية – مجال ألمانيا الحيوي معرضة للانهيار من الداخل وليس من الخارج فقط. فقد كانت الحركة التحررية تشتد في كل من الشام والعراق، ومع أن مؤتمر باريس الذي عقده زعماء العرب في 1913 أدى إلى تفاهم عربي تركي إلا أن التطورات أثبتت أن سياسة الأتراك نحو العرب لم تتغير، وظلت المشكلات على ما هي : لم تشتد في تعقيداتها.

3 ـ أدت هزيمة الدولة العثمانية أمام الدول البلقانية وتصاعد المشكلات القومية في هذه الدولة عليه العثمانية إلى زيادة في تشتيت القوات العسكرية لامبراطورية النمسا والمجر حيث أصبح عليها أن تحتفظ بجيش كبير يراقب مواقف الدول البلقانية السريعة التقلب الأمر الذي يحول دون أن تلقي هذه الامبراطورية بكل جيوشها ضد روسيا في حالة وقوع حرب معها. هذا بينما زتد التقارب بين دول الوفاق الثلاثي: روسيا وبريطانيا وفرنسا، وكان هذا التقارب يزداد قوة كلما اشتدت حمى التسابق البحري بين بريطانيا وألمانيا .

ودارت مفاوضات حربية بحرية بين روسيا وبريطانيا، وبين بريطانيا وفرنسا وكان أهم ما توصلت إليه بريطانيا هو اتفاقها مع فرنسا على أن تتولى البحرية الفرنسية السيطرة على مياه البحر المتوسط وتتولى البحرية البريطانية بعد سحب قطعها من البحر المتوسط – السيطرة على بحر الشمال والدفاع عن سواحل

فرنسا الشمالية. وكانت الصحافة من المظاهر التي كانت تزيد من هذا التقارب بين دول الوفاق والتي تعمق العداء بينها وبين دول الحلف الثلاثي. فقد كانت المقالات الصحفية النارية في الصحف الألمانية ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا تقابلها مقالات لا تقل عنها عنفاً في صحف هذه الدول، الأمر الذي عمق الكراهية بين الشعوب فضلاً عما كان بين الحكومات من بغضاء. خلال السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت أعصاب الساسة والشعوب المثقفة مشدودة بسبب الأزمات التي عرضت السلام للإنهيار.

وفي كل مرة بعد انتهاء كل أزمة كانت النفوس تزداد قلقاً بسبب تصاعد الحرب الصحفية والمنافسات السياسية والاقتصادية بين الكتلتين الكبيرتين: دول الوفاق (روسيا وفرنسا وبريطانيا) من جهة وبين ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر من جهة أخرى، وأما ايطاليا فلم يكن لها الدور الكبير في هذه المنافسات بسبب ارتباطاتها المتوازية مع كل من الكتلتين، ولهذا أصبحت الكتلة الثانية قاصرة تقريباً ـ في واقع الأمر ـ على ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وكان السؤال المحير الوارد على لسان الساسة والمسؤولين والصحفيين هو أي من الكتلتين أقوى. وكان هناك اعتقاد عام أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لكشف هذه الحقيقة الخطيرة، وأصبحت مهام أركان حرب هذه الدول هي الإعداد لحرب مقبلة قريبة ومن ثم لم تعد أوروبا قادرة على أن توحد كلمتها إزاء مشكلة من المشكلات الحادة الدولية على ذلك النحو الذي حدث عند عقد مؤتمر برلين 1878 والخاص بالمشكلة الشرقية، ومؤتمر برلين لسنتي 1884 – 1885 بشأن مشكلة استعمار افريقية.

ويعتبر مؤتمر الجزيرة 1906 واحداً من المؤتمرات التي كان لأوروبا فيه كلمة متفق عليها بغض النظر عن خطورة النتائج التي أدى إليه هذا المؤتمر، وأخيراً عقد مؤتمر لندن في 1912 للبحث عن حل للمشكلة البلقانية، ولكن لم يستطع هذا المؤتمر الوصول إلى قرار ما وهكذا كانت قدرة أوروبا على مواجهة الأحداث الكبرى عن طريق المؤتمرات الدولية تتناقص بسرعة حتى تلاشت وأصبح السلاح هو الوسيلة الباقية لحسم المشكلات. هذه المشاعر الحادة كانت المسؤول الأول عن فشل الدعوات التي وجهت إلى ساسة العالم للوصول إلى سلم دائم عن طريق مؤتمر سلام دولي.

فلقد دعا قيصر روسيا إلى مؤتمر سلام في 1899 م وكان الدافع الحقيقي لدعوته هو إعطاء فرصة لروسيا الضعيفة لتقوي نفسها في الوقت الذي يجمد فيه القوات المسلحة في الدول الكبرى الأخرى، وفشلت فكرة عقد هذا المؤتمر لأن الدول الأوروبية كانت سيئة الظن بشدة في نيات روسيا من وراء هذه الدعوة. وجاءت

الدعوة الثانية في 1907 م على لسان تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن قضت عليها بريطانيا لأنها كانت تمتلك قوة بحرية كافية لضمان أمنها وسلامة خطوط مواصلاتها مع امبراطوريتها ومختلف أجزاء العالم. ولم تستمتع الحكومة البريطانية إلى الانتقادات الشديدة التي وجهتها كل من حكومتي واشنجتن وبرلين بسبب هذا التصلب. إذ كان مركز بريطانيا قوي إلى حد كبير في 1907 عنه في السنوات القليلة السابقة.

وتصاعدت سياسة التسليح في دول الوفاق الثلاثي وفي امبراطوريتي ألمانيا والنمسا والمجر بشكل يفوق نمو تسليحها فيما سبق، حتى غدا شبح الحرب ماثلاً أمام الأعين حيث كانت الحكومات الديمقراطية حين تسعى إلى كسب موافقة برلماناتها على اعتمادات التسلح تضخم من خطر وقوع حرب كبرى قريبة، وكانت مراسم القياصرة في ألمانيا والنمسا وروسيا تؤكد على الحاجة الملحة لمواجهة ظروف استثنائية دولية. هذا فضلاً عن الخطب النارية للسياسيين والمقالات الصحفية المهيجة للمشاعر القومية، والملاحظ أنه خلال 1913 أصدرت الدول الكبرى المتنافسة قرارات ومراسيم بقصد زيادة القوات المسلحة زيادة كبيرة، فبالنسبة لألمانيا صدر القانون في 14 يناير 1913، وبالنسبة لامبراطورية النمسا والمجر في أواخر 1913 صدر القانون الفرنسي في 7 أغسطس – آب 1913 وصدر مشروع إعادة تنظيم الجيش الروسي في أواخر 1913، وظهرت الدعوة إلى التجنيد الإجباري في بريطانيا في 1911، 1912 ولكن الحكومة البريطانية ركزت على زيادة قوتها البحرية المسلحة زيادة كبيرة.

رابعًا: مصرع ولي عهد النمسا

وأخطر نتائج الحرب البلقانية هو نمو صربيا أرضاً وسكانا واشتداد الحركة القومية الصربية والتهابها سواء داخل الصرب أو بين الأقلية الصربية الكبيرة الواقعة تحت حكم امبراطورية النمسا والمجر. وكان الطلبة هنا وهناك يشنون حملة دعاية عنيفة من أجل توحيد الصربيين كلهم تحت حكومة وطنية واحدة وكان ان تشكلت في داخل امبراطورية النمسا والمجر عدة جمعيات سرية ارهابية تولت القيام بعدة عمليات اغتيال لحكام البوسنة ولغيرهم من المسؤولين عن اخضاع الصرب تحت هذه الامبراطورية، وكان اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد النمسا وزوجته في سيراييفو في 28 يونيو – حزيران 1914 وكان ولي العهد من أكثر سياسيي النمسا تشدداً ازاء المشكلة الصربية ويرى أنه لا يمكن تسويتها إلا بالقوى المسلحة. وكانت هذه الحادثة هي التي بدأت التطورات التي أدت في النهاية إلى وقوع الحرب الالمية الأولى.

خامسًا: الدول المشاركة في الحرب العالمية الاولى

كانت حادثة اغتيال ولي عهد النمسا أقصى ما يمكن أن تتحمله النمسا وأصبح من الضروري أن تلقى الصرب جزاء دعاياتها العدوانية ضد جارتها الكبيرة، وإلا إذا مرت الحادثة بحصول النمسا على اعتذار دبلوماسي أو حل سياسي فقط فإن ذلك سيعتبر إذلالاً كبيراً جديداً لكرامة الامبراطور وشعبه. ولقد كانت فكرة الوصول إلى تسوية دبلوماسية واردة عند مختلف الأوساط الأوروبية السياسية، وكذلك كانت لديهم فكرة حصر الأزمة الجديدة بين النمسا والصرب فقط ومنع تصاعدها أو دخول أطراف جدد فيها. إلا أن ظروف النمسا كانت لا تسمح بمثل هذه الخطوات أو التسويات، فالتسوية السلمية أصبحت بالنسبة لها مجرد تسكين لأزمة مستعصية لا بد وأن تنفجر يوما ما، وبعد وقت قصير طالما المسبب لها كان لا يزال يتمتع بكامل قواه، ونعني بذلك دولة الصرب، فهل كان من الممكن حصر الأزمة بين هذين الطرفين: النمسا والصرب ومنع انحدارالعالم إلى حرب كبرى كانت ماثلة فعلاً أمام الأعين.

كانت النمسا قد عقدت العزم على أن توجه إلى الصرب الضربة التي كان يتوق فرانز فرديناند – في حياته - أن يوجهها إليها. وكانت الصرب تدرك ذلك، والتزمت جانب الحذر الشديد ونفت عن نفسها مسؤولية مصرع فرانز فرديناند وزوجته، وفضلاً عن هذا أثبتت التحقيقات النمساوية نفسها براءة الصرب من هذه الجريمة، ولكن لم يلق ذلك كله صدى في الدوائر النمساوية، واستمرت في خطواتها العنيفة ضد الصرب وكان يتولى هذه العمليات السياسي العنيد برشتولد وزير خارجية النمسا، تؤيده فيها حكومة ألمانيا . وكانت أولى هذه الخطوات الإنذار الذي بعثت به حكومة المملكة الثنائية إلى الصرب في 23 يوليو - تموز 1914.

وكانت مواد هذا الإنذار تعي ببساطة تدخل حكومة النمسا في أدق الشئون الداخلية الصربية مثل حل الجمعيات الوطنية، ومنع أية دعاية مكتوبة أو مذاعة سواء في الصحافة أو المدارس وإبعاد الموظفين الذين أعلنوا كراهيتهم للمملكة الثنائية (النمسا والمجر)، إلى غير هذا من الأمور التي تكاد تفقد الصرب إستقلالها. ومع أن الحكومة الصربية وافقت على عدد كبير من مواد الإنذار النمساوي إلا أن حكومة فيينا أعلنت الحرب عليها في 28 يوليو 1914. كان هذا في نظر الصرب عملية سحق لها، وتطلعت بسرعة إلى منقذ لها، وكانت روسيا مستعدة للقيام بهذا الدور لأنها كانت لا تقبل بأي حال من الأحوال سحق الصرب على يد النمسا لما سيترتب عن ذلك من تسلط نمساوي على البلقان. أما وقد أصبحت

المملكة الثنائية معرضة لحرب ضد الصرب وروسيا، وبالتالي ضد فرنسا حليفة روسيا فإن ألمانيا ما كانت لتقبل إنهيار حليفتها (المملكة الثنائية) أمام أعدائها.

ومع هذا كانت هناك مجهودات ذات قيمة بذلتها حكومة فرنسا لكبح جماح روسيا، وبذلتها ألمانيا لتهدىء من روع المملكة الثنائية. كذلك رفضت حكومة بريطانيا أن تعلن التزامها بالوقوف عسكرياً إلى جانب فرنسا إذ ما تطورت الأحداث إلى حرب بين الكتلتين. ولكن روسيا رفضت نصيحة فرنسا بأن يقتصر توجيه تعبئتها العامة ضد المملكة الثنائية، بل إن روسيا وجهتها أيضاً ضد ألمانيا، وفرضت بذلك الأمر الواقع على فرنسا، فإما أن تقف إلى جانب حليفتها ـ وإما أن تترك روسيا في الميدان وحدها الأمر الذي يعرض روسيا لهزيمة ساحقة تكون نتائجها على فرنسا في منتهى الخطورة.

وكان أن توالت الأحداث بسرعة وأخذت الدول الأربع الكبرى المتعادية: روسيا وفرنسا والمملكة الثنائية وألمانيا تتبادل التهم والتعبئة العامة حتى أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في اول أغسطس 1914 ، وعلى فرنسا في 3 أغسطس ولم يبق من الكتلتين خارجاً عن الحرب الكبرى سوى بريطانيا وإيطاليا ولكن بريطانيا كانت في نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية لألمانيا ومساندة لفرنسا. فقد حشدت أسطولها في بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أي هجوم ألماني على السواحل الفرنسية. ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية ـ وكانت برئاسة جرأي – ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور بالنسبة لبريطانيا عند هذا الحد، وأن ألمانيا هي التي أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيادة البلجيك عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا على اعتبار أن هذا العدوان هو الذي حرك الرأي العام البريطاني نحو إعلان الحرب على ألمانيا .

وتقول وجهة النظر البريطانية في أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا: «مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا في هذا النزاع الذي يقوم من أجل الإستيلاء على الصرب، ولكنه نزاع بين ألمانيا التي تريد فرض دكتاتورية سياسية ـ في أوروبا وبين الدول التي تريد استعادة الحرية الفردية».

وفي اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التي يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة في الحرب عند نشوبها، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق ؛ يخدم – مصالحها الخاصة أولاً. فالوفاق الودي لا يلزم بريطانيا بالدخول في الحرب إلى جانب فرنسا. والأمور التي جلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية:

1 ـ إن الدفاع الفرنسي لا بد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها في هذه الظروف الجديدة.

2 ـ إن دولاً أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا الأمر الذي يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد.

أما مسالة حرية البلجيك وحياده، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية وإيطاليا ولكن بريطانيا كانت في نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية لألمانيا ومساندة لفرنسا، فقد حشدت أسطولها في بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أي هجوم ألماني على السواحل الفرنسية. ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية وكانت برئاسة جرأي ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور بالنسبة لبريطانيا عند هذا الحد، وأن ألمانيا هي التي أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيادة البلجيك عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا على اعتبار أن هذا العدوان هو الذي حرك الرأي العام البريطاني نحو إعلان الحرب على ألمانيا .

وتقول وجهة النظر البريطانية في أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا في هذا النزاع الذي يقوم من أجل الإستيلاء على الصرب، ولكنه نزاع بين ألمانيا التي تريد فرض دكتاتورية سياسية ـ في أوروبا وبين الدول التي تريد استعادة الحرية الفردية».

وفي اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التي يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة في الحرب عند نشوبها، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق ؛ يخدم – مصالحها الخاصة أولاً، فالوفاق الودي لا يلزم بريطانيا بالدخول في الحرب إلى جانب فرنسا. والأمور التي جلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية:

1-- إن الدفاع الفرنسي لا بد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها في هذه الظروف الجديدة.

2- إن دولاً أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا الأمر الذي يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد.

أما مسالة حرية البلجيك وحياده، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية وهي: بوليفيا، بيرو، أورجواي، أكوادور، وبالنسبة للدول الآسيوية الأفريقية، شاركت بطبيعة الحال مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية والفرنسية

في الحرب، وأعلنت سيام (تايلاند) الحرب على دولتي الوسط في يوليو 1917، كما أعلنتها ليبيريا والصين في أغسطس 1917.

الفصل الثالث

الحرب العالمية الأولى 1914- 1918

- الوضع الدولى قبل نشوب الحرب.
- مسار الحرب
- الجيش الفرنسي
- الجيش البريطاني
- الجيش الأمريكى

نتائج الحرب العالمية الأولى

- معاهدة فرساى 1919م

خلال ثمانية أيام، تمتد من نهاية يوليو إلى مطالع أغسطس 1914، دخلت القوى الكبرى في أوروبا، أي النمسا – المجر وألمانيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى، الصراع الذي نعرفه باسم الحرب العالمية الأولى، وقد أدهش النطاق الذي بلغته الحرب وكلفتها الكثير من الأوروبيين، إلا أن قلة من رجال الدولة في القارة الأوروبية أو أولئك الذين كانوا على اطلاع بالأحداث من شعوبها العديدة، شعرت تماماً بالدهشة لاندلاع الأعمال الحربية.

فقد كان للنزاعات بين هذه الدول القوية والكبيرة جذور عميقة، إذ نجمت الكثير من التوترات جراء ظهور أمة قوية في وسط القارة، كما أدى النصر الذي حققته الولايات الألمانية بقيادة أوتو فون بسمارك في بروسيا، على فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية عامي 1870- 1871م إلى ظهور ألمانيا الموحدة كما أنه خلق حالة من التوتر الدائم بين فرنسا المتواضعة القدرات فجأة، وجارتها القوية حديثاً. وقد بلغ الإذلال الفرنسي ذروته بحصول ألمانيا على مطلبها بالسيطرة على مناطق الحدود الاستراتيجية والتي تشمل كامل مقاطعة الإلزاس، وجزءاً من اللورين، كما ألقى ظهور ألمانيا السريع كقوة رائدة في القارة بظلاله أيضاً على المصالح البريطانية.

فقد لعب الألمان دوراً قيادياً في التجارة الدولية والمسائل الاستعمارية تعد الأساس بالنسبة إلى رجال الدولة البريطانيين وتدهورت العلاقات بشكل حاد، خصوصاً عندما تدخل الألمان في مجال المصالح البريطانية في جنوب التي حجر أفريقيا وقوف برلين علناً إلى جانب أعداء بريطانيا من البوير قبل حرب البوير وخلالها، ما بين عامي 1899 و 1902، وإضافة لعوامل أخرى، وضع بناء ألمانيا لأسطول على مستوى عال معتمداً على البوارج الحربية، الحكومة في برلين في حالة خلاف مع نظيرتها في لندن، فقد بدا أن مثل هذا الأسطول الذي احتوى على أكثر السفن قوة في ذلك العصر قدر له مواجهة أسطول بريطانيا الكبير في بحر الشمال، وعلاوة على ذلك، فإن إمكانية سيطرة الألمان على الممرات البحرية حول بريطانيا وبالتالي تهديد إمدادات الغذاء للجزيرة، جعل العداوة أمراً مرجحاً، إن لم يكن في واقع الأمرحتمياً.

كما أن الأخطار الناجمة عن الطموحات الألمانية كانت تقابلها الصراعات المستعصية في أماكن أخرى، فقد واجهت النمسا – المجر العداء الروسي عندما انهارت السيطرة العثمانية التركية على منطقة البلقان خالقةً فراغاً في السلطة تورطت فيه كلتا الدولتين، وكان للنمسا – المجر أسباب قاهرة للتدخل هنا خوفاً على وجودها، وذلك الأن ولايات بلقانية مثل مملكة صربيا لمت بشكل كبير على حساب

المصالح التركية، ولأن عشرات الجنسيات كانت تعيش في تلك الدولة بمن فيهم الصرب، فإنها خشيت على نفسها من الانهيار إذا ما فكر السكان الصرب وسكان المناطق الجنوبية الذين يقطنوها في الانفصال والانضمام إلى مملكة صربيا ارتسم سيناريو كابوسي في فيينا أن المجموعات العرقية الأخرى الساخطة في النمسا – المجر ستتجرأ هي الأخرى على الانفصال، كانت روسيا بالمثل جاهزة للتدخل في الشؤون البلقانية، إذ أخذت القوة السلافية العملاقة في أوروبا الشرقية على عاتقها دور الراعي والحليف لصربيا، كما رغبت روسيا في تأكيد مكانتها كقوة عظمى وكانت منافسة النمسا على النفوذ في منطقة البلقان الطريقة الأكثر ترجيحاً التي يمكن أن تقوم بذلك من خلالها، كما زادت الروابط الثقافية والدينية الروسية مع الصرب اللتان اشتركتا في الانتماء للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية، من مصالح سان بطرسبرج السياسية في المنطقة، وبالتالي لا يمكن أن يحدث أي تحرك نمساوي من دون المغامرة برد فعل روسي جاد وخطير.

هدّدت الأزمات التي وقعت في منطقة واحدة من أوروبا بالانتشار، كما أدّى تطور أنظمة التحالف التي نسجت في عقود ما قبل الحرب اندلاع النزاعات المحلية أمراً غير محتمل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى التفاهمات غير الرسمية التي ربطت أمن دولة واحدة بالأخرى، وبالتالي كان لدى النمسا المجر معاهدة رسمية تربطهما بألمانيا، وبالمثل ارتبطت فرنسا وروسيا، بيد أن التهديد الألماني المتصاعد جعل بريطانيا العظمى حليفاً محتملاً – وإن لم يكن رسمياً بعد لفرنسا وروسيا.

وقد أدّت أحداث بعينها في العقد الذي سبق العام 1914 إلى زيادة صعوبة إدارة التوترات أكثر فأكثر، فقد ساهمت ألمانيا المتعالية بوقوع أزمتين واحدة عام 1905 والثانية عام 1911 حول الجهود الفرنسية لإحكام سيطرتها على المغرب. وتلك المنطقة كان ينظر إليها على أنها منطقة نفوذ فرنسية، بيد أن الألمان رغبوا في عرقلة السياسة الفرنسية وبالتالي تأكيد دورهم في الشؤون الدولية، وبشكل أكثر تحديداً، كان الألمان يحاولون قطع العلاقات بين بريطانيا وفرنسا، وعزل جارهم المعادي إلى الغرب وفي كلتا الحالتين جاء الأثر عكسياً، ففي الأزمة الأولى، قدمت بريطانيا دعماً دبلوماسياً لفرنسا في مواجهة الضغوط الألمانية وكانت الأزمة التي بدأت في 1911 الأكثر خطورة بين الأزمتين، فقد أثار دفع ألمانيا بزورق حربي إلى ميناء مغربي تعهد بريطانيا الرسمي بالوقوف إلى جانب فرنسا حتى في حالة الحرب ووجدت ألمانيا المهانة نفسها مضطرة إلى التراجع.

ومنذ بداية 1907 هددت أزمات البلقان بجلب روسيا والنمسا – المجر إلى المجابهة المباشرة، وساعدت المبادرات التي قام بها الدبلوماسيون الروس على بدء حربين في منطقة البلقان في 1912 و 1913 ، وأدى ذلك إلى نزع السيطرة التركية من جميع مناطق البلقان باستثناء منطقة صغيرة جداً. ونجحت سلسلة من المؤتمرات الدولية في وضع حدود جديدة لدول المنطقة. ولكن حالة عدم الاستقرار بقيت سائدة كما انسجمت عداوة الكثير من الصربيين نحو النمسا – المجر مع تصميم حزب الحر فيينا على مسح مملكة الصرب عن الخارطة. بذل كل من البريطانيين والألمان جهداً لوضع حد لسباق التسلح البحري وذلك عندما قام وزير الحرب البريطاني ريتشارد هالدن بزيارة برلين عام 1912، فقد أمل هالدن الذرب باللغة الألمانية لأنه تلقى تعليمه هناك، التقليل من حدة التوترات مدركاً أن تحجيم بناء الأسطول البحري قد يحسّن العلاقات الألمانية الإنجليزية، إضافة إلى تخفيف العبء المالي الثقيل الذي فرضه سباق التسلح البحري على كاهل البلدين، ولكن المهمة أخفقت، واستمر سباق التسلح البحري، وتعمقت الشكوك المتبادلة بين الطرفين.

وفي ظل هذا الجو المتقلب كان يمكن لحادثة مؤسفة واحدة أن تشعل الحرب في أوروبا. فكان اغتيال الأرشيدوق فرانز فيردناند، وريث عرش النمسا – المجر، على يد الوطنيين الصرب في 28 يوليو عام 1914 الشرارة التي أشعلت الانفجار، إذ لقي تصميم النمسا – المجر على المضي قدماً نحو الحرب مع صربيا دعماً وتأييداً ألمانيين، فتحركت روسيا للدفاع عن صربيا، ووجهت فينا إنذاراً نهائياً لمملكة صربيا في الثالث والعشرين من يوليو – وهو الإنذار الذي رأى النمساويون أنه لا يوجد أي سبب يحمل الصرب على قبوله فبدأت إعلانات الحرب تنطلق الواحدة تلو الأخرى النمسا – المجر ضد صربيا في الثامن والعشرين من يوليو، وألمانيا ضد روسيا في الأول من أغسطس، وألمانيا ضد فرنسا في الثالث من أغسطس وبريطانيا ضد ألمانيا في الرابع من أغسطس.

ولكن ماذا كانت توقعات المشاركين في الحرب الذين وجدوا أنفسهم في الحال غارقين في صراع مميت على الجبهة الغربية وفي أماكن أخرى لعقود من النمو المطرد وفي كثير من الأحيان ، زود النمو الصناعي كلاً من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا بالقدرة على شن حرب على نطاق واسع وغير مسبوق، فقد استطاعت هذه الدول حشد جيوش تُعد بملايين الرجال، كما تمكنت من تجهيز أولئك الجنود بكميات غير محدودة من الأسلحة الفتاكة والتي تراوحت ما بين البنادق والرشاشات إلى المدفعية التي وصلت لدرجة من الحجم والخطورة لم يسبق لها مثيل. كما جند العلماء والفنيون في جميع هذه الدول لاختراع أدوات دمار جديدة.

مسار الحرب

بدأت الحرب في أغسطس 1914 بهجوم ألماني كبير على الجبهة الغربية حيث شقت جيوش القيصر فيلهلم طريقها عبر بلجيكا وشمال شرق فرنسا، وتوغلت حتى بلغت مشارف باريس تماماً مثلما فعل قادة جيوش نابليون في القرن الماضي وقد أمل الألمان بتدمير قوات العدو في حملة واحدة ضخمة، تسيطر من خلالها على عاصمته وتتفرج عليه وهو يتوسل السلام ولكن الألمان لم يكونوا بمفردهم، فقد بدأ الفرنسيون الحرب أيضاً بهجوم على الأراضي الألمانية، تلك الأجزاء من اللورين التي كان الألمان قد استولوا عليها من الفرنسيين في عام 1871.

غير أن أياً من الخطتين لم يلق النجاح فقد انتهى الهجوم الفرنسي بفشل كما أوقف الهجوم المضاد الناجح للقوات الفرنسية والبريطانية زحف القوات الألمانية، فقد اندفعت الجيوش المتحاربة تجاه الشمال لتطويق الجانب الآخر واستعادة زمام المبادرة، ولكن لم تستطع القوات الإنجليزية الفرنسية ولا القوات الألمانية التحرك بالسرعة الكافية لضعضعة دفاعات العدو، ومع نهاية عام 1914 استقرت الحرب على الجبهة الغربية على مواجهات بين ملايين الجنود، وسرعان ما تعززت بملايين أخرى. كما احتدم الصراع في شرق أوروبا وفي نهاية المطاف امتد ليصل إلى سواحل الصين، وجزر المحيط الهادئ والشرق الأوسط وأفريقيا،واضطرت ألمانيا لخوض صراع كبير مع روسيا على الجبهة الشرقية. ومع ذلك حشد الأعداء الرئيسون من وسط أوروبا وغربها – بريطانيا وفرنسا وألمانيا معظم قواتهم المسلحة على الجبهة الغربية. في بادئ الأمر بدأت الحرب في البحر بعيداً عن أوروبا ولكن سرعان ما تركزت في مياه بحر الشمال وشرق المحيط الأطلسي، وعندما بدأت الحرب الجوية شهدت سماء شمال غرب أوروبا أكبر المعارك أيضاً.

ومع بداية عام 1915 أسبغت الهجمات التي شنها الفرنسيون لطرد الألمان من الأراضي كانوا قد احتلوها في الخريف الماضي، على الجبهة الغربية طابعاً مروعاً وأصبح نمط الهجمات واضحاً بشكل مشؤوم، كما اصطدمت هجمات المشاة الضخمة، التي مُهد لها بأكبر قدر ممكن من نيران المدفعية التي يستطيع المهاجم أن يُجمعها بخطوط دفاعات العدو، وكان من المفترض أن تضعف نيران المدفعية دفاعات العدو في هذه الحالة الدفاعات الألمانية ولكن استرعى هذا القصف انتباهه واحتياطاته لهجوم قادم. وبالتالي أخفقت تلك الهجمات لأن الخطوط الدفاعية اشتملت على خنادق محمية بأسلاك شائكة وممتلئة بالجنود المزودين بالبنادق والمدافع الرشاشة السريعة ولم تسفر هذه الهجمات إلا عن أعداد مروعة من الضحايا.

دخلت أسلحة جديدة مسرح الأحداث لأن كلا الجانبين ضاق ذرعاً بحالة الجمود التي سيطرت على الموقف واستخدم كلا الجانبين الغاز السام بدءا من عام 1915ء وظهرت الدبابات لأول مرة في ساحات القتال في عام 1916، وتحولت الطائرة من أداة استطلاع هشة إلى جزء من أسطول جوي كبير وبدأت تلك الأسراب تتنافس على سماء ساحة المعركة بقوة جوية معادية متكافئة كما استخدم الألمان السفن الجوية ومناطيد زبلن في 1916 وفي العام التالي بدأت الطائرات القاذفة بقصف فرديناند زبلن هو ضابط في الجيش الألماني بدأ في تطوير أفكاره بشأن السفن الجوية في عام 1897، وتم قبولها الخدمة الجيش في مارس 1909، وطورت في العام 1914 حيث وصلت سرعتها القصوى إلى 136كم في الساعة و كان بمقدورها حمل خمسة مدافع رشاشة و 2000 كغم من القنابل.

وردّ الخلفاء بالطريقة نفسها عانت القوات الفرنسية أكبر قدر من خسائر الحرب بسبب الهجمات البرية العقيمة التي شنتها في عام 1915، كما شهد البريطانيون والألمان القدر نفسه من الخسائر في عام 1916. وتخلت القيادة الألمانية العليا، بقيادة المارشال إريك فون فالكينهن، عن آمالها باختراق حصون العدو. وفي فبراير عام 1916 هاجمت قواتها الدفاعات الفرنسية البارزة الدفاعات المكشوفة في الخطوط القتالية في مدينة فردان التاريخية. وقد أمل الألمان تدمير القوات المسلحة الفرنسية وعزيمة الأمة الفرنسية القتالية، وذلك من خلال إيقاع خسائر فادحة لا تحتمل في صفوف القوات الفرنسية المضطرة لأسباب سياسية للتمسك بقردان ولكن بعد ثمانية أشهر من المعارك واسعة النطاق، عانى كلا الطرفين القدر نفسه من الخسائر المؤلمة.

وخلال تلك السنة نفسها سيطرت القوات البريطانية الجديدة، التي تشكلت من المتطوعين في الشطر الأول من الحرب على ساحة القتال في معركة سوم في فرنسا وبقي القادة البريطانيون من أمثال دوغلاس هيغ متمسكين بأهداب الأمل من خلال الاعتقاد أن عدداً كافياً من قطع المدفعية إلى جانب هجوم ضخم لقوات المشاة كفيل باختراق خطوط العدو. إذ افترض هيغ أنه يمكن تحقيق النصر عندما تقتحم قواته مؤخرة العدو وتبدأ بالتقدم صوب ألمانيا بشكل لا يمكن إيقافه. بدأت المعركة بمذبحة في صفوف قوات المشاة البريطانية بسبب المدافع الألمانية الرشاشة التي أطلقت نيرانها بشكل لم يسبق له مثيل حتى على الجبهة الغربية متابعاً الهجوم، بغية استنزاف العدو، أراق هيغ المزيد من الدم البريطاني، وقتلت أعداد كبيرة من الألمان أيضاً، غير أن الوضع على الجبهة بقي على حاله.

وشهد العام 1916 تخلي الأدميرالات على جانبي بحر الشمال عن الحذر الذي أظهروه منذ بداية الحرب، فقد انتظر البريطانيون عبثاً خروج أسطول أعالي البحار الألماني خارج الميناء فيدؤوا بتمهيد المسرح المعركة ترافلغار» جديدة، أو ما يسمى بالطرف الآخر، ذلك النصر البحري الحاسم الذي حققه الأسطول البريطاني في أعالي البحار ضد البحرية الفرنسية في أكتوبر من العام 1805، كما شعر الألمان بالقدر عينه من خيبة الأمل لأن الأسطول البريطاني الكبير أطبق حصاره على الموانئ الألمانية من مسافة آمنة، ولم تنتج المناوشات التي حدثت في بحر الشمال سوى حالة من الجمود المحبط كما أظهر قادة القوات البحرية احتراماً كاملاً لإمكانات الأسلحة مثل حقول الألغام الحديثة والطوربيدات التي تطلق من الغواصات وتسببت المواجهة بين الأسطولين الكبيرين في معركة «جوتلاند» في أواخر مايو بخسائر أفدح في صفوف البريطانيين، بيد أنه كان حدثاً فريداً، ليس له نظير في أي مرحلة أخرى من الحرب، إذ ترك قيادة سطح المحيط في أيدي القوات البريطانية.

وقد أصبح اليأس الذي أصاب كلا الطرفين أكثر وضوحاً في عام 1917، إذ بدأ الفرنسيون هجوماً ضخماً ضد الألمان في «شمبانيا»، مدفوعاً بتفاؤل قائد جيشهم الجديد الجنرال جورج نيفيل. إلا أن انهيار الهجوم الذي شنه في مواجهة المقاومة الألمانية شديدة الصلابة والدربة دفع الكثيرين في الجيش الفرنسي للتمرد. وغدت القوات الفرنسية أولى القوات ولكن ليست الأخيرة على الجبهة الغربية التي تشهد انهيار روح القتال والنظام. وقد استرد القائد الجديد فيليب بيتان النظام للجيش مرة أخرى، ولكن على حساب وقف الهجمات الدامية التي كانت الأمل الوحيد لتحقيق نصر سريع.

وقام الألمان أيضاً بخطوات يائسة أملاً في تحقيق نجاح سريع، فقد بدت الغواصات، ذلك السلاح الجديد الذي يستخدم للمرة الأولى في الحرب العالمية الأولى، الأداة التي ستحقق النصر في البحر، حيث استطاعت غواصات الأسطول الألماني، كما كان مأمولاً، أن تحقق النصر الوطني الذي فشل الجيش في تحقيقه من خلال قطع إمدادات الغذاء عن بريطانيا، التي كان معظمها مستورداً وتواصل هجوم الغواصات بطريقة مشؤومة طوال فترة الحرب.

ولكن وبحلول نهاية عام 1917 أظهرت تلك الغواصات أنها لن تنجح في تحقيق النصر المنشود، إلا أن خسائر قوات التحالف كانت سهلة التدبر ولا زالت سفن الإمدادات الحيوية قادرة على عبور المحيط الأطلسي. حيث هزمت المجموعة المتنوعة من التدابير الجديدة أو المقيتة استخدام القوافل البحرية على الرغم من معارضة قادة البحرية ذوي العقول العدوانية، وإجراءات تقنين الطعام على

الرغم من المشقة التي فرضتها على الكثير من السكان اندفاع ألمانيا إلى الأمام. وكانت كلفة الجهد الألماني تهدف إلى جر الولايات المتحدة إلى دخول الحرب. حيث كانت حكومة وودرو ويلسون قد أعلنت قبل عامين أنها لن تسمح بحرب غواصات مفتوحة النطاق من قبل ألمانيا. وفي الوقت نفسه، واصل البريطانيون هجومهم المتفائل لاختراق الخطوط الألمانية وبالتالي شق الطريق نحو النصر. فقد بدأ هجوم جديد هذه المرة حول مدينة إيبر الواقعة شمال غرب بلجيكا في طقس الصيف الجاف، وامتد حتى أمطار الخريف. وبسبب الأراضي المنخفضة التي تحولت إلى بحر من الطين، عانى البريطانيون من أسوأ الخسائر خلال الحرب في معركة إيبر الثالثة (التي عرفت باسم معركة باشنديل).

وذلك للاستيلاء على أجزاء ضئيلة من الأرض وبدأت السنة الأخيرة من الحرب بهجوم ألماني ضخم وجه خلاله الألمان بقيادة بول فون هندينبرغ وإريك ويدندورف سلسلة من الضربات القوية على طول الجبهة الغربية، آملين إلحاق الهزيمة بالفرنسيين والبريطانيين قبل وصول القوات الأمريكية الضخمة. وزحف الألمان قدماً معطلين كامل الجيش البريطاني الميداني في هذه العملية.

ولكن في نهاية المطاف، صمدت خطوط قوات التحالف أمام هذا الهجوم الضاري وبحلول نهاية الصيف، بدأت معنويات الجيش الألماني في التصدع. فقد تحركت القوات الأمريكية الضخمة غير المدربة بصعوبة إلى الأمام نحو قطاع ميوز- آرجون حول مدينة فردان في شمال شرق فرنسا، في حين قاد الفرنسيون والبريطانيون بشكل خاص الهجمات الكاسحة التي أجبرت الألمان على التقهقر إلى حدودهم، ومع اقتراب قوات الحلفاء من الحدود الألمانية أفضى اليأس الألماني إلى نتائج سياسية وعسكرية بالغة الأهمية.

ودعا ويدندورف الشخصية الرئيسية في القيادة الألمانية العليا، القيادة السياسية في بلده إلى التوصل إلى هدنة وتحت ضغط من الرئيس الأمريكي ويلسون، وقبل الهدنة تحرك الألمان لإنشاء نظام برلماني أقرب إلى النظام المعمول به في بريطانيا العظمى، غير أن الأحداث تجاوزت أية نية. أمر الأدميرالات الألمان، الذين كانوا يسعون إلى معركة بحرية أخيرة في بحر الشمال أسطول أعالي البحار بالإعداد لهجوم نهائي، ولكن البحارة المنهكين ثاروا ضد ضباطهم وأوصلوا رسالة التمرد إلى جموع السكان الألمان. وعندما سافر الوفد الألماني الذي سيفاوض على الهدنة، لمقابلة ممثلي دول التحالف في مدينة كوميون الفرنسية في الأسبوع الأول من نوفمبر، غصت ألمانيا بالثورة. وتنازل القيصر فيلهلم الثاني عن العرش على مضض، وتشكلت الجمهورية المؤقتة، كما جهز القادة المتطرفون من أمثال كارل

ليبكنخت للانتقال بالثورة إلى مرحلة أكثر شمولاً ، فقد تصوروا أن التغيير لن يتوقف عند هذه المرحلة من جمهورية الطبقة المتوسطة، وبدلاً من ذلك يجب أن تتحول إلى حكومة عمال ثورية مشابهة لتلك التي قبلها الروس في نوفمبر من العام المنصرم.

دخلت دولتان من الدول المتحاربة على الجبهة الغربية هما ألمانيا وفرنسا الحرب بجيوش كبيرة مدرّبة. وذلك لأنهما كانتا تعملان بنظام التجنيد الإجباري الذي سمح بدفع أعداد كبيرة من الجند إلى الخدمة العسكرية سنوياً، وإضافة إلى تعبئة الجيش بالقوات النظامية وبالملتحقين حديثاً بالخدمة، سمح النظام العسكري في كلتا الدولتين بوضع الشبان الذين أنهوا الخدمة العسكرية في وحدات الاحتياط، وكان جنود الاحتياط يعودون إلى الخدمة الفعلية لفترة محددة كل عام، وكانوا على أهبة الاستعداد والجاهزية للالتحاق بالجيش النظامي في حالة حدوث أي طارئ وطني. لذا ممكنت هاتان الدولتان من الدفع علايين الجنود المقاتلين والمدربين إلى حد ما إلى جبهات القتال في غضون أسابيع قليلة من إعلان الحرب.

وفي عام 1914 وضعت خطط مدروسة ومفصلة بُنيت على أساس توسيع خطوط السكك الحديدية في كل من ألمانيا وفرنسا، جنود الاحتياط في مواقعهم، وربطتهم بوحدات الجنود النظاميين، ومن ثم نقلتهم إلى جبهة القتال بسرعة فائقة، وفي الوقت نفسه اندفع المتطوعون المتحمسون نحو القوات المسلحة في كلتا الدولتين. ومع استمرار القتال تواصل العمل بنظام الخدمة الإلزامية القائم، وكان مرور كل عام الدول المتحاربة على هذه الجبهة شملت دول الحلفاء بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية ودول المحور، ألمانيا والنمسا – المجر وتركيا.

أما في بريطانيا، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية فالبريطانيون كان لديهم جيش صغير من المتطوعين جنباً إلى جنب مع عدد كبير من متطوعي البحرية ولم يكن لدى بريطانيا منهج موطد لزيادة عديد القوات العسكرية بصورة جوهرية. ولم توفّر القوة العسكرية الإقليمية البريطانية وهي نسخة طبق الأصل من الحرس الوطني الأمريكي إضافة إلى قوات الجيش الصغيرة وقوات الاحتياط البحري، إلا دعماً محدوداً للجيش النظامي، بيد أن بريطانيا أطلقت بصورة فورية جهداً هائلاً لحشد عدد كبير من المتطوعين لتشكيل جيش جديد ومع استمرار الحرب، أنتج الجدل بشأن اللجوء إلى نظام الخدمة الإلزامية – أسوة بالنظام المعمول به في الدول الأوروبية المجاورة منذ زمن طويل – مشروع مسودة قانون في عام 1916.

كما اختلفت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً عن بقية الدول الكبرى في القارة الأوروبية. فالقوات المسلحة الأمريكية تكونت أساساً من أسطول بحري كبير وجيش صغير. وكان الجنود الذين يتمتعون بالتدريب المتقدم والجاهزية القتالية، جزءاً من قوات مشاة البحرية الصغيرة (المارينز) والتي لم يتجاوز قوامها ستة عشر ألف مقاتل وبعد وقت قصير من دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، استطاعت الحكومة تطبيق نظام الخدمة الإلزامية في جميع أرجاء البلاد وبقليل من الإعداد، أو دونما أي إعداد مسبق شرعت في إنشاء جيش يتكون من ملايين الجنود الجيش الألماني.

الجيش الألمانى

أمضى جنود الجيش النظامي الألماني وقوات الاحتياط الجاهزة، الذين دخلوا في أغسطس من عام 1914، فترة من التدريب التكتيكي في وقت السلم كجنود. وكان الجيش النظامي في تلك الفترة المكون من زهاء ثمانمائة ألف مقاتل يضم فرقاً عسكرية من المجندين الذين تم استدعاؤهم للخدمة في خريف 1912 و1913 و دعموا بشكل من الجنود المرغوب فيهم من الناحية البدنية والسياسية. ففي عام 1911 انحدر أكثر من 65% من المجندين من مناطق ريفية على الرغم من أ أن أكثر نصف سكان ألمانيا يقطنون في المدن، إلا أن 13 فقط من المجندين جاءوا من المدن الكبيرة أو المتوسطة الحجم. ففي تلك المدن كانت هناك مجموعات يُعتبر ولاؤها موضع شك واضح من قبل الحكومة مثل الاتحادات العمالية والحزب الديمقراطي الاشتراكي. كان جميع جنود الاحتياط من المخضرمين بعد أن أمضوا عامين من الخدمة الفعلية عندما تم استدعاؤهم في عامهم العشرين وكذلك خضع سلاح الفرسان السابق للخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات. وتم توزيع هؤلاء جميعاً على الثكنات العسكرية وباشروا مهماتهم الجديدة كجنود في القوات المسلحة وقد عمل الرقباء الدائمون الذين مضى عليهم في الخدمة العسكرية الفعلية اثنا عشر عاماً، على إعداد الجنود ذهنياً وبدنياً ن الأهداف عسكرية.

وخلال ستة أشهر من خدمتهم تلقى الجنود التدرب التقليدي الابتدائي: المشية العسكرية المنضبطة والرماية والعناية ببنادقهم والتدريب على السير الطليق والمناورات. وتبع ذلك فترة من الخدمة الفعلية ومن ثم العودة مرة أخرى إلى الحياة المدنية. وأسفرت تعبئة هذا العدد من جنود الاحتياط عن تشكيل قوة عسكرية قوامها 29 مليون جندي في أغسطس 1914 وعلى الرغم من وجود نحو سريع بجنود احتياط منتظمين من الفرق العسكرية التي استدعيت للخدمة في الفترة من عام 1907 إلى 1911. وأضيف إلى تلك المجموعة جنود الاحتياط القدامى من مؤسسة الحرس

الوطني Landwehr الذين تمتد أعمارهم حتى سن التاسعة والثلاثين كما أتاح عدد سكان ألمانيا الكبير نسبياً للحكومة بأن تختار للخدمة العسكرية.

كما أتاح عدد سكان ألمانيا الكبير نسبياً للحكومة بأن تختار للخدمة العسكرية الجنود المرغوب فيهم من الناحية البدنية والسياسية، ففي عام 1911 انحدر أكثر من 65% من المجندين من مناطق ريفية، على الرغم من أن أكثر من نصف سكان ألمانيا يقطنون في المدن، إلا أن 13 فقط من المجندين جاءوا من المدن الكبيرة أو المتوسطة الحجم. ففي تلك المدن كانت هناك مجموعات يُعتبر ولاؤها موضع شك واضح من قبل الحكومة مثل الاتحادات العمالية والحزب الديمقراطي الاشتراكي

كان جميع جنود الاحتياط من المخضرمين بعد أن أمضوا عامين من الخدمة الفعلية عندما تم استدعاؤهم في عامهم العشرين وكذلك خضع سلاح الفرسان السابق للخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات. وتم توزيع هؤلاء جميعاً على الثكنات العسكرية وباشروا مهماتهم الجديدة كجنود في القوات المسلحة وقد عمل الرقباء الدائمون الذين مضى عليهم في الخدمة العسكرية الفعلية اثنا عشر عاماً، على إعداد الجنود ذهنياً وبدنياً ن الأهداف عسكرية. وخلال ستة أشهر من خدمتهم تلقى الجنود التدرب التقليدي الابتدائي: المشية العسكرية المنضبطة والرماية والعناية ببنادقهم والتدريب على السير الطليق والمناورات. وتبع ذلك فترة من الخدمة الفعلية ومن ثم العودة مرة أخرى إلى الحياة المدنية. وأسفرت تعبئة هذا العدد من جنود الاحتياط عن تشكيل قوة عسكرية قوامها 29 مليون جندي في أغسطس 1914.

وعلى الرغم من وجود شكل من أشكال التذمر والرفض لهذا الاستدعاء الإلزامي وخاصة في المناطق الريفية التي يمثل فيها المحاصيل أولوية عليا، إلا أن عدداً قليلاً جداً من جنود الاحتياط لم يمتثلوا للخدمة العسكرية. وفي مجتمع كالمجتمع الألماني يحتفى فيه بالقيم العسكرية، قبل معظم الشبان الألمان الالتزام بالخدمة العسكرية برباطة جأش؛ فالالتحاق بوحدات عسكرية معينة كان مرتبطاً بمناطق جغرافية محددة، وعند التحاق مجموعة من فئة عمرية بالكامل من منطقة نحو جني معينة بالجيش في وقت واحد فإن ذلك يُعتبر مناسبة للاحتفالات المحلية. كما كان من الممكن أيضا للمتطوع في الجيش الألماني أن يختار الوحدة العسكرية التي يريد أن يخدم بها، بما في ذلك الوحدة التي كان والده أو أخوه الأكبر قد خدم فيها. وكان متاحاً للشباب المتعلم بعد عام من خدمته في القوات المسلحة نيل رتبة ضابط احتياط، مع ما يرافقها من مكانة مميزة في المجتمع الألماني. ولكن حتى بالنسبة إلى جموع المجندين المنحدرين من مراكز اجتماعية أقل تميّزاً كان يحتفى بإتمامهم الخدمة العسكرية على اعتبار أنهم يدخلون مرحلة جديدة في حياتهم. وقد هدفت

الجرعة الثقيلة من التدريب على المشية العسكرية المنضبطة التي تلقاها المجندون إلى خلق ما يسمّى بـ الطاعة العمياء الضرورية للاستجابة الصحيحة تجاه الأوامر تحت وطأة القتال، ولم يتطلب خلق رماة مهرة من المجندين الذين يخدمون لمدة عامين أو ثلاثة أي جهد يذكر، وكانت المقدرة على إطلاق النار الكثيف بشكل مركز ومسيطر عليه في ظروف المعركة كافية.

ومن ناحية أخرى، ركز التدريب الألماني على اللجوء للعدوانية في أوقات الخطر: وكان يُتوقع من جنود المشاة المسلحين بالحزم الداخلي بحسب تعبير قوانين الانضباط لعام 1906، أن يتابعوا السير قدماً حتى في وجه نيران العدو. وعكست كتيبات التدريب الألماني قدرة هائلة للجنود على استخدام الأسلحة الحديثة بوعي كامل، ولكنها تطلبت من الجنود المدربين تدريباً جيداً أن يتغلبوا على مخاوفهم ويؤدوا أدوارهم في مهاجمة العدو وكان معظم الجنود الألمان الذين ذهبوا إلى الحرب في أغسطس من عام 1914 في منتصف العشرينات من أعمارهم ولم تشهد إلا قلة قليلة من قادتهم الأكبر سناً الحرب الفرنسية – البروسية التي وقعت بين 1870 و 1871. وشاركت مجموعة أكبر، غير أنها تبقى محدودة في الحملات الاستعمارية ضد السكان المحليين في المستعمرات الألمانية في أفريقيا. لذلك لم يكن من مثيل الجموع المحاربين المخضرمين ضمن القوات.

نشبت عام 1870 بين فرنسا وبروسيا وسرعان ما دخلت ألمانيا الحرب إلى جانب بروسيا وانتهت في عام 1871 بانتصار ساحق للألمان أدى إلى توقيع معاهدة فرانكفورت وسقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

ومع ذلك، فإن الجندي الألماني العادي في عام 1914 واعتيم نفسه جزءاً لا يتجزأ من مؤسسة تُجسد كلاً من الاستقامة والثقة والكفاءة المهنية الواضحة كما منح التدريب الألماني ضباط الصف والجنود إعداداً نفسياً ومهنياً أهلهم للاستمرار والصمود في ساحة المعركة الحديثة، إذ خدموا في جيش أحج حماستهم على الأقل بالتظاهر بمعرفة ما يحدث في ساحة المعركة، وبسبب فداحة الإصابات التي ألمت بالجيش الألماني وكثرتها، التحق جموع الرجال شباباً وشيباً بالخدمة العسكرية. وعلى نحو مشابه أخذ سلك الضباط مختلفاً قبل الحرب، حتم النمو الطبيعي للجيش على القيادة إتاحة الفرصة لقيادات من الطبقة المتوسطة بدلاً من الطبقة الأرستقراطية التي كانت تسيطر على قيادة الجيش. وتواصلت تلك العملية، ومن أجل إيجاد مصدر إضافي من قادة المعركة اضطلع ضباط الصف من المتقاعدين بدرجة متزايدة من المسؤولية.

وكان المجند الألماني الذي يستدعى للخدمة العسكرية أثناء الحرب يتعرف الحياة العسكرية على أساس انتمائه إلى فوج وهناك يأتي مدربوه من مصدرين، فهم إما ضباط ورقباء أصيبوا في المعارك وكانوا يتماثلون للشفاء، وإما كادر التدريب المؤلف من الجنود المخضرمين كبار السن الذين تم استدعاؤهم لمثل هذه المهمات. وطبقاً لكتيبات ما قبل الحرب، فإن الاستعداد لمواجهة محنة الخنادق لم يتجاوز أبعد من المشية العسكرية المنضبطة وتدريبات الالتحام بالسلاح الأبيض والمناورات الأولية ووجدت الوحدات العسكرية الألمانية المتواجدة على الجبهة الأمامية لخط النار نفسها مضطرة للقيام بتدريباتها الخاصة. ومن أجل إيجاد بدائل جديدة لحقائق حرب الخنادق أنشئت مراكز تجنيد للفرق العسكرية في ألمانيا وكان المدربون في هذه المعسكرات من المخضرمين الجدد في القتال إلا أن التدريب في هذه المراكز عانى من نقص المساحات اللازمة لمحاكاة نظام قتال الخنادق الموجود على الجبهة الغربية لخط النار وقد وصف الصحفي الهولندي بوفور أجواء إحدى ثكنات التدريب التي زارها في مدينة ميونخ عام 1916 حيث تبين له أنه وبعد ستة أسابيع من التدريب، كان المجندون ينفذون كل حركة بدقة آلية متناهية في كل أعمالهم، وللتجاوب مع أوامر ضباطهم كانوا يصرخون كأنهم يخاطبون من قبل رجل يبعد عنهم مسافة نصف ميل، وعندما سأل دي بوفور الضابط المرافق له داخل الثكنات عن السبب، أجابه بأن مثل هذه الممارسة تعلم المجندين درجة من التأهب العسكري؛ فالكثير من المجندين عندما يصلون إلى مراكز التدريب يكونون مدللين يتكلمون بنعومة وبطء ويخافون عند مخاطبتهم». وصرّح الضابط الألماني أنه بعد أسبوعين من التدريب، بما في ذلك الصراخ عند الاستجابة للأوامر، تغير سلوك المجندين وطرائق تفكيرهم.

الجيش الفرنسي

الجيش الفرنسي وعلى نحو مماثل، أمضى المجندون الفرنسيون، بداية من سن الثامنة عشرة إلى العشرين سنتين أو أكثر في الثكنات غير أن الاستدعاء السنوي للخدمة العسكرية لم يفرز أجواء ابتهاجية مثلما كان الأمر في ألمانيا. وقد أشار أحد المؤرخين إلى أنه بالنسبة إلى الشبان الفرنسيين كانت الخدمة العسكرية الإجبارية في أحسن حالاتها ممثل إزعاجاً لهم، وفي أسوأ حالاتها كانت تعتبر عيناً على اقتصاد الأسرة. كما أن القوة البشرية الفرنسية القادرة على الخدمة العسكرية كانت قليلة نسبياً، ولم تحشد سوى زهاء مائتين وخمسين ألفاً إلى ثلاثمائة ألف مجند سنوياً، مما أجبر الحكومة على تمديد الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنوات اعتباراً من 1913، ولولا هذا التغيير، لما حصل الجيش النظامي الفرنسي على أكثر من خمسمائة وأربعين ألفا جندي فقط في مقابل ثمانمائة ألف مقاتل ألماني.

ففي بداية الحرب ضم الجيش الفرنسي المجندين الذين تم استدعاؤهم للخدمة في الأعوام 1911 و 1912 و 1913. وعلى الفور التحق بهم جنود الاحتياط الذين خدموا ما بين عامي 1896 و 1910 وفي نهاية العام تم الإتيان بمجندي العام 1914 الجدد إلى الجيش، كما حمل احتياطيو الأعوام 1892 حتى 1895 السلاح على حد سواء. وكان المجندون وجنود الاحتياط على حد سواء ينفذون أوامر الرقباء ويسيرون في مسيرات عسكرية لأميال طويلة ويقومون بتنظيف بنادقهم مراراً وتكراراً، ومن وجهة نظر معظم المراقبين، كان الجيش الفرنسي أقل نجاعة من الجيش الألماني في إزالة وجهة نظر معظم المراقبين، كان الجيش الفرنسي أقل نجاعة من الجيش الألماني في إزالة التوجهات المدنية من عقول المجندين. فالهزيمة التي تلقتها فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية عامي 1870 و 1871 ما زالت ماثلة في ذاكرة الفرنسيين. وعلاوة على ذلك فإن قضية دريفوس ذلك الضابط اليهودي الذي اتهمه مرؤوسوه ظلماً بالخيانة العظمى، جعلت العديد ينظرون إلى الجيش الفرنسي على أنه جيش متعصب وفاسد ولا يؤمن بالنظام الجمهوري. فقد تمرد جنود سلاح المشاة الفرنسي على الأوامر عام 1906 بدلاً من قمع تمرد منتجي النبيذ، كما أن الاستدعاء السنوي للخدمة العسكرية الذي تلا ذلك العام شهد هروب ستة وثلاثين مجنداً من أصل كل مائة مجند.

وكان لغياب مفهوم الولاء والطاعة العمياء للأوامر ضمن الجيش الفرنسي، والذي يشكل فخر الألمان أثر واضح في الاضطرابات التي حدثت في عشرين حامية للجيش الفرنسي عام 1913. فقد وقعت تلك الاضطرابات عندما تمي إلى علم الجنود أن الخدمة الإلزامية سوف تمدد إلى ثلاث سنوات بدلاً من سنتين، ومع ذلك، عندما تم استدعاؤهم من الحياة المدنية في العام 1914 فإن 1,3 من احتياطي فرنسا بدلاً من النسبة المتوقعة 13 – لم يلتحقوا بوحداتهم وفي نهاية المطاف أدى 7,8 مليون فرنسي الخدمة العسكرية في زمن الحرب، وشكل هذا ما يقارب خمس العدد الإجمالي للسكان .

وقد شدّد قانون السنوات الثلاث الصادر في عام 1913 على أن يقضي المجندون عامهم الأول في تدريبات عسكرية تحت إشراف مكتف وكان يتوقع منهم كجنود في القوات المسلحة» أن يتقنوا آليات الحركة فحسب. وفي عامهم الثاني، فإنهم مطالبون بالتدرب على القتال وعلى تعلم المهمات الخاصة التي قد يكلف بها الجندي في ميدان المعركة». وفي العام الثالث الذي أضيف حديثاً للخدمة كان متوقعاً أن ينال عدد من المجندين رتبة عريف أو رقيب في الجيش، وشدّد هذا التدريب الفرنسي النقيب الفريد دريفوس، ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي من أصل يهودي، حكم

عليه بالمؤبد بتهمة تسليم أسرار عسكرية عن الجيش الفرنسي للسفارة الألمانية في باريس ولكن بعد عامين ظهرت براءته.

- قانون تمديد الخدمة العسكرية من عامين إلى ثلاثة أعوام.

قبل الحرب على القيام بالأعمال الهجومية ضد مواقع العدو في جميع الظروف. فقد أظهرت صورة فوتوغرافية التقطت للمناورات عام 1913 مشهداً مماثلاً للوحة ظهرت عام 1877 الجنود يقاتلون في المناطق الريفية المفتوحة ويطاردون أعداءهم فوق سفوح التلال حاملين البنادق ذات الحراب، بتشجيع من ضباط الفرسان». وفي حين شددت تعاليم التدريب على دور كتيبة المشاة في الحرب، فقد قللت من أهمية سلاح المدفعية شأن التكتيكات العسكرية الدفاعية. ووفقاً للقواعد التكتيكية التي أقرت في أبريل 1914، فإن الهجوم اللازم لتحقيق النصر لا يمكن تحقيقه إلا ببذل طاقة جسدية ومعنوية هائلة مع التضحية بالدم، ومما لا شك فيه أن كل هذه التدريبات أهلت الجنود الفرنسيين للحرب ولكن وفقاً لمجريات الأحداث اللاحقة، ليس للحرب العالمية الأولى.

الجيش البريطاني

كان الجيش البريطاني أصغر جيش بين القوى الأوروبية العظمى، وكانت الدولة تستخدم هذا الجيش الذي كان يحتمي خلف قوة بحرية هائلة، في المقام الأول للدفاع عن إمبراطورية عالمية. وكان مجموع قوام هذا الجيش تقريباً اثني عشر ألفاً وثمانمائة ضابط بالإضافة إلى مائتين وثلاثين ألف مجند ، غير أن هذه القوة الصغيرة كانت تمتلك أفضل المهارات العسكرية على الساحة الأوروبية. ففيالق الضباط كانت تضم صفوة المجتمع البريطاني: أبناء النبلاء وملاك الأراضي وأنجال العائلات العسكرية التقليدية ونسل الرجال المهنيين الطموحين وعلى الرغم من أن المجندين كانوا من طبقات غير ماهرة وعاطلة عن العمل، إلا أنهم تلقوا تدريباً متقدماً. فالغالبية العظمي وقعت على عقد للخدمة لمدة سبع سنوات جنود سلاح المدفعية خدمو ا لمدة ست أو سبع سنوات)، وتلقوا خلالها تدريبات بدنية قاسية وتدريبات على المشية العسكرية المنضبطة ومسيرات عسكرية مكثفة. وأظهر هؤلاء الجنود كفاءة عسكرية واضحة في ميدان الرماية. فالجندي البريطاني العادي في كتيبة الرماة الذي كان يتلقى علاوة تشجيعية على مهارته في استخدام سلاحه كان قادراً على إطلاق 15 طلقة بدقة متناهية على هدف يبعد ثلاثمائة باردة خلال دقيقة واحدة. أما الرماة المهرة فكان باستطاعتهم إطلاق 30 طلقة من مثل هذه الطلقات.

وكانت الكتيبة البريطانية النموذجية العاملة في الهند تقوم بالمسيرة العسكرية السنوية القاسية في كل ربيع لمسافة مائتي ميل من السهول الحارة إلى المناطق الأكثر برودة، مناطق الجبال الوعرة. وهناك خضعت تلك الكتيبة لتدريبات مكثفة من المناوشات والمناورات والربط الداخلي بين الوحدات كما تدرب الضباط والرجال والخيول العاملة في وحدات المدفعية البريطانية على تركيب بطارية مدفع رشاش بست فوهات خلال ثلاث دقائق فكان المدفع يُنصب ويطلق منه النار قبل أن تتمكن وحدة العدو في خط المواجهة من الرد. وأسفرت التحسينات التي طرأت على الجيش في العقد السابق لعام 1914 عن مجموعة كبيرة من المدنيين المدربين – الجيش الإقليمي – قادرة على دعم الجنود النظاميين. فهذه القوة العسكرية كانت عبارة عن دمج للوحدات المجمعة محلياً محاكية في ذلك الحرس الوطني الأمريكي، إذ تدرب جنودها الوطنيون، البالغ عددهم زهاء مائتين وخمسين ألف ضابط وجندي في بداية الحرب (16)، عدة مرات أسبوعياً وحضروا المعسكر الصيفي السنوي الذي كان يقام لمدة أسبوعين من أجل إجراء المناورات. وعلى الرغم من هذه الإضافات في عدد الجنود، إلا أن عدد الجيش البريطاني لم يتناسب مع عدد القوات المسلحة الفرنسية والألمانية الضخمة.

جيش الولايات المتحدة الأمريكية

تكونت القوات المسلحة في الولايات المتحدة، مثل نظيرتها البريطانية، من قوة بحرية كبيرة وجيش صغير. وقد دفعت الأزمة التي حدثت مع المكسيك في عام 1916 الحكومة إلى إعلان حالة التعبئة في الحرس الوطني، وكانت النتيجة وجود مصدر من القوة البشرية المدربة التي يمكن مضاعفة حجمها بسرعة معقولة، وبلغ مجموع قوام الجيش النظامي عندما دخلت البلاد إلى حلبة الصراع زهاء 127 ألف ضابط ومقاتل وأضاف الحرس الوطني 180 ألفاً أو نحو ذلك إلى جمع الرجال المدربين. وكان معظم هؤلاء الجنود الوطنيين لديهم خبرة الخدمة على الحدود المكسيكية ، وقد أثار دخول الولايات المتحدة الحرب موجة من التطوع مشابهة لتلك التي حدثت في ألمانيا وبريطانيا في عام 1914 آنذاك كان ويليام لانغر الذي أصبح فيما بعد مؤرخاً أمريكياً متميزاً، معلماً شاباً في إحدى المدارس الإعدادية، عندما استجاب ميناء فرنسي أسس في القرون الوسطى يطل على مدينة مونتريال.

الإعلان صحفي يدعو إلى التطوع في وحدة المهندسين في الجيش الأمريكي. ولكن التقلبات في مهام الجيش وضعته في السرية لفوج الغاز الأول، وهي القوة التي تشكلت بالكامل من المتطوعين: «عدد كبير من المنقولين من الجيش النظامي والعديد من خريجي الجامعات وكبار السن والفتيان الصغار والميكانيكيين والباعة، وأشار

لانغر إلى أن الآلاف من أمثاله التحقوا بالجيش دون تجنيد على الرغم من الروايات الحقيقية والتفصيلية عن القتال الدامي في السوم) وحول فردان ناهيك عن المعاناة اليومية في حرب الخنادق وعزا ذلك إلى مجموعة من العوامل. وعلى الرغم من أن هذه العوامل شملت الغضب من ألمانيا الإمبراطورية، إلا أن روح المغامرة لعبت دوراً كبيراً، ووصف لانغر الوضع قائلاً: «كانت هنا فرصتنا العظيمة للمتعة والمخاطرة قبل الاستقرار والعودة مرة أخرى إلى روتين الحياة اليومية الآمن والهادئ.

ومع ذلك، قررت الحكومة أن نظام التجنيد الإلزامي فقط هو الوحيد القادر على زيادة عدد الجيش بشكل يفي بالحاجات القتالية في أوروبا، ويذكر أن السلطات الفدرالية تجنبت المخاطرة باللجوء إلى التجنيد الإلزامي إبان الحرب الأهلية. ولكن هذه المرة، تولى مسؤولون محليون المهمة، ولم يُسمح لأحد باستئجار متطوع ليخدم بدلاً منه، واستمر المتطوعون أمثال ويليام لانغر بتوقيع عقود الخدمة، ولكن تدريجياً تم تقنين التطوع إلى أن أغلق كلياً في أغسطس وسبتمبر 1918، وبدا التجنيد بالنسبة إلى السلطات العسكرية طريقة أكثر كفاءة في توفير الجنود الجدد، وفي الوقت نفسه لا يحرم البلاد من الرجال اللازمين لشغل المهن المدنية الضرورية، وأبلغ جميع الذين استدعوا للخدمة العسكرية بأن خدماتهم مطلوبة طوال فترة الحرب. ووفر هذا المخطط مليونين وسبعمائة وخمسين رجلاً، أي زهاء ثلث العدد الإجمالي ممن خدموا فى القوات المسلحة.

مؤتمر فرساى 1919.

وبعدما وضعت الحرب أوزارها , تم اختيار فرنسا مقراً لمؤتمر الصلح اعترافاً بالدور الكبير الذي قامت به في الحرب , لاسيما مالحق بها من أضرار جسيمة على أيدى الألمان في بداية الحرب وشارك في المؤتمر مندوبون عن 27 دولة ولم يدع مندوب عن الاتحاد السوفييتي الأسبق , كما لم يدع إلى المؤتمر مندوبون عن الدول المهزومة في الحرب بل كان عليها توقع على الوثائق بعد اعدادها , لان السلام فرض فرضاً ولم يكن نتيجة مفاوضات وكان لكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية دوراً أساسيا في وضع قرارات مؤتمر الصلح .

عرف ممثلوا هذه الدول الثلاث باسم (الثلاثة الكبار) , أما ممثل اليابان فقد كان دوره ثانوياً في المؤتمر , كما أن ممثل ايطاليا انسحب من المؤتمر بعد وقت قصير احتجاجاعلى تجاهل الثلاثة الكبار بعض المطالب الايطالية وترأس الوفد الأمريكي رئيس الولايات المتحدة (ولسن) (١٨٥٦-١٩٢٤أما الوفد الفرنسي فترأسه رئيس وزرائه (جورج كليمنصو) (١٨٤١-١٩٢٩) في حين قاد الوفد البريطاني

رئيس وزرائها (دافيد لويد جورج) (١٨٦٣-١٩٤٥). وقد عكست قرارات المؤتمر في النهاية وجهات نظر ومصالح الدول الكبرى .

بيد أن ما يهمنا هنا هي مقررات مؤتمر الصلح التي خصت الإمبراطورية الألمانية , وكيفية ترسيم

حدودها وقطع وإعادة (الالزاس واللورين) إلى فرنسا, مضاف الى انتزاع كافة مستعمراتها وامتيازاتها فيما وراء البحار في قارتي افريقيا واسيا , وحلت اليابان محلها في الشرق الأقصى , فانتدبت على جزر (مارشال) , وتفوقت في الصين على حساب ألمانيا , وحصلت فرنسا على جزء من الكاميرون .

جاءت الدول المنتصرة في الحرب الى مؤتمر السلم لتحل مشكلات معينة , والسلم لم يكن اقل خطورة من الحرب ، فهي لم تتناول تلك المشاكل , كما هي حقيقة وتقضي على أسباب الحرب لجعل قيمة الجهود والدماء التى حرقت بين 1914 و ١٩١٨ لاتذهب سدى.

وكان من الواضح الجلي ان تنظيم السلم سيكون بيد الدول الغالبة , فالنمسا والمجر تلاشت من الخريطة الأوربية والامبراطورية العثمانية تهدمت , وبلغاريا سحقت , وألمانيا رمت السلاح وكانت تمر في مخاض ثورة اشتراكية وتتمنى لو قنع الحلفاء بتطبيق مبادئ الرئيس الأمريكي (ولسن) "الأربعة عشر" , وكان من الواضح ان الكلمة النهائية للدول الكبرى , ريط انيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان ، والصغار من الحلفاء لم يتكلموا ويقترحوا ويتفرجوا فقط.

اجتمع في باريس في ١٨ يناير ١٩١٩ ، خبراء يمثلون اثنتين وثلاثين دولة من الدول المنتصرة , لوضع الخطط الرامية إلى إصلاح عالم حطمته الحرب , وذلك بوضع خارطة جديدة للعالم والقضاء على الاضطرابات الاقليمية والمشكلة التي تواجه المؤتمر هي إقرار السلام في العالم، مع وجود التباين فى تخطيط الحدود حسب الحاجات الاستراتيجية والآلام التي احدثتها الحرب , والتهديد البلشفي والرغبة في فرض التعويضات على المغلوبين , ولم تمثل في جلسات المؤتمر كل من ألمانيا والنمسا و الدولة العثمانية وبلغاريا.

افتتح مؤتمر الصلح رسمياً في باريس , وحضره سبعون مندوبا ولم تنظم ألمانيا إلى هذا المؤتمر إلا بعد أن صارت الشروط معدة للتوقيع , ثم استجاب الحلفاء في ٥ تشرين الثاني١٩١٨ لطلب ألمانيا بعقد صلح على أساس مبادئ ولسن الأربعة عشر , ولكن المبادئ لم تلبث ان ضاعت في خضم الصراع بين الآراءالمتناقضة والمصالح المتضاربة.

استُقبل الرئيس (ولسن) استقبالاً حماسياً عندما وصل أوربا , باعتباره ممثلاً للفكرة الجديدة المثالية في تنظيم العلاقات الدولية , وكان هدف ولسن أولاً هو ضمان الحصول على تأييد لفكرة تضمين معاهدة الصلح مشروعا لعصبة ، أما (لويد جورج) أكبر ممثلي بريطانيا العظمى يومئذ , فلم يكن مكترثاً في قليل أو كثير بعقد الصلح, وانما ارتبط ارتباطاً شديداً بالوعود التي قطعها على نفسه في الانتخابات البريطانية العامة التي جرت منذ زمن يسير , وتقضي بتقديم مجرمي الحرب للعدالة وأن تدفع ألمانيا تعويضات عنها ، أما رئيس وزراء فرنسا (كليمنصو) , فكان بدوره يمثل في جلاء رجل الدبلوماسية القديمة المصمم على الانتقام والمطالب بمصالح فرنسا , والشروط الكفيلة بحماية بلده , والى جانب ذلك ارتبطت كل من بريطانيا وفرنسا باتفاقاتهم مع ايطاليا وبشؤونها في الشرق الادنى , وأما روسيا فإنها لم تشترك في المؤتمر لأن الثورة البلشفية التي قامت بها فصلتها عن الحلفاء فناصبوها العداء وقاطعوها.

اتسم مشروع شروط الصلح بالنزاع العنيف بين أعضاء مجلس الأربعة , فأصر (كليمنصو) على نزع الضفة اليسرى (للراين) من ألمانيا , كما رغب في ضم حوض (السار) أيضاً لفرنسا , غير ان (ولسن) و (لويد جورج) عارضا هذه المطالب ,بيد انهما ايدا تحمل ألمانيا نفقات الحرب وبعد التغيير الذي حصل في ألمانيا , وبعد ان هرب قيصر ألمانيا وليم الثاني) إلى هولندا ارسلت الحكومة بعثة الهدنة برئاسة (ماتياس ارزبرجر) زعيم حزب الوسط , استهدفت الشروط التي قدمها الحلفاء جعل ألمانيا لا حول لها ولا قوة , والتأكد من تنفيذها لشروط الصلح.

اشترطت الهدنة الانسحاب الالماني المباشر من الأراضي المحتلة في الجبهة الغربية ومن جميع الأراضى غرب (الراين) , وان تحتلها قوات الحلفاء , والغاء معاهدات (برست ليتوفسك) و(بوخارست) , وانسحاب القوات الألمانية من رومانيا والنمسا والمجر وتركيا وروسيا , وتقوم أ لمانيا بتسليم (٥٠٠٠ قاطرة) ,) ٥٠٠٠ لورى) ,) ١٥٠ ٠٠٠ عربة نقل) وان تسلم أكثر من (١٦٠ غواصة) , وعدد كبير من السفن الحربية الأخرى للحلفاء , كان لابد لوفد ألمانيا ان يقبل وكان امد الهدنة ثلاثين يوم, ولكن تجددت لمدة أخرى حتى ابرام الصلح.

لقد ألقى عبء عقد سلام دائم على عاتق الأربعة المنتصرين : (لويد جورج) ,) كليمنصو) ,) ولسن) ,) واورلاند) , وتركت روسيا هذه الأمور الدولية في أعقاب الثورة الشيوعية . فكانت بريطانيا معنية بأمر هام بالنسبة لألمانيا , وهي لا تريد ان يؤدي الضغط على ألمانيا إلى ان تلقي بنفسها بين يدي روسيا البلشفية,

وكان على بريطانيا أن تمنع فرنسا من التمادي في دعواها من أنها تحتاج إلى عمق استراتيجي في داخل الأراضي الألمانية.

كانت وجهة نظر (لويد جورج) إزاء ألمانيا هي لابد من تقليم اظافرها , ولكن ليس للدرجة التي تصبح ألمانيا جثة هامدة , وهناك من يرى ان (لويد جورج) , كان متعقلاً في معاملته لألمانيا المهزومة , إذ قورنت شروطه التى أراد ان يفرضها عليها , وهي طلب التعويضات الباهظة والقضاء على قوة ألمانيا العسكرية والاقتصادية , حيث لا تستطيع ان تنهض مرة أخرى , وهي في نظر الشعب البريطاني هي التي جرت الكوارث الكبرى على العالم الأوربى بتحديها الدول

الكبرى وعلى رأسها بريطانيا.

ومن العوامل الجوهرية التي جعلت بريطانيا تنظر إلى ألمانيا نظرة أكثر اعتدالاً من نظرة فرنسا , وأكثر واقعية هى ان عواطف الشعب الجامحة بعد الانتصار كان من الممكن السيطرة عليها , بسبب تلاشي اكبر خطر كان يهدد بريطانيا, وهو استسلام الاسطول الالماني , بعكس الحال بالنسبة للجيش الالماني الذي كان خطراً مباشراً ودائماً على فرنسا , وكل ما حدث له انه ألقى السلاح , ومنع ألمانيا من الحصول على أسلحة هجومية , ومنعت من التهديد الإجبارى وتحديد , القوات المسلحة.

وجه المؤتمر اهتماماً خاصاً إلى معاهدة الصلح مع ألمانيا , ويعود ذلك إلى ثقل دورها في الحرب , وقد تم توقيع لمعاهدة في ٢٨يونيو ١٩١٩ و بعد ان عرضت بنودالمعاهدة على الوفد الالمانى اعترض الوفد بشدة على بنودها لانها لم تلتزم بشروط الاستسلام التي وقعت عليها المانيا ,فضلا عن استحالت تنفيذ كثير من نصوصها بيد انها لم يكن امامهم من سبيل سوى توقبعها وتم توقيع المعاهدة وعرفت باسم (معاهدة فرساي) , لأنها وقعت في قاعة المرايا بقصر فرساى.

عدد صفحات المعاهدة ٢٣٠ صفحة, ويمكن تلخيص ابرز مضامينها الى الأقسام التالية :

١ -القسم الأول : وتضمن ميثاق عصبة الأمم , وقد أدرج هذا الميثاق في مقدمة جميع المعاهدات, وكان ذلك بناء على إلحاح الرئيس الأمريكي , على ان ميثاق عصبة الأمم يجب ان يكون جزءاً لا يتجزأ من تسويات الصلح.

٢ -القسم الثاني : موضوع الحدود , نصت المعاهدة على إعادة (الالزاس واللورين) إلى فرنسا , كما حصلت فرنسا على مناجم الفحم في منطقة السار , التي تقرر ان

تعهد أدارتها لمدة خمس عشرة سنة الى لجنة خاصة تحت إشراف عصبة الأمم , وكان ذلك على سبيل التعويض عن الأضرار التى الحقها الجيش الألماني بالمناجم وان يجري استفتاء بعد انقضاء المدة المحددة حول بقاء سكانها مع الجاني الالماني او الانضمام الى فرنسا, أو البقاء تحت إشراف عصبة الأمم.

كما حصلت بلجيكا على ثلاث مدن مهمة هي (ايوبن) و(مالمدي) و(مورسن) , وتقرر إجراء تصويت في القسم الشمالي من (شلزوفيك) لتقرر الأغلبية الدنماركية مصيرها.

وتنازلت ألمانيا عن الجزءالأكبر من جهاته الشرقية فى (بوزن) و(بروسيا الغربية) إلى بولندا وإجراء استفتاء في (سيلزيا العليا) , واعتبار (دانزج) ولاية حرة داخل الاتحاد الكمركي البولندي , وأجراء استفتاء فى أجزاء (بروسيا الشرقية) لتقرر الانضمام إلى بولندا أو تبقى مع ألمانيا , والتخلى عن كافة المستعمرات الألمانية , وتنظيم شؤونها في ظل الوصايا لتشرف عليها عصبة الأمم وتتحمل ألمانيا وحدها مسؤولية الحرب بمقتضى المادة ٢٣١ ,كما تقرر السماح لها في الاحتفاظ بجيش لا يزيد على (١٠٠ ٠٠٠ رجل) , وتجريدها من المدافع الكبيرة , عدا كمية محدودة من المدافع الصغيرة وتحديد سفن الاسطول الألمانى بست سفن حربية فقط وعدم السماح لالمانيا بامتلاك غواصات او طائرات حربية ، نزع أسلحة حصون (هليجولاند) واحتلال الحلفاء بلاد (الراين) مدة خمسة عشر سنة , أو أكثر حسبما تقتضي الضرورة , وفتح قناة كييل للسفن الحربية والتجارية لجميع الدول , وتدويل انهار ألمانيا , ومحاكمة الامبراطور الألماني السابق و كذلك دفع الالمان التعويضات عن الخسائر التي أصابت المدنيين فى يالحرب وتقديم الحساب الختامى له عند ذلك في أول مارس سنة ١٩٢١ , والى ان يحين ذلك الوقت تدفع ألمانيا (خمسة بلايين) دولار وتدفع الباقي على ثلاثين عام ,والزمت ايضا بتسليم جميع سفنها التجارية التى تزيد حمولتها على (١٦٠٠ طن) , ونصف السفن التي تت- راوح حمولتها (٨٠٠ طن) وكذلك أسطول الصيد , وتتحمل ألمانيا نفقات جيوش الاحتلال , وتلتزم ببيع سلعها في بلاد الحلفاء.

٣ -القسم الثالث : الضمانات , كان من بنود معاهدة الصلح الجديدة , التي كان غرضها ضمان امن جيران المانيا عن طريق إضعاف القوة ا لعسكرية للأخيرة , ويشير البعض أن هذه البنود بوصفهاضمانات عسكرية لفرنسا.

فقد نصت المعاهدة على تحديد عدد الجيش الألمانى بما لا يزيد على (١٠٠٠ ١٠٠ رجل) , وكذلك تحديد القوة البحرية الألمانية , بست بوارج حربية وست طرادات وست مدمرات واثني عشر مركب طوربيد , ومنعت ألمانيا من صنع

الغواصات , كما منعت من صنع الطائرات ومن تأسيس قوة جوية , و منعت ايضا من صنع المدرعات والدبابات أو استيرادها , والزمت بعدم تصنيع الغازات السامة وإلغاء الخدمة العسكرية الاجبارية.

ولأجل ضمان أمن فرنسا تقرر ان تحتل قواتها الجانب الغربي من نهر (الراين) لمدة خمسة عشر سنة وإيجاد منطقة منزوعة السلاح في شرق (الراين) , ونصت المعاهدة على تكوين لجان خاصة من دول الحلفاء للاشراف على تنفيذ المواد العسكرية الواردة فيها حصلت فرنسا على ضمانات سياسية بتوقيعها اتفاقيتين مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في ٢٨ يونيو١٩١٩ والحقتا (بمعاهدة فرساي) , تعهدت الدولتين فيهما بتقديم المساعدة السريعة لفرنسا في حالة تعرضها أي اعتد اء المانى مفاجئ , أو فى حالة عزم ألمانى إعادة تسليح منطقة (الراين).

ان من أهم المشاكل صعوبة في المعاهدة , كان تحديد كمية التعويضات التي يطلبها الحلفاء من ألمانيا عوضاً عما حدث من خسائر أثناء الحرب ,وقد تركت هذه المادة في المعاهدة تبرير إجبار ألمانيا على دفع الغرامة الحربية على سبيل التعويض عن الاضرار والخسائر التي لحقت بدول الحلفاء والدول الملحقة بها من جراء الحرب وقد ترك هذا الأمر لقرار تقدمه لجنة التعويضات من الحلفاء بعد سنتين وتبين فيه مقدار ما يجب ان تدفعه ألمانيا وكيفية الدفع , ولكن ر غم ذلك فقد طلب من ألمانيا ان تدفع مبلغ (خمسة بلايين دولار) في أول الأمر إلى أن ينظروا في الحساب , كما طلب منها ان تبني للحلفاء سفناً عوض السفن التي أغرقتها , وان تقدم إلى فرنسا كميات هائلة من الفحم الحجري بدل المناجم التي دمرت.

وبعد طول مباحثات , اتفق زعماء الحلفاء على عقد اتفاقيات منفردة للصلح , وليست اتفاقية عامة واحدة , لأن الحرب قد غيرت الكثير من معالم الدول وعلاقاتها , وخاصة في الوسط وشرق أوروبا , حيث اختفت امبراطوريات أربع هى: امبراطوريات النمسا والمجر وألمانيا وروسيا القيصرية والدولة العثمانية .

وكان من الصعب في وسط ما حدث رسم حدود جديدة , لأن بعد انتهاء الحرب عام ١٩١٨ , بدأت أعمال العنف تبرز من حين لآخر فى انحاء القارة ففي (البلقان) اصطدمت يوغسلافيا بالنمسا بسبب (كارنثيا) مع الايطاليين بسبب (فيوم) , واحتلت رومانيا (بساربيا) , واقتتل اليونانيين والاتراك لمدة ثلاث أعوان فى آسيا الصغرى ، ووقعت معاهدة الصلح معاهدة فرساي مع ألمانيا يوم ٢٨يوليو ١٩١٩ , و(معاهدة سان جيرمان) مع النمسا و(معاهدة تريانون) مع المجر , و(معاهدة تويللى) مع بلغاريا و(معاهدة سيفر) مع الدولة العثمانية (معاهدة لوزانا)

يوم ٢٤ يوليو ١٩٢٣. لم تختلف هذه المعاهدات التي فرضت على الدول الأخرى المندحرة في الحرب عن (معاهدة فرساي) في خطواتها العامة.

الفصل الرابع

أوروبا بين الحربين العالميتين

- تطور أوروبا بين الحربين
- ظهور الدكتاتوريات
- الشيوعية فى روسيا
- الفاشية في إيطاليا
- النازية في ألمانيا
- العلاقات الدولية بين الحربين العالميتين
- عصبة الأمم

تطور أوربا بين الحربين العالميتين

ظهور الدكتاتوريات :

اعتقد كثير من الساسة والمفكرين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن خير النظم السياسية التي تكفل سعادة المجتمع ورخاء الانسان المادي والمعنوى هي النظم الديمقراطية المتمثلة بالمجالس النيابية، وبالحرية الفردية في الفكر والعمل لجميع أفراد الشعب، فاتجهت جميع دول أوربا لاقامة حكومات ديمقراطية تستمد سلطتها وسياستها من البرلمانات، ممثلى الشعب، وتبقى في الحكم ما بقيت ثقة تلك البرلمانات بها، حتى ان روسيا القيصرية وتركيا العثمانية لم تستطيعا مقاومة هذا التيار، فدعت الأولى مجلس الدوما» للانعقاد، ودعت تركيا مجلس المبعوثان) وكلاهما برلمان يجتمع فيه النواب باسم الشعب. ولكن مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى وبطء الاجراءات البرلمانية في حلها دفعت بعضهم الى الاعتقاد بعجز البرلمانات عن حل مشكلات البلاد، فتطلع الناس الى أنظمة جديدة تساير التطور الجديد، وأن خير انظمة الحكم هي وضع السلطة بيد فئة محدودة أو رجل مخلص كما كان الحال عند الرومان في ساعات الشدة. فظهرت في نهاية الحرب وأعقابها أنظمة دكتاتورية جديدة كان أبعدها أثرا الشيوعية والفاشية والنازية، ساعد على ظهور الدكتاتورية الأزمة الاقتصادية (١٩٢٩-١٩٣١) التي عمت أوربا بخاصة والعالم بعامة .

1- الشيوعية في روسيا :

كانت روسيا أول دولة أوربية انقلب فيها نظام الحكم في أثناء الحرب العالمية الأولى، فقد قامت الثورة الشيوعية فيها سنة ١٩١٧ نتيجة البؤس الذي كان يسحق سواد الشعب الروسي وفساد الحكم القيصرى وهزيمة حكومة القيصر أمام اليابان سنة ١٩٠٥ ، ثم أمام الألمان سنة ١٩١٦، ١٩١٧ . وقد تزعم الثورة الحزب الشيوعى وتسلم قيادتها لينين الذي قضى على أسرة القيصر الحاكمة، وعقد الصلح مع الألمان، ثم أعلن السوفييت (أي المجالس الشعبية المحلية الاشتراكية وتأميم وسائل الانتاج وعمل على محو الفوارق بين الجماعات القومية المختلفة في روسيا، كما أعلن دكتاتورية العمال والفلاحين المتمثلة في الحزب الشيوعي .

وقد استطاع هذا النظام أن يدافع عن نفسه سنوات طويلة ضد الهجوم العسكري الغربي عليه من كل جانب كما استطاع أن يثبت سنوات طويلة مريرة أمام الجماعة ونقص السكان وعمليات التخريب وقد مات لينين سنة ١٩٢٤، فتولى قيادة الاتحاد السوفيتي بعده رفيقه ستالين حوالي ثلاثين سنة حتى توفي عام ١٩٥٣. وقد

استطاع الاتحاد السوفياتي القيام بسلسلة متتالية من المشاريع عرفت بمشاريع السنوات الخمسة جعلته يقفز بالبلاد الى النهضة الشاملة، وأن يتزعم النضال الاشتراكي العالمي ضد الرأسمالية الغربية، وأن يصبح منذ الخمسينات احدى القوتين اللتين تتجاذبان النفوذ العالمي. غير أن هذا النظام قد انهار في مطلع التسعينات من هذا القرن.

الفاشية في ايطاليا :

برز في ايطاليا شعور من خيبة الآمال أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى. فقد شعر الايطاليون بأنهم لم يفوزوا الا بالتافه الزهيد من الغنائم بالرغم من أنهم كانوا في عداد الدول الظافرة وأنهم عانوا أهوالا شديدة. وعندما قامت الحرب وجد الايطاليون أنفسهم يعانون من الضرائب العالية وارتفاع أثمان الأغذية وندرة الوقود. فكثرت الاضرابات وانتشرت البطالة وساءت احوال الناس، وتعددت الأحزاب وضعفت الوزارات وانتشرت المبادىء الشيوعية في البلاد، وظهرت ردة فعل في البلاد ضد الشيوعية وقد تمثلت ردة الفعل هذه في الحزب الفاشي وزعيمه بنيتو موسوليني، الذي حدد مبادئه في محاربة الشيوعية والتنظيم التعاوني للدولة والوصول الى المكاسب الاستعمارية التي حرمت منها ايطاليا في مؤتمر الصلح .

وتقوم النظرية الفاشية على احتقار الحرية البرلمانية، وتلح على تفوق الدولة وعلى ضرورة اجبار الفرد طوعا أو كرها لمشيئة الدولة وهذه الدولة يجب أن يكون على رأسها زعيم وعلى هذا الزعيم أن يركز جميع السلطات بين يديه. وقد قاومت الفاشية مبدأ الشيوعية الدولية واستعاضت عنه بمبدأ قائم على الاشتراكية القومية المتحمسة . وقد قام الحزب الفاشي بعمليات اغتيال وأعمال عنف رهيبة ضد خصومه.

وعندما قويت شوكة الحزب زحف موسوليني وأتباعه ذوو القمصان الى روما، فاضطر الملك فيكتور عمانويل الى تسليمه السلطة، ومنذ ذلك الوقت أضحى دكتاتور البلاد وحمل لقب «الدوتشي». وعمد الزعيم موسوليني (الدوتشى) الى الغاء الأحزاب وجعل السلطة كلها بيده، وأعلن حظر الاضطرابات والامتناع عن العمل، وأصبحت كل صناعة من صناعات البلاد شطرا من مشروع عام ضخم يقوم على التوفيق بين مصلحة العامل من جهة وعلى رخاء الصناعات التجارية وكفالة رءوس أموالها وضمان أرباح معقولة من ناحية أخرى. وقد أعاد التعليم الديني إلى المدارس وتصالح مع الكنيسية . ومن جهة أخرى، فقد ارتكب موسوليني أبشع الجرائم والأعمال لاقرار الاستعمار الايطالي في ليبيا، ثم التوسع الاستعمارى في الحبشة سنة ١٩٣٥، وفي ألبانيا سنة ١٩٣٦ . وكانت معارضة الدول الاستعمارية له سببا

في اتفاقه مع ألمانيا النازية في حلف عسكري (محور برلين – (روما) فما أن أعلنت الحرب العالمية الثانية ، حتى دخلها بجانب ألمانيا. وانتهت الفاشية بهزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية .

النازية في المانيا :

سخط الألمان على القيود التي قيدتهم بها معاهدة فرساي، وعلى ما بها من ذل وقضوا فترة من الاضطراب والافلاس والبطالة استمرت سنوات عديدة بعد الحرب العالمية الأولى، حتى استطاع واحد من الأحزاب السياسية أن يشق الطريق الى الحكم ويتسلم السلطة عام ١٩٣٣ ، هذا الحزب هو حزب العمال الاشتراكي الوطنى (النازي)، وأما زعيمه فهو أدولف هتلر الذي سجل مبادئه في كتابه كفاحي»، وهي مبادى تقوم على أساس القومية العنصرية، وتؤمن بتفوق العرق الجرماني، وانشاء ألمانيا الكبرى التي تضم كل الألمان كما تطالب بامتلاك الدولة للشركات الاحتكارية والغاء معاهدة فرساي واستعادة المستعمرات الألمانية.

وقد أضحى هتلر منذ سنة ١٩٣٤ دكتاتور ألمانيا الأوحد ولقب بالفوهرر Fuhrer وأخذ في تطبيق مبادئة وكان أول نجاح له حين ضم منطقة السار الى المانيا سنة ١٩٣٥، ثم أعلن الغاء معاهدة فرساي وسلح الجيش الألماني تسليحا جعله من أقوى الجيوش العالمية، ثم ضم البلاد الناطقة بالألمانية في أوربا الى ألمانيا (الرايخ الثالث قطرا بعد ،قطر، فضم النمسا سنة ١٩٣٨ ثم بلاد السوديت سنة ١٩٣٩، ثم حاول ضم دانزيخ الممر (البولوني بالقوة. واتفق مع الاتحاد السوفيتي على اقتسام بولونيا فكان هذا الموقف سببا في قيام الحرب العالمية الثانية. وانتهت النازية مع هزيمة المانيا في الحرب العالمية الثانية .

العلاقات الدولية بين الحربين العالميتين :

تميز الوضع الدولى في فترة ما بين الحربين بمميزات أهما:

المشاكل السياسية الناجمة عن معاهدات الصلح : كانت جميع الأحداث السياسية الهامة ذات الصبغة الدولية خلال الفترة التي توسطت الحربين العالميتين (١٩١٩-١٩٣٩) نتيجة مباشرة للتسويات العامة التي أبرمت بين دول الحلفاء وأعدائها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى. ولقد كان كثير من بقاع العالم ابان هذه الحقبة يغلى بالحقد والقلق والبغضاء والتنابذ.

كثير من بقاع العالم ابان هذه الحقبة يغلى بالحقد والقلق والبغضاء والتنابذ والاضطرابات نتيجة لما أثارته معاهدات الصلح من الحنق وخيبة الأمل ومرارة

اليأس وأسباب الانقسام والتفكك. ولم يكن تقويض دعائم الأمن الجماعى مباغتا أو غير متوقع فقد استمرت عملية التفكك والتداعى للمعاهدات طوال هذه الفترة دون أن تبذل الدول الكبرى سوى محاولات ضئيلة ومصطنعة لوقف تلك العملية، وذلك لطغيان المصالح السياسية الخاصة للدول على الأهداف الانسانية وأخذت القوة في العقد الرابع من هذا القرن تصبح الفيصل الأكبر في تسوية الشئون والمنازعات، وزاد التسلح تدريجا في جميع أقطار أوربا.

وأخذ الجو السياسي يتلبد بالغيوم شيئا فشيئا وانتهكت حرمة المعاهدات ومبادىء القانون الدولى دون حياء أو رادع، وما غزو اليابان لمقاطعة منشوريا وفتح ايطاليا للحبشة الا مثلان صارخان لما كان يجرى في ذلك العقد من الزمان. وقد أخذت الدول الديكتاتورية في هذه الفترة توحد صفوفها وتنظم هيئاتها، وبدأ التقارب بين ألمانيا وايطاليا واليابان ساعية الى الفوز ببعض الأسلاب لشعورها أن التسويات الماضية قد حرمتها هذه الغنائم، وتبين لهذه الدول أنه يمكنها أن تظفر بما تشتهى اذا ما لوحت بالقوة أو استخدمتها. وبدت لها الديمقراطية شعوبا قد ،هرمت وظهرت الدول الديمقراطية بطيئة في انجاز الاصلاحات الداخلية وعاجزة عن الوصول الى قرارات حاسمة. وكان خارطة أوربا السياسية عقب الحرب العالمية الأولى على أساس قومي لتنفيذ حق تقرير المصير قد طوق ألمانيا من جهة الشرق وروسيا من جهة الغرب بدول صغرى ضمنت الدول المنتصرة في الحرب استقلالها واعتقدت أن ذلك يسهم في منع ألمانيا من العدوان ويقف في وجه انتشار الشيوعية، فشأت بذلك بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا (المجر)، ويوغوسلافيا، غير أنها لم تستطع تخطيط الحدود بدقة كافية فنشأ ما يسمى بمشكلة الأقليات القومية وقد سبب ذلك اثارة المنازعات فيما بعد.

- **عصبة الأمم :**

لقد قرر مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ انشاء هيئة دولية لمنع الحرب في المستقبل ولحل المشاكل الدولية بالطرق السلمية، فأنشئت عصبة الأمم. ولكنها منذ اللحظة الأولى بدأت ضعيفة لاستنكاف الولايات المتحدة عن عضويتها وسيطرة الدول الكبرى عليها وتأخر المانيا وروسيا في دخولها كما أنها لم تكن تملك الوسائل الكافية لمنع الاعتداء أولا لاسكات المدافع عن أن تحكم. وإذا كانت نجحت في السنوات العشر الأولى في حل خلافات الدول الصغرى (كما في خلاف السويد وفنلندا بشأن جرينلاند سنة ١٩٢٠ وخلاف اليونان وبلغاريا سنة ١٩٢٥

في السنوات العشر الأولى في حل خلافات الدول الصغرى (كما في خلاف السويد وفنلندا بشأن جرينلاند سنة ١٩٢٠ وخلاف اليونان وبلغاريا سنة ١٩٢٥ و

خلاف تركيا والعراق بشأن الموصل سنة (١٩٢٤ الا أنها كانت تفشل دوما حين يتعلق الخلاف بدولة من الدول الكبرى. وقد سجلت الفشل تلو الفشل منذ عام ١٩٣١ . فلم تستطع منع اليابان من احتلال منشوريا عام ١٩٣١ ولما رفضت الاعتراف بالحكومة المنشورية الجديدة انسجت اليابان من العصبة وعجزت عن منع الحرب بين باراغواى وبوليفيا وعن منع ايطاليا من احتلال الحبشة عام ١٩٣٥، ولم تجدها شيئا العقوبات الاقتصادية التي فرضتها على ايطاليا التي انسجت منها. كما لم تستطع تحديد التسلح .ثم كالت ألمانيا الضربة تلو الضربة لعصبة الأمم دون ان تستطيع العصبة حراكا، فمزق هتلر القيود العسكرية التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا، ثم احتل النمسا ومنطقة السوديت، ثم ألحق تشيكوسلوفاكيا كلها بألمانيا وتعدى على هنغاريا (المجر) ثم على بولونيا .. والعصبة لا تحرك ساكنا. والذين أعلنوا الحرب انجلترا وفرنسا) لم يعلنوها باسم عصبة الأمم ولكن باسم دولهم الحلفاء). ولم تنجح العصبة الا في الشئون الصحية والاجتماعية والثقافية شأنها شأن هيئة الأمم حاليا . وانهارت العصبة بعد اعلان الحرب العالمية الثانية.

ولعل مصير هيئة الأمم المتحدة اليوم وتسلط الولايات المتحدة والدول الامبريالية عليها شبيه بمصير عصبة الامم هذه.الظروف الدولية قبيل الحرب العالمية الثانية : لقد أصرت الدول الديمقراطية حتى اللحظة الأخيرة على اغماض عينيها عن رؤية الخطر الداهم الذي يهدد سلامتها فواصلت الولايات المتحدة سياسة العزلة واطمأنت انجلترا الى صولة أسطولها وعظمتها ودهاء سياستها، فلم تبذل جهداً جديا لوقف الدول المحرومة كايطاليا واليابان أو الدول التي أحسست بعار الهزيمة وذل التسليم كألمانيا لكف يدها عن البطش والعدوان وبدأت انجلترا وفرنسا في الأعوام القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية سياسة عرفت بسياسة التهدئة تميزت بالضعف السياسي وظهر الخلاف جليا في مناسبات عديدة، وكان هتلر يعرف ذلك فاستغل الانشقاق بينهما فضم منطقة السار عام ١٩٣٥ بعد استفتاء أجرى باشراف عصبة الأمم وجاءت نتيجته في مصلحة المانيا. وأعاد نظام التجنيد الاجبارى، وأنشأ قوة بحرية، وأقام المصانع لانتاج الأسلحة والطائرات الحربية.

على الرغم من مخالفة هذه الأمور المعاهدة فرساي ولم تر بريطانيا في هذا ما يثير قلقها مما باعد كثيرا بينها وبين فرنسا ورأت هذه (فرنسا) أن تتجه نحو روسيا وسعت الى توثيق صلاتها مع الحكومة السوفيتية وفي ٢ من مايو عام ١٩٣٥ أبرمت معها معاهدة كانت في صميمها تحالفا عسكريا حربيا ولو أنها اتخذت في ظاهرها صفة ضمان متبادل في نطاق عصبة الأمم.

غير أن هتلر رد على هذه الاتفاقية بازدياد التقرب من انجلترا وأفلح في أن يعقد معها معاهدة بحرية في يونيو عام ١٩٣٥ وافقت انجلترا بموجبها أن يخرق هتلر بنود معاهدة فرساى الخاصة بتحديد قوة ألمانيا البحرية تحديدا صارما مقابل اعترافه بتفوق القوات البحرية البريطانية ورضيت انجلترا أن يحدد حجم الأسطول الألماني الذي ينوى هتلر بناءه ٣٥ بالمئة من مجموع حمولة الأسطول البريطاني. ثم انتهز هتلر فرصة حرج مركز ايطاليا الدولى خلال الحرب الحبشية فايد موسوليني تأييدا قويا فوريا في تحديد لقرارات عصبة الأمم، وأدرك هتلر أن فرنسا لن تحمل السلاح بمفردها ضد ألمانيا اذا هي أقدمت على احتلال الرين واعادة تحصينها ففعل ذلك. وقد زادت الحرب الأهلية الاسبانية في التقارب بين ألمانيا وايطاليا حيث دعم الألمان والطليان قوات الجنرال فرانكو الذي قام ضد الحكم الجمهوري في اسبانيا. ولما كانت النازية في طبيعتها عدوا لدودا للشيوعية فقد اصلى هتلر الشيوعيين حربا قاسية ورأى في اليابان العسكرية وايطاليا الفاشية حليفتين طبيعيتين فوثق العلاقات السياسية بهما.

وفي خريف عام ١٩٣٦ وقعت اليابان وألمانيا ميثاقا ضد الشيوعية ثم انضمت ايطاليا الى هذا الميثاق حيث أعلن الزعيمان هتلر وموسوليني وسط مظاهر الحماسة الشديدة اقامة محور برلين – (روما) بوصفه تحالفا سياسا ذا أهمية لا تقدر والخير أوربا وحفظ السلام في ربوعها». ولم ينقض وقت طويل حتى أفلح هتلر في عقد حلف كبير معاد للشيوعية ينتظم ألمانيا واليابان وإيطاليا وأسبانيا وهنغاريا (المجر). وبدأت الحكومة النازية تطالب بالمستعمرات وتضم المناطق التي يسكنها الألمان، عندئذ اخذت الدول الديمقراطية تتقارب فالغيت المعاهدة البحرية البريطانية الألمانية، وبدأت المفارضات بين فرنسا وروسيا وبريطانيا، غير أن العالم فوجىء بتحول خطير في الموقف الدولي حينما أعلن عن توقيع معاهدة . عدم اعتداء بين ألمانيا وروسيا عام ١٩٣٩ .

وهكذا انقسم العالم مرة ثانية الى معكسرين لكل منهما فلسفته ومطامعه ونظامه الداخلي :

1 – معسكر المحور ويضم الدول الدكتاتورية ذات الحكم الفردى وهي ألمانيا وايطاليا واليابان .

2- معسكر الحلفاء ويضم الدول الديمقراطية المتمثل بانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

وخيم بذلك شبح الحرب على العالم مرة ثانية وكانت الشرارة التي أشعلت الحرب الثانية هي اكتساح الجيش الألماني لبولندا في أول سبتمبر عام ١٩٣٩ ، فأعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية .

الفصل الخامس

الحرب العالمية الثانية(1939- 1945م)

- أسباب الحرب العالمية الثانية
- قيام الحرب العالمية الثانية.
- أدوار الحرب
- نتائج الحرب العالمية الثانية

أولاً : الحرب العالمية الثانية :

مقدماتها :

هذه الصفة العالمية التي بدأت تأخذها الحروب الكبرى في هذا القرن هي نتيجة طبيعية لترابط العالم بعضه ببعض في المواصلات وفي الانتاج والثروات وفي المصالح، وتبنيه في مجموعة حضارة واحدة نسميها بالحضارة الغربية ولا نسمى هذه الحروب عالمية لاشتراك معظم دول العالم بها فقط، ولكن لأن ميادينها أيضا موزعة في أنحاء الكرة الأرضية وتحاول الدول المتحاربة بكل وسعها أن تجعل حربها حربا مبررة، وذلك باعطائها صفة الدفاع عن مبدأ معين ذلك لأن الحروب الحديثة التي تجند فيها الأمم كلها وتعلن باسم مصلحة الأمة تختلف عن الحروب القديمة التي كان جنودها دوما من المرتزقة وتعلن في الغالب لتنفيذ المطامع والمصالح الشخصية.

ثم ان الفتك في هذه الحروب العالمية أقصى وأرهب منه في أي حرب عرفتها البشرية من قبل ونطاق الخسائر أوسع في الأرواح والتدمير والأموال.

أما أسباب الحرب فهي كالعادة أسباب بعيدة لا تعود الى السنين التي نشبت بها ولا الى الجيل الذي اصطلى نارها . معاهدة فرساي التي قيدت ألمانيا بقيود ثأرية : في الغرامات الباهظة وفي قيود التسلح، وفي التجزئة بالأرض والاقتطاع منها، للدول المجاورة، هذا عدا الحرمان من الأسطول التجارى ومن المستعمرات . . وقد عادت ألمانيا الهتلرية تتحرر من هذه القيود جميعا معلنة حاجتها للمدى الحيوى» يدفعها الى ذلك عوامل اقتصادية واعتبارات وطنية عنصرية وفيض من التسلح الهائل .

٢ – فشل عصبة الأمم ومشاريع التعاون الدولى ومؤتمرات السلام وتخفيض التسلح في مهماتها وانسحاب اليابان منها عقب متشوريا) وايطاليا (عقب الخيشة وألمانيا.

- قوة الدول الدكتاتورية في ذاتها واتفاقها بعضها مع بعض بمحور برلين – روما ومحور برلين – طوكيو. وأخيرا معاهدة عدم الاعتداء بين برلين – موسكو قبل قيام الحرب عام ١٩٣٩ بأسابيع. اختلال التوازن الدولى وتوسع اليابان في الشرق الأقصى) وألمانيا (في القارة الأوربية وايطاليا (في القارة الأوربية وأفريقيا) توسعا هدد الدول الاستعمارية الأخرى في امبراطورياتها المترامية .. فاليابان كانت تستولى شيئا فشيئا على الصين وتحرم دول الغرب الرأسمالية من سوق تقدر العالم. وألمانيا كانت تطالب بالمدى الحيوى وايطاليا كانت تطالب بنيس وبتوس من فرنسا، ويقول موسوليني فيها عندنا أربعون درجة من الحمى، يجب أن تمتد أو تنفجر ا»

ه – وأخيرا جاءت الشرارة التي أشعلت النار من قضية الممر البولوني.

ذلك أن عصبة الأمم وقفت عاجزة أمام التوسع الألماني في النمسا فلما أراد هتلر اقتطاع مناطق الأقلية الألمانية (السوديت) من تشيكوسلوفاكيا حدثت أزمة دولية كانت تؤدى الى الحرب لو أن انجلترا وفرنسا كانتا على استعداد لخوضها، ولكن الأمر حل حلا سلميا اذا اجتمع تشمبرلن رئيس حكومة انجلترا ودالاديه رئيس الوزارة الفرنسية مع هتلر وموسوليني في ميونخ ٢٩ أيلول سنة ١٩٣٨ وخرجوا باتفاقية ميونخ التي أعطت هتلر ما يطلب وحسبت الدول الديمقراطية أنها أنقذت بهذه الاتفاقية السلم وأنقذت العالم لكن ما كاد يمضى ستة أشهر عليها حتى ضمت ألمانيا سائر مناطق تشيكوسلوفاكيا اليها (ماعدا السلوفاك التي اعتبرت تحت الحماية) عام (١٩٣٩) ثم أعلن منتظر مطالبته يضم المر البولوني الذي يفصل بين ألمانيا وبروسيا وبمدينة دانزيغ الحرة التي يبلغ الألمان فيها ٩٦٪ وكان على الدول الديمقراطية أن تقف منه موقف الحزم اذا شاءت أن يظل لها احترامها وتظل مصالحها الاستعمارية دون مس. فوقعت انجلترا وفرنسا مع بولونيا تحالفا تضمن فيه استقلال بولونيا وحمايتها. وكان جواب هتلر على ذلك أن أعطى الأمر لفرقة بالهجوم في أيلول عام (١٩٣٩ على الأرض البولونية. بعد أن ضمن روسيا وإيطاليا واليابان في جانبه وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية .

أدوار الحرب :

مرت هذه الحرب بأدوار ثلاثة دور النصر الهتلرى (١٩٣٩ – ١٩٤١) ودور التوازن، أو السنة القلابة (١٩٤٢) ودور الانهيار الألماني (١٩٤٣ – ١٩٤٥). دور النصر الهتلرى : (١٩٣٩ – ١٩٤١) في هاتين السنتين انتصرت ألمانيا في بولونيا واحتلت الدانمارك والنرويج، ثم هاجمت هولندا وبلجيكا واحتلت ثلثى فرنسا وعند ذلك دخلت ايطاليا بجانبها . بينما هدفت الطائرات الألمانية تهديم بريطانيا ثم انثنت نحو روسيا، فاكتسحت غربها كله وانساحت جنوبا فمرت بيوغوسلافيا واليونان ووضعت مقدمات جيوشها في كريت بينما كانت جبهة ليبيا تتراوح كرا وفرا بين جيوش المحور والجيوش البريطانية .

بولونيا :

لم تستفد بولونيا، بسبب موقعها الجغرافي من ضمان انجلترا وفرنسا لها، وبالرغم من أن هاتين الدولتين أعلنتا حالة الحرب مع ألمانيا وأعلنتها بلاد الدومنيون الانجليزية فان الحرب الصاعقة (أي الحرب الآلية الساحقة بالدبابات والطائرات حطمت الدفاع البولوني. وكانت الجيوش الألمانية تدخل فرسوفيا ولما يمض بعد أربع

أسابيع على بدء الحرب.. واستغلت روسيا الفرصة، اذ في الوقت نفسه كانت الجيوش الروسية تحتل شرقي بولونيا (بالاتفاق مع الألمان) وتجتاح دول البلطيق وتهاجم فنلندا ... لكن حربها لهذه الدولة دامت طويلا لأنه لا الروس استخدموا قواتهم الحقيقة ولا انجلترا وفرنسا استطاعتا ارسال الأمداد لفنلندا بسبب بقاء الدول السكاندينافية على الحياد وانتهى الأمر بتوقيع الصلح مع روسيا وكسبت روسيا كسبا آخر أيضا: مقاطعة بسارابيا من رومانيا.

الدانمرك والنرويج :

كانت ألمانيا تعتمد في قسم كبير من معدن الحديد الضروري لصناعتها الحربية على شمالى السويد وكان مرفأ نارفيك المرفأ الطبيعى لذلك الحديد وبينه وبين المرافىء الألمانية امتدت خطوط بحرية كثيرة على طول المياه الأقليمية النرويجية واعتبر الحلفاء ذلك خرقا لحياد النرويج ودخلت عمارة انجيزية فضربت بعض السفن الألمانية في احد الفيوردات عام ١٩٤٠ فقرر هتلر حماية خطوط الحديد البحرية باحتلال الترويج ولاسيما وأن فيوردانها قواعد طبيعية جيدة للغواصات في هجومها على بريطانيا، وفي مطالع نيسان أرغمت كل من الدانمرك والنرويج على طلب حماية الجيش الألماني ضد الحلفاء واحتلتا . وقد حاولت النرويج المقاومة بمعونة الأسطول البريطاني ونزلت بعض الجنود في نامسوس ونارفيك ولكن الطيران الألماني وفرق المظليين سمحت للألمان باحتلال النرويج جميعا في شهرين .. وانسجت منها فرق الحلفا وعين الألمان عليها رئيسا اسمه كيسلنغ بدل الملك الهارب.

الجبهة الغربية :

مضت ثمانية أشهر ولم تصطدم جيوش الألمان بالحلفاء، وكانت فرنسا تنام وراء خط ماجينو المتين على طول الحدود الشرقية، والذي لم يكن يعد له الخط الألماني المقابل له خط سيغفريد، وبالرغم من أن قيادة الحلفاء برئاسة الجنرال عاملان كان تنتظر الهجوم عن طريق البلجيك كما في الحرب السالفة، (الحرب الصاعقة التي طبقت في سهول بولونيا لا تطبق في غابات ومرتفعات الأردن. عدا ايمانهم بتفوق الدفاع دوما فان ،بلجيكا، اعتمدت على حيادها ولم تتخذ أي اجراء جماعي، وفي صباح ١٠ مارس عام ١٩٤٠ بدأ الهجوم الألماني على طول الجبهة من هولندا حتى الألزاس وأسرع الحلفاء فسبقوا لاحتلال بلجيكا على حسب الخطط التي رسموها فحشدوا أحسن فرقهم المصفحة والآلية، ولكن رهبة الهجمة الألمانية كانت أقوى من تنبؤاتهم وتمزقت فرق الحلفاء المصفحة فلم تستطع أن تقاوم الدبابات الألمانية كتلا وراء كتل، بينما كان الطيران الألماني الساحق يقطع المواصلات

ويـدمر المـدن نـوتردام (وأنفـراس ويقضـى علـى معنويـات الجيـوش، وهكـذا منـذ ١٥مارس) أي في أربعة أيام كانت المقاومة الهولندية قد سحقت وقد غـادرت الملكـة البلاد الى لندن. وأما المقاومة البلجيكية فمهددة تهديدا قويا .

فـي هـذه الأثنـاء أتـى نبـأ سـاحق جديـد لقيـادة الحلفـاء، ذلـك أن فرقـا المانيـة أخرى مصفحة قد اجتازت الأردن ونهر الموز منذ ١٣ مـايو وانتصـرت علـى الفرق الفرنسـية الضـعيفة فـي تلـك النقطـة التـي كـان الحلفـاء يعتقـدون أنهـا محميـة حمايـة طبيعية.

من مع وقد اتجهت فرق الألمان شمالاً نحو بحـر المـانش مطوقـة بـذلك الجـيش البلجيكـي الخلـف فاضـطر الجـيش كلـه للاستسـلام (٢٨مـايو) وضـع الحلفـاء بـأن ملـك البلجيك خـانهم وبأنـه لـم يمـت مـع جيشـه الحمايـة انسـحاب فـرقهم التـي تجمعـت فـي دونكـرك، وبـدأت تجلـو علـى الأسـطول الانجليـزي تحـت وابـل مـن قنابـل الطـائرات الألمانية . وانسحب بهذا الشكل (٣٥٠) ألفا، وفي الرابع مـن حزيـران كـان الجـلاء قد تم. ولكن كل المعدات كانـت قد تركـت للألمـان ومنهـا (٥٠) ألـف سيارة و (٢٤٠٠) مدفع و (٧٠٠) طائرة .

واسـتقدم الفرنسـيون الجنـزال ويغـان وكـان فـي سـوريا) بـدل غـاملان لتنظـيم الدفاع ولكن الـدفاع بـدا غيـر مجـد بـرغم أنهـم خسـروا فيـه حـوالي مليـون جنـدى، لأن التفـوق الألمانـي الآلـى كـان سـاحقا، واختـرق الألمـان خطـوط السـوم الدفاعيـة ووصـلوا وادى المارن وبـدت خطـوط ماجينـو مهزلـة !! بينمـا كـان الـذعر يعـم فرنسـا، والمـدنيون يهاجرون ويملأون الطرقات وتحصدهم المدافع الرشاشة الألمانية مـن الطـائرات فـي تلك الفترة .

أعلنت ايطاليا الحرب على الحلفاء وهجمت عبر الألب وفـي ١٤ يونيـو داخـل الألمان باريس التي أعلنت مدينة مفتوحة هل تتـابع فرنسـا الحـرب فـي شـمالي أفريقيـا وتنقـل اليهـا مقـر الحكومـة أو تقبـل اقتـراح انجلتـرا بتكـوين اتحـاد بـين الحكـومتين أو تهادن الألمان وتنـهي الحـرب. لقد استقالت الحكومـة الفرنسية وأعلـن المارشـال بيتـان أحد أعضائها انتهاء المقاومة التي لم تعد تجدى وبدأ المفاوضـة للهدنـة. وقد أقـرت فـي حزيـران فـي بلـدة كـومبين. وقـد قسـمت فرنسـا بموجبهـا قسـمين قسـما محـتلا يشـمل المناطق الشمالي والغربية. وقسما غير محتل ويشمل وسط فرنسا وجنوبها ومركـزه فيشى، ولكن حكومتـه التي يرأسـها بيتـان تخضـع خضـوعا غيـر مباشـر للألمـانعلى أن الناس سمعوا في الثامن عشـر مـن يونيـو صـوتا مـن راديـو لنـدن يـدعو الفرنسـيين لأن يجتمعـوا مـن حولـه لمتابعـة المقاومـة لأن فرنسـا خسـرت معركـة ولكنهـا لـم تخسـر الحرب.

فكان هذا صوت أحد الجنرالات الفرنسيين الذين لجأوا الى انجلترا والذين عرفوا بنظرياتهم في الحرب الآلية الجنرال ديجول وانقسم الفرنسيون والامبراطورية الفرنسية بين موالين الحكومة فيشي وبين أنصار الحكومة ديجول التي سميت (فرنسا) الحرة) في لندن.

بريطانيا :

بعد معركة فرنسا أصبحت جميع السواحل القارية حول بريطانية بيد الألمان وقربت قواعدهم الجوية والبحرية فيها عند الشاطىء الفرنسي (المانش)، ولكن انجلترا بالمقابل كانت قد جمعت اليها كل القوى الحرة الهاربة من القارة من تشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا واستقال في تلك الفترة تشمبرلين وترأس الوزارة ونستن تشرشل الذي ذكر في أول خطاب له بمجلس العموم ١٣ مايو عام (١٩٤٠) ان هدف بريطانيا هو النصر مهما كلف من أهوال وطريق صعبة شاقة.

وبدأ الألمان هجومهم على انجلترا جوا بتفوق رهيب في الغارات الجوية العنيفة. وقد دام الهجوم قرابة ثلاثة أشهر سنة ١٩٤٠ ثم استمر ولكن بعنف أقل في شتاء تلك السنة ورافقته حرب بحرية في المحيط الأطلسي بلغت فيها الخسائر مبلغا كبيراً، ولكن الألمان وان لم يخسروا المعركة الا أنهم لم يرجعوا وفشلت طريقتهم في الحرب الصاعقة لانهاء حالة الحرب بسرعة.

البلقان :

كانت هذه الجبهة من نصيب الايطاليين، الا أن اليونان التي دخلت الحرب بجانب الخلفاء استطاعت اجلاء ايطاليا عن بعض أراضى البانيا، ونزل الحلفاء في كريت وبعض نقاط اليونان واضطر هتلر لاحتلال يوغوسلافيا ابريل عام ١٩٤١ واجتاح ما بينها وبين شبه جزيرة المورة في أقل من شهرين، ثم احتل جزيرة كريت مايو احتلالا مذهلا في عشرة أيام بعد أن ضربها بالطائرات وأنزل فيها المظليين وأطل بذلك اطلالا مباشرا على البحر الأبيض التوسط وقناة السويس ومواطن البترول .

ليبيا :

قام الحلفاء أولا بهجوم سبتمبر عام ١٩٤٠ أعقبه هجوم محورى ابريل عام ١٩٤١ ثم هجوم حليف ولم يتجاز الخصمان حدود مناطق برقة، غير أن القيادة المحورية أسندت الى المارشال رومل فهاجم بقواتة الميكانيكية جبهة الحلفاء، وتقدم في أرض مصر حتى أشرف على الاسكندرية وعسكر في العلمين أول يوليو عام ١٩٤٢.

روسيا :

لم يكن حلف عدم الاعتداء الذي عقد بين ألمانيا وروسيا سوى وسيلة لكسب الوقت على ما يظهر لأن الروس عملوا على تقوية حدودهم الغربية وهتلر، الذي شعر أنه كلما تأخر خسر الفرصة وضع مشروع بربروسيا لغزو روسيا واستثمارها، وبالرغم من أنه لم ينتصر بعد على انجلترا وأن من المجازفة بمكان فتح جبهة ثانية على ألمانيا. الا أن ١٧٠ فرقة ألمانية و ٣٠ أخرى فنلندية ورومانية حشدت سرا وأعطيت الأمر بالهجوم المفاجيء صباح ٢٢ حزيران عام ١٩٤١. وقد حقق هتلر انتصارات مبدئية كثيرة رغم اتساع الجبهة معتمدا على طريقته في الحرب الصاعقة، وكان يأمل بتحظيم آلة الحرب الروسية قبل ان تجتمع أو يحل الشتاء وباحتلال المراكز الحيوية (لينغراد، وموسكو... الخ) وبتأليف حكومة ضد الشيوعية ... واذ ذاك فلا قبل لانجلترا بمقاومته .

وتوغلت الجيوش الألمانية بسرعة فحطمت الدفاع الروسي حتى طوقت لينغراد في أيلول واحتلت كييف وخاركوف وحوض الدونتز وأصبحت موسكو مهددة (٥ تشرين (أول ولكن المقاومة الروسية ازدادت وخرب الروس على طريقتهم زمن نابليون – كل شيء قد يستفيد منه العدو وحل الشتاء ولم ينتصر أمام موسكو فاضطروا لقضاء شتاء رهيب لم يكونوا قد تهيأوا له في سهول متجمدة يلفحها الصفيح.

الألمان

وانتصر الألمان في الصيف ١٩٤٢ حين ركزوا على القطاع الجنوبي، فاحتلوا سيباستبول ووصلوا القوقاز وبترولها وتقدمت جيوشهم حتى ستالينغراد على نهر الفولجا وكان هتلر يأمل أن يسيطر بسرعة على خطوط مواصلات الروس مع المساعدة الخلفية عبر بحر قزوين والفولجا وتركستان.

٢ – السنة القلابة ١٩٤٢ : بين صيف عام ١٩٤١ وصيف عام ١٩٤٢ بلغ النصر الألماني أوجه اذ كان الألمان يسيطرون على القارة الأوربية عدا) قسم من (روسيا) وطلائعهم في العلمين تشكل مع جيوشهم في القوقاز طرفى كماشة حول الشرق الأوسط في أوائل هذه الفترة وأتاهم النصر أيضا في مكانين آخرين

- الشرق الأوسط نفسه اذ مشت ثلاث بقاع منه في نطاق نفوذهم. لجا الحلفاء لاحتلالها العسكري :

فسوريا :

كانت بواسطة الحكم الفيشى والجنرال دانتز قد أضحت قاعدة للمحور في الشرق الأوسط، وجاءتها لجنة المانية ايطالية قادت حركة التجسس والتوطئة للنفوذ المحورى في سوريا وما وراءها من بلاد فاستعان الانجليز بالفرنسيين الأحرار لديهم وبمن يعطف على الحركة الديجولية من الضباط الفرنسيين في سوريا واحتلها منذ ٨ يونيو عام (١٩٤١ من الجنوب والشرق، وأعلنت للسكان اعتراف الحلفاء جميعا باستقلال البلاد تطمينا لها وضمانا لتأييدها.

العراق :

ثار بزعامة رشيد عالى الكيلانى منذ مطلع مايو عام ١٩٤١ ووعده الألمان بالمساعدة العسكرية، ولكن هذه المساعدة تأخرت ووصل الجيش الانجليزي من الأردن قبلها فلم يقاوم العراق أكثر من شهر واحد ودخل الانجليز بغداد ٣١ مايو .

ايران :

أضحت مباءة لهم ومركزا للتجس فيما بين الحلفاء وروسيا، وأيدهم الشاه في ذلك فأقدم الحلفاء في 25سبتمبر عام ١٩٤١ على احتلال البلاد: الروس من الشمال والانجليز من الجنوب. وأدى الأمر إلى تنازل انشاء ١٦سبتمبر وتوقيع تحالف روسى ايراني – انجليزي حرم الألمان هذه القاعدة في الشرق.

- **اليابان :**

بالرغم من بقاء اليابان على الحياد فان هتلر كان يأمل دخولها في جانبه والحلفاء كانوا ينظرون بامتعاض الى تهديدها لمستعمراتهم في الشرق الأقصى والمحيط الهادى. وحين تسلم الوزارة توغو المعادى للولايات المتحدة تبين اتجاه اليابان بوضوح، وبينما كان بعض مندوبيها يفاوض في أمريكا، هاجمت الطائرات اليابانية مع الأسطول قاعدة بيرل) (هاربور) الأمريكية 7 ديسمبر عام (١٩٤١) فأعلنت الولايات المتحدة الحرب عليها، وتبعتها إنجلترا والبلاد التابعة لها والصين فأجابت ألمانيا وإيطاليا على ذلك باعلان الحرب على الولايات المتحدة.

ولم تكن أمريكا مستعدة للقتال فاستطاع اليابانيون بحرب صاعقة على النمط الألماني احتلال أهم المراكز الاستراتيجية التابعة للحلفاء في الشرق الأقصى (كالفلبين وسنغافورة واندونيسيا) وحاولت اقتحام أستراليا لو لا أن أحد أسطولها هزم في معركة جزر مرجان البحرية (٨٤ مايو عام ١٩٤٢) غير أن الحلفاء لم يكونوا في صيف عام ١٩٤٢ برغم سيطرة النصر الألماني – الياباني بمركز خطر أو

حرج، بل لقد حققوا جملة انتصارات هامة في هذه السنة: في الشرق الأوسط في ايران والعراق وسوريا تمهيدا لجعلها كتلة واحدة تقف خلف جيوشهم في العلمين وخلف الجيوش الروسية في القوقاز وستالينجراد.

٢ – في ضم الولايات المتحدة الى جانبهم ولم يكن اعلانها الحرب معهم آخر سنة ١٩٤١ الا اقرارا رسميا بحالة عداء واقعة مع المحور أو مع المثلث برلين – روما – طوكيو فبالرغم من رجحان كفة الانعزاليين الأمريكيين في مطلع الحرب، فان الرئيس روزفلت ماكان يخفي عطفه على الحلفاء ولا كان يجهل الخطر الذي يهدد أمريكا واقتصادياتها من نجاح المحور. فقام أولا بمعونة الخلفاء معونة أولية بجعل مبدأ ادفع واحمل في التجارة والذي كان قد أعلن منذ سنة ١٩٣٧ يشمل أيضا الأسلحة والذخائر ثم أيدهم ثانية بأن تخلي لهم عن (٥٠) مدمرة حربية مقابل استئجار ثماني قواعد بحرية في الأطلسي تابعة لهم، ثم أيدهم ثالثة (حين أخذت اعتمادات انجلترا المالية في الولايات المتحدة تنفذ باعلان قانون الاعارة والتأجير 16 مارس عام ١٩١٤) بعد مناقشة شهرين في الكونجرس الأمريكي ! فأصبحت الولايات المتحدة بحسب تعبير روزفلت «مصنع الديمقراطية» وغدت حكومتها تصنع الأسلحة على نفقتها وترسل الى الخلفاء !

وقد اتخذ الرئيس في الوقت نفسه عدة خطوات أخرى ضد المحور. فأغلق القنصليات الألمانية والايطالية وسمح للشفن الأمريكية بالتسلح لمقابلة من يتعرض لها بالنار ومدد الخدمة العسكرية الى سنتين ونصف السنة كما قوى انتاج الطائرات . . وكان انتخابه سنة ١٩٤٠ للمرة الثالثة نصرا للحلفاء في أمريكا، وقد التقى 14 أغسطس سنة (١٩٤١) مع تشرشل على مدرعة قرب ساحل نيوفاوندلاند ووضعا معا ميثاقا ذا ثمانية مواد عرف بميثاق الأطلسي ويتعلق بأغراض الحرب وتنظيم العالم بعدها، وجاء به أن الدولتين لا ترغبان بأي توسع اقليمى ولا ترضيان عن أي توسع اذا لم يرض به أهل البلاد. وتودان اعادة السيادة لكل شعب سلبته الاعتداءات سيادته وتأملان توطيد السلم ونزع السلاح.. ولم تمض أربعة أشهر على اعلان الميثاق حتى كانت حادثة بيرل هاربور ودخلت الولايات المتحدة بوجه سافر المعمعة العالمية. وأعلن روزفلت معركة الانتاج أي السبق الى انتاج الأسلحة ونقلها، تلك المعركة التي قررت نتيجة الحرب .

في المقاومة الداخلية بالبلاد المحتلة، فقد التهبت كل بقاع أوربا من النرويج الى فرنسا الى يوغوسلافيا واليونان بالثوار الذين شكلوا عصابات تخريبية تعمل داخل القلعة الأوربية ضد الألمان، وكان الحلفاء يغذونها ما أمكنهم ذلك. وهكذا فبالرغم من وصول المحور واليابان الى ذروة القوة، فان النصر أضحى بعيدا

عنهم أيضا، وبينما كانت قوى المحور قد أنهكت وطال عليها الأمد وبدأت في الهبوط كانت قوى الحلفاء بالعكس قد بدأت في التزايد والصعود اذ أخذ ثقل التدخل الأمريكي يظهر في جبهات روسيا وانجلترا وغيرها، وفي قمع حرب الغواصات الألمانية التي جعلت تغرق بمعدل ٨٠٠ ألف طن في الشهر، وأخذت قوافل الأسلحة على الخطوط البحرية العالمية تسير مطمئنة .

وجاءت الأحداث التالية لترجح الكفة ضد المحور خاصة وضد اليابان:

(أ) في الجبهة الروسية (النصر الرومي): ذلك أن روسيا التي ظلت تقاوم، شكلت جيشها وراء الخطوط ونقلت معاملها الى أورال وسيبريا واستفادت من المساعدات الحليفة وظلت ثقة البلاد قوية في ستالين وفي الحكومة السوفياتية. وتركز اهتمام الناس منذ أيلول سنة ١٩٤٢ بمعركة ستالينجراد الذي احتدم فيها القتال في كل شارع وكل بيت، وأخيراً طوق الجيش السادس الألماني شباط سنة (١٩٤٢ فيها واستسلم بعد أن خسر الألمان ثلث مليون قتيل وجريح وأسيرا وكان هذا النصر نقطة الانقلاب في الحرب لأن قيادة الهجوم الروسي كانت أعطيت الى ستالين الذي أجبر الألمان على التراجع عن القوقاز في الشتاء، وفي أوائل الربيع وجد الألمان أنفسهم ينافلون في القرم وحول خاركوف.

(ب) ربح الحلفاء معركة المواصلات منذ خريف سنة ١٩٤٢ فأضحى باستطاعتهم تجميع قواهم حيث شاءوا وأن ينتقلوا من طور الدفاع الى الهجوم. وهكذا اختاروا الميدان الأفريقي وفي وقت واحد تقريبا سجلوا انتصارين فيه :

اذ استطاع الجيش الثامن الانجليزي بقيادة (مونتجمري) أكتوبر سنة (١٩٤٢) أن ينتصر في العلمين بعد معركة دبابات دامت عشرة أيام على الجيش الأفريقي المحورى ويرده على أعقابه.

انزال حملة شمال افريقيا :

فان الحلفاء أوصلوا في ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٢) قافلة من (٨٥٠) سفينة أنجلو – سكسونية عبر الأطلسى وأنزلوا ماتحمل من جنود وعتاد في أفريقيا الشمالية التي احتلوها بقيادة الجنرال أيزنهاور بعد مقاومة قليلة من ممثلى حكومة فيشى مؤكدين بذلك سيطرتهم على البحر المتوسط خاصة في الجو والبحر. – الانهيار الألمان (١٩٤٣ – ١٩٤٥) :

بدء النهاية

منذ أواخر سنة ١٩٤٢ أضحت قوات المحور في أفريقيا بين شقى الرحى، فمن الشرق هجوم اضطرها للتراجع الى برقة ومن الغرب جبهة تستعد للهجوم عليها من حدود تونس فاضطرت لخوض حرب خاسرة، وبالرغم من أنها خرقت خط (ماريت) واحتلت تونس فانها استسلمت في مايو سنة ١٩٤٣ . وقد جاء هذا النصر الحليف القريب من نصر ستالينجراد الروسي، مقويا للمعنويات لدى أعداء المحور وبه بدأت النهاية التي جاءت على مراحل : نزول الحلفاء في ايطاليا وانهيار موسوليني تابع الخلفاء سيرهم عبر ممر صقلية – تونس البحرى فنزلوا في ٣ آلاف سفينة في صقلية 10 يوليو سنة ١٩٤٣) ثم في البر الايطالي 3سبتمبر سنة ١٩٤٣ ولم يلقوا مقاومة تذكر من شعب أنهكته الحرب وأبغض النظام الفاشستي، وقد كانوا اتفقوا منذ نزولهم على أن يقوم المارشال باوليو بانقلاب عسكرى بنحى به موسوليني عن الحكم، وكان ذلك وسجن الدكتاتور حتى أنقذه الألمان بالطائرات، ولم يكن قد مضى خمسة أيام على نزول الحلفاء بايطاليا حتى عقدت معهم الهدنة، وأقامت الجمهورية ثم أعلنت الحرب على الألمان في ١٣ أكتوبر (١٩٤٣).

صدعت جبهتهم في الجبهة الروسية حاول الألمان في صيف سنة ١٩٤٣ أن يتخذوا لأول مرة خطة الدفاع، ولكن ضربات الجيش الروسي وسقط حوض الدينيبر ثم كييف بيد الروس، ولم يقف الهجوم الروسي في الشتاء اذ تابع سيره منذ ديسمبر سنة ١٩٤٣ بفرق جديدة فما طلع ربيع ١٩٤٤ حتى كانت جميع الأراضى الروسية تقريبا قد تحررت، وفي الصيف دخلت روسيا الى فنلندا وبولونيا ورومانيا.

– عقد المؤتمرات الكبرى :

رأى أقطاب الحلفاء منذ لاحت لهم بشائر النصر أن يجتمعوا لينسقوا خططهم الحربية، وكانت روسيا تلح عليهم بفتح جبهة ثانية فبدأ وزراء خارجية الدول الكبرى الثلاث انجلترا الولايات المتحدة روسيا) بالاجتماع في موسكو (١٩ – ٣٠) أكتوبر سنة (١٩٤٣) تمهيدا لاجتماع رؤساء تلك الدول الذي جرى في طهران في ٢٨ نوفمبر وحضره، روزفلت وستالين وتشرشل فدام ثلاثة أيام ووضعت فيه خطة مهاجمة «القلعة الأوربية.

وقبل هذا المؤتمر بأيام ٢٢ نوفمبر جرى مؤتمر القاهرة الذي اجتمع فيه روزفلت وتشرشل بزعيم الصين تشان كان تشيك، ووضعت فيه خطة طرد اليابان من المحيط الهادي ...

الجبهة الثانية والانهيار الألماني :

كانت الهزائم التي منى بها الألمان برا في روسيا وأفريقيا وايطاليا، وبحرا في حرب الغواصات بالأطلسي غير كافية لاستسلامهم، فشن الحلفاء عليهم هجوما رهيبا دونه معركة انجلترا سنة ١٩٤٠ دمروا به أكبر المدن الصناعية الألمانية، وعقد المواصلات والدفاع الساحلي وعطلوا معظم المطارات وتركوا ما يزيد على مليوني نسمة بلا مأوى في برلين المهدمة وهامبورج ودوسلدورف وكولونيا وحوض الرور . وبدأ الشلل يعتور آلة الحرب الألمانية في حين ظل الألمان يعلنون أن ألمانيا «قلعة لاتهاجم، ولكن الحلفاء استطاعوا الهجوم عليها ودك المقاومة الألمانية وارغامها على الاستسلام عن طرق أربع :

جبهة فرنسا التي عرفت باسم الجبهة الثانية: اختار الحلفاء النزول الى أوربا في ساحل نورماندي الفرنسي على المانش فعينوا أيزنهاور قائدا أعلى، واستعانوا على ذلك بالموانىء الاصطناعية التي ابتكروها، وبدأت عمليات الجبهة الثانية (في ٤ يونيو سنة (١٩٤٤ فتقدم الحلفاء في فرنسا تساعدهم قوات المقاومة (الماكي) ودخلوا باريس 25 أغسطس التي أخلاها الألمان متجهين نحو الشرق وفي أيلول كان الحلفاء قد احتلوا بلجيكا وهولندا ووصلوا الحدود الألمانية. ولم يستطع الألمان الاستفادة من القنابل الطائرة التي ألقوا منها ٨ آلاف قنبلة على انجلترا من الشواطىء الأوربية القريبة ودخل الحلفاء (ايكس لاشابل) أول مدينة ألمانية 27 أكتوبر من المقاومة التي أبداها الألمان بقيادة فون رونشتدت هذه المقاومة التي لم تسقط معها كولونيا، على الرين حتى ٦ مارس سنة ١٩٤٥ فان الخلفاء استطاعوا بعد ذلك معاودة الهجوم في فبراير سنة (١٩٤٥ والوصول الى برلين 7 مايو سنة ١٩٤٥). **جبهة ايطاليا** : ولم يؤثر انسحاب ايطاليا من المحور وانضمامها إلى الحلفاء تأثيرا كبيرا على ألمانيا، ولم يقم الحلفاء كبير وزن لجبهة ايطاليا أيضا فلم يصلوا الى روما إلا في ٤ يونيو، وكان تقدمهم بطيئا والمقاومة لهم قوية حتى وصلوا شمالي ايطاليا في مارس سنة ١٩٤٤.

جبهة البلقان : كانت بلغاريا والمجر ورومانيا في جانب الألمان فهاجمها الروس منذ وصلوا الى ماوراء حدودهم وأرسلوا المارشال تيتو للعمل في يوغوسلافيا وحرموا ألمانيا من موارد البترول الكبرى. فلما شهد ذلك البريطانيون أسرعوا الى النزول باليونان أكتوبر وبالرغم من أن الحزب الديمقراطى المتطرف (ايلاس) قد قاوم الاحتلال البريطاني فان الجيش الانجليزي قضى عليه وقوى حزب ايام وما تزال اليونان تقاسي ويلات ذلك الاحتلال والنضال بين الطرفين الى اليوم.

جبهة روسيا : استفاد الروس من ضغط الجبهة الثانية على الألمان فاستطاعوا الهجوم على الأرض الألمانية دون كبير مقاومة واجتازوا نهر الفستولا ونهر الأودر وبدءوا باحتلال برلين منذ ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٥ بعد أن احتلوا قبل عشرة أيام فيينا).

مؤتمر بالتا واستسلام المانيا واليابان : رأي الحلفاء قرب نهاية الحرب فرغبوا في تنسيق تدابيرها الأخيرة ووضع أسس اقتسام المانيا.

اقتسام ألمانيا

بعدها فعقدوا مؤتمر يالتا في شبه جزيرة القرم (٤ – ١٢ فبراير سنة ١٩٤٥ وقد حضرة ستالين وروزفلت وتشرشل وقبل الحلفاء بشرط روسيا وأهمها منطقة نفوذها في ألمانيا والاعتراف فقط بالحكومات التي أقامتها في بولونيا ويوغوسلافيا دون ما في لندن من حكومات حرة ، ثم اجتمع تشرشل وروزفلت برجال الشرق العربي : فاروق الأول وابن سعود ورئيس الجمهورية السورية واتفقوا معهم على اعلان البلاد العربية الحرب على ألمانيا وعلى الدخول في هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب. وأعلن الحلفاء منذ تقدموا في أوربا أنهم لا يقبلون من ألمانيا الا الاستسلام دون قيد ولا شرط وللحلفاء جميعا معا فظل الألمان يقاومون حتى برلين التي بدأت معركتها في ٢٢ أبريل ١٩٤٥ ، وأعلن في ٣٠ منه اختفاء هتلر في ظروف غامضة لعلها انتحار وكان موسوليني قد لقى حتفه في ايطاليا قبل يومين كما أن روزفلت كان قد سبقهما منذ ١٢ أبريل وحل محله في الرئاسة نائبه ترومان، وبرغم استلال الأميرال دونتز قيادة الرايخ الثالث فانه اضطر لطلب الاستسلام الذي وقعه مندوبون عسكريون عن المانيا في مدرسة صغيرة بريمس في ٧ مايو سنة ١٩٤٥ واستطاع الحلفاء الآن ان ينصرفوا لحرب اليابان وحدها.

وقد كانت الحرب معها طويلة وشاقة واسعة الجبهة فيما بين المحيطين الهندي والهادي، فتمكن الحلفاء من احتلال بعض الجزر اليابانية (من أرخبيل ريوكيو) بعد حرب دامت ثلاثة شهور ومنذ ١٤ يوليو سنة ١٩٤٥ بدأت الأساطيل الانجليزية والامريكية بضرب اليابان واخيرا قرر رئيس الولايات المتحدة استعمال السلاح الحربي الجديد الذي ظلت تعمل بلاده له منذ عام ١٩٤١ حتى نجح وربحت به حرب المختبرات على ألمانيا نفسها وهو القنبلة الذرية) فأنذرت اليابان بالاستسلام دون قيد ولا شرط، ولما لم تجب ألقيت 6 أغسطس سنة ١٩٤٥ القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما فدمرت كل المدينة وأنتجت ١٩٠ ألف ضحية، ثم ألقيت الثانية بعد ثلاثة أيام على اليابان للاستسلام فعرضته (في ١٠ اغسطس ثم وقعته في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ واحتلت الجيوش الأمريكية بلادها جميعا .

نتائج الحرب :

لم يحن الحين بعد لاستقصاء نتائج الحرب العالمية الثانية فانا لا نزال في غمرة تلك النتائج ولكنا نستطيع أن تتبين من الوجهة السياسية.

أولا : رجوع أوربا الى المكان الثاني بين القارات وبروز أمريكا الشمالية وآسيا، وانقسام العالم الى معسكرين تتزعم الأول روسيا والثاني الولايات المتحدة واحتلال هذين المعسكرين للقارة الأوربية مناصفة وللشرق الأقصى، وحددت نقاط توافق و خلاف بينهما في برلين واليونان وفي الصين وكوريا ظهر صداه بوضوح في هيئة الأمم المتحدة.

ثانيا : انقلاب أوضاع بعض الدول فاحتلت دول أوربا الوسطى من قبل الحلفاء، وتحول بعض البلاد من الملكية الى الجمهورية (كايطاليا واليونان) وتأسست الجمهورية الرابعة في فرنسا وتحول عدد من الدول أخيرا الى النظام الشيوعي، راغبة أو بالرغم منها كبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وقسم من ألمانيا والنمسا ثم يوغوسلافيا وبلاد البلقان عداااليونان ثم الصين كلها بما في ذلك التيبت بزعامة ماوتسى تونج وأخيرا جاء دور كوريا واستقلت معظم المستعمرات في آسيا وأفريقيا كسوريا ولبنان والهند التي تشكل منها دولتان مستقلتان : الهند والباكستان، ثم اندونيسيا وتخلصت من نير الدول الأوربية العتيقة كما استقلت معظم المستعمرات الأفريقية.

وأما من الوجهة العلمية فان هذه الحرب الأخيرة ككل الحروب الأخرى قديما وحديثا دفعت بالابتكار الانساني الى الأمام، فقد تقدم الطيران، وصناعة الآليات والفن العسكري في التنظيم والدعاية وطرق الحرب. وأهم من هذه كله أن الحرب بما كسبت في المختبرات حين سيطر العلماء على الطاقة الذرية واستخدموها في قنبلة.

وأما من الوجهة الاقتصادية : فانا لاتزال تسمع الصيحة التي ظهرت في نهاية الحرب من بناء عالم جديد فقد طلعت حقول الزراعة، ومعامل الصناعة، والمبادلات التجارية وطرق المواصلات البحرية خاصة البرية والجوية خلال الحرب. وتحولت كلها للأغراض الحربية. هذا الى التضخم في النقد الذي أصيبت به معظم الدول وتدنى أسعاره والى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا، والى مشاكل الفقر والبطالة وما تهدد المصانع الأمريكية خاصة من خطر الافلاس لعدم امكان تصريف المنتجات الصناعية وهذا ما اضطرت أمريكا لمعالجته في مشروع مارشال مثلا الذي حاولت به ايقاف الاقتصاد الأوربى على قدميه ليتمكن من شراء بضائعها المتراكمة ولن يخرج مشروع انعاش الشرق الأوسط وغيره عن هذا الهدف.

وأما في الحياة الاجتماعية : فنستطيع أن نضيف موجة التخريب الهائلة التي دمرت المدن الكبرى والقرى أنقاضا، واضطرار العالم اليوم لأن يعمل بالتعمير والاغاثة ثم موجة القتل الهائلة التي خسر بها العالم مالا يقل عن ثلاثين مليون ضحية عدا الجرحى والمشوهين وذوى العاهات هذا عدا ظهور المشاكل الاجتماعية الكبرى في الأمم القديمة واتجاها للاشتراكية (كانجلترا وفرنسا).

٢ – مؤتمر الصلح :

فلم يبدأ بعقده الا في ٢٩ يوليو عام ١٩٤٦ ، وقد عقد وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى "روسيا الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا"عدة اجتماعات لوضع مشروعات معاهدات الصلح قبل عرضها على مؤتمر الصلح الذي اجتمع في باريس وحضرته احدى وعشرون دولة. وظهرت منذ المناقشات الأولى اختلاف وجهات النظر بين روسيا ومن يدور في قطبها من الدول، وبين الجبهة الأنجلو سكسونية ومن يسير معها أيضا، ولهذا لم ينته مؤتمر الصلح إلى اليوم من أعماله والمشاكل التي عليه أن يحلها أقسى من أن يسمح الصراع العالمي الحالي بالتغلب عليها كمشاكل ألمانيا المستعمرات الايطالية واليابانية ومشاكل تريستا والمضايق التركية والحدود الفرنسية – الايطالية والفرنسية – الألمانية، وحوض الرور، ومشاكل البلقان والحدود بين دولها المختلفة وقومياتها المتنافرة. هذا عدا مشاكل الشرق في الصين والتيبت والهند الصينية واندونيسيا، وتنازع الهند وباكستان، واصطدام انجلترا وروسيا في ايران.. وانما يزيد في تعقيد هذه المسائل اختلاف وجهات النظر بين الدول الكبرى هذا الاختلاف الذي انتهى مصير ومصير بحرب مقنعة في كوريا قد تهدد العالم كله بعد أن أعلنت الولايات المتحدة أخيرا قبل نهاية عام ١٩٥٠ حالة الطوارىء .

التجاء العالم السياسي :

يتجه العالم السياسي في تطوره الحديث منذ قرنين نحو الوحدة، ويمكن أن نلاحظ هذه الوحدة : في ذلك النمو الاقتصادي الذي بدأ بالانقلاب الصناعي في انجلترا وما لبث أن عم العالم وغير أسالب الانتاج والتوزيع والاستهلاك في الزراعة والصناعات والتجارة على السواء، وربط العالم بعضه مع بعض في مواصلات سريعة قريبة تطور خطوطها الجوية والبحرية والبرية خاصة أطراف الكرة الأرضية. جميع في تقدم العلم وتعميمه وشيوع ثقافة واحدة في كل أقطار الأرض وبالرغم مما نراه ظاهريا من ثقافة أنجلو سكسونية وأخرى فرنسة . الخ فان روحا واحدة تكمن وراءها وتغذيها هي أنها جميعا ثقافة غربية تعتز بشكسير الانجيزي اعتزازها بجوله ودوستويفسكي الروسي ودانتي الايطالي وباستور الفرنسي.

في تشابه الوضع السياسي بكل العالم فمنذ أعلنت الثورة الفرنسية أعلنت حقوق الانسان الطبيعية وظهر الاهتمام بالانسانية وجعلت مشاكل العالم تأخذ طابعا دوليا متزايد الارتباط والتشابك كما في مؤتمر فيينا وثورات عام ١٨٣٠ ثم عام ١٨٤٨ ثم تشابك العلاقات الدولية الذي مثله بسمارك خير تمثيل، وأخيرا انفجارا الحرب الأولى واضطرار مختلف دول الأرض للاشتراك بها حتى ظهرت أول مؤسسة دولية عالمية : عصبة الأمم، وكان طبيعيا أن تفشل باعتبارها تجربة أولى فلما اشتعلت الحرب الثانية وقد كانت أكثر من الأولى عالمية واتساعا كان طبيعيا أن تظهر مؤسسة دولية ثانية أقوى هي منظمة الأمم المتحدة اليوم يعاونها مجلس الأمن. وقد يظهر اتجاه التوحد في العالم ظهورا أقوى واذا نحن تذكرنا سير جميع الدول نحو النظم الاشتراكية مثلا سواء بسواء أو تذكرنا زعامة العالم كانت في القرن التاسع عشر ضائعة وأنها تركزت بعد الحرب الأولى في عدة دول أوربية. بينما هي اليوم في قبضة دولتين: روسيا والولايات المتحدة. واذا تعثرت الوحدة العالمية اليوم بين المعسكرين فانها لابد آتية. فلقد عين منذ عهد غير بعيد شعار: والعالم الواحدة.

ثالثاً : منظمة الأمم المتحدة

في سنة ١٩٤٣ حين كانت نهاية الحرب في أرجوحة القدر، كانت المؤتمرات التي تجمع الدول الكبرى تبحث في خطوط كسب الحرب بينما غدت في سنة ١٩٤٤ تبحث في خطوط ما بعد الحرب وأهمها مؤتمر دومبرتون أوكس Dumber ton Oaks الذي عقده مندوبو روسيا والولايات المتحدة والصين وانجلترا بواشنطن في سبتمبر سنة ١٩٤٤) وكانت دلائل النصر قد استبانت فبحثوا في تنظيم السلم، واقترحوا في تأسيس منظمة عالمية تتنظم دول الأرض على أن تساندها القوة. وفي مطلع عام ١٩٤٥ وجهت الدعوات لمؤتمر تمهيدي لوضع ميثاق تلك المنظمة ودعيت اليه سوريا ولنبان بعد احتجاج اذ لم تدعيا أول الأمر برغم اعلانها الحرب على المحور واجتمعت في مؤتمر سان فرنسيسكو وفود (٥١) دولة بعد وفاة الرئيس روزفلت بأسبوعين، واستمر شهرين بين ٢٥أبريل و ٢٦ يونيو وبينما كانت جيوش الحلفاء تدخل المانيا وبرلين كان المؤتمرون يناقشون في ميثاق المنظمة الذي جاء في تسعة عشر فصلا تملأ ١٥٨ صفحة ويلحق به التواقيع التي بدأت توقع عليه منذ ٢٦ يونيو حتى ٢٤ أكتوبر وفي أولها توقيع ممثل الصين لأن دولته كانت أول ضحايا الاعتداء. وقد ذكرت المادة الأولى من الميثاق أهداف منظمة الأمم المتحدة وحددتها كما يلي:

- صيانة الأجيال القادمة من الحروب.

- تأمين احترام حقوق الانسان الأساسية.

- حفظ كرامة الكائن الانساني وقيمته. المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل. المساواة بين الأمم الصغيرة والكبيرة. احترام المعاهدات وقواعد القانون الدولي العرفية. – تأكيد سيادة العدالة.

- مؤازرة التقدم الاجتماعي للوصول لحياة أفضل.

أما وسائل المنظمة لتحقيق أهدافها فهي :

- مباشرة التسامح والسلام بين الدول.

- اتحاد الشعوب الحرة لصيانة الأمن والسلام.

- قبول وضمان الأساليب المؤدية لنبذ استعمال القوة في المشاكل الدولية الا فيما المصلحة العامة .

- اللجوء إلى المؤسسات الدولية لتأمين التقدم الاقتصادي والاجتماعي. وأما فروع المنظمة فقد فصلتها المادة السابعة من الميثاق كما يلي: الهيئة العامة لجميع ممثلى الدول الأعضاء.

مجلس الأمن. المجلس الاقتصادي الاجتماعي. مجلس الوصاية .

محكمة العدل الدولية. – هيئة الأمانة العامة .

وأهم هذه الفروع دون شك مجلس الأمن ويتألف من أحد عشر عضوا، (وقد أصبحوا خمسة عشر عضوا) خمسة منهم دائمون وهم انجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين وستة (وبعدها عشرة تنتخبهم الهيئة العامة لمدة سنتين يراعى فيهم التوزيع الجغرافي ولا يجدد انتخابهم فورا، وعلى هذا المجلس تقع المسئولية الرئيسية لصيانة السلام والأمن العالمي، فهو يضع خطط تحديد التسليح ويحقق في المنازعات ويقدم التوصيات أو يقرر اتخاذ التدابير القسرية في حالة تعكير احدى الدول للسلام ويساعده في المسائل العسكرية لجنة من أركان حرب الدول الدائمة، وقد انتخبت مصر عضوا في مجلس الأمن كما انتخبت سوريا لعضويته ويعتبر ميثاق سان فرانسيسكو حدثا عالميا هاما اذ لاشك أنه أعظم وثيقة سياسية في التاريخ. وقد سماه اللورد هاليفاكس مندوب بريطانيا) وثيقة السلم والعدل والتسامح والعمل.

وقد يذكرنا الميثاق بالحل المقدس سنة ١٨١٥ أو بعصبة الأمم، والواقع أنه لا يشبه الحلف المقدس الا في أن الاثنين وضعا خلال فترة حرب، وأما في المبادىء

والأسس والأهداف فهو أقرب لعصبة الأمم، على أن منظمة الأمم المتحدة التي أقامها الميثاق سنة ١٩٤٥ تزيد عن العصبة في عدة نقاط أهمها: -

2 - تؤكد المنظمة في أهدافها الحقوق البشرية الأساسية وكرامة الانسان والمساواة بين الجنسين وبين الدول وهو ماليس يوجد في العصبة.

٢ – جميع الدول العظمى أعضاء في المنظمة في حين لم تكن الولايات المتحدة ولا روسيا أعضاء في العصبة. يؤيد المنظمة في تدابيرها قوة بوليسية دولية تضعها الدول تحت تصرفها وتستطيع اللجوء الى المقاطعة والمنع والحرب في البر والبحر والجو عند الحاجة، وعدم وجود هذه القوة بيد العصبة هو الذي هدمها، وقد بدأت منظمة الأمم المتحدة عملها منذ سنة ١٩٤٦ واتخذت لنفسها علما وشعارا وتقيم اليوم لنفسها مقرا في ليك سكسس قرب نيويورك، كما اجتمع مجلس الأمن عدة اجتماعات بشأن الدول العربية (قضية استقلال سوريا ولبنان وقراره بالجلاء عنهما – وقضية فلسطين والتقسيم والهدنة) كما بحث قضية مصر مع انجلترا اضافة الى قضايا أخرى بشأن اليونان واندونيسيا وايران وكوريا .

الفصل السادس

الحرب الباردة

- تداعيات الحرب الباردة.
- الصراع بين الدول المتحالفة.
- ترسيم الحدود.
- سباق التسلح.
- العالم الثالث وسياسات الحرب الباردة.
- الحرب الباردة بالداخل.
- تأثير الحرب الباردة داخل أوروبا.

الحرب الباردة

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية 1945 ، انقسم العالم إلى معسكرين شرقي اشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي، وغربي رأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث عاد الصراع بينهما بعد هدوئه اثناء الحرب العالمية الثانية، وهذا الصراع المذهبي العقائدي

عرف في القاموس السياسي بالحرب الباردة. بحيث برزا بقوة على المسرح الدولي، وانتشر هذا الصراع في مختلف مناطق العالم منها منطقة الشرق الأوسط، وكان لهذا الصراع انعكاسات هامة بحكم الموقع الجغرافي الاستراتيجي الهام في العالم، كما يعد من أكبر المناطق الحيوية في الاقتصاد من حيث الملاحة البحرية والموارد الطبيعية خاصة النفط، مما دفع بالدول الأجنبية للسيطرة والصراع الايديولوجي على مقاليد الهيمنة العالمية للمنطقة، التي أصبحت مسرحا للصراعات الدولية وبؤرة توتر من بؤر الحرب الباردة التي دامت من 1945م إلى.1991م

هي صراع تمتنع من خلاله الأطراف المتنازعة عن اللجوء على السلاح بطريقة مباشرة، بمعنى انها الحرب التي تستخدم فيها الأطراف المتعادية كل أنواع القوة المستطاع ماعدا القوات المسلحة بقصد إرغام العدو على التسليم لإدارة الطرف المنتصر وتسود خلال فترة هذه الحرب حالة من التوتر الشديد في العلاقات بين الأطراف المتنازعة .

والحرب الباردة من وجهة نظر أخرى تعني وجود تناقضات جذرية في المصالح وتباين في مضمون المعتقدات الأيديولوجية التي تعتنقها كل من الكتلتين. وهناك من يرى على أنها حالة من حالات الصراع غير المسلح في ظل متوتر بين جانبين يستهدف كل جانب تقوية نفسه وإضعاف الجانب الآخر بكل الوسائل بمعنى هي كل صراع لا يصل الى حد القتال يسخر له كل المعسكرين الشرقي والغربي كل أساليب الضغط من أجل الحصول على مكاسب مادية وأخرى معنوية.

ويعرفها أحمد نوفل فيقول:

إن الحرب الباردة هي سياسة القيام بإيقاع الشقاق في العالم بكل الوسائل غير المستخدمة في الحرب الفعلية مع عدم توريط الدول الكبرى في صراع مع بعضها البعض".

وبناء على هذه التعريفات يمكن ان نقول بأن الحرب الباردة هي إدخال الرعب في صفوف العدو، وإرهاقه وإهدار موارده حتى يرى انه غير قادر على مجاراة عدوه فيقع في الهزيمة دون ملاقاة مباشرة.

تحالف يشوبه الضعف

كان زواج المصلحة الكلاسيكي الذي جرى إبان الحرب على صورة تحالف بين كبرى القوى الرأسمالية والمناصر الأكبر لثورة الطبقة العاملة مشوبا منذ البداية بالتوتر وفقدان الثقة والريبة. وبخلاف الهدف المشترك المتمثل في هزيمة ألمانيا النازية، لم يكن هناك ما يعزز هذه الشراكة المولودة بدافع من الضرورة والمثقلة بماض مليء بالصراع. لقد أظهرت الولايات المتحدة عداوة متواصلة للدولة السوفييتية منذ اندلاع الثورة البلشفية التي جاءت بها إلى الوجود ومن جانبهم، نظر قادة الكرملين إلى الولايات المتحدة بوصفها زعيمة القوى الرأسمالية التي سعت لوأد نظامهم وهو في مهده تبع هذا ضغوط اقتصادية وعزلة سياسية، إلى جانب شجب متواصل من طرف الناطقين بلسان الحكومة الأمريكية للحكومة السوفييتية وكل ما تمثله. ولم يفلح اعتراف الولايات المتحدة المتأخر بالاتحاد السوفييتي، الذي جاء بعد سبعة عشر عاما من ظهوره للنور، في تخفيف الضغائن المتراكمة، خاصة أن جهود ستالين لإقامة جبهة مشتركة أمام ألمانيا هتلر البازغة في أواسط وأواخر الثلاثينيات لم تقابل إلا بالتجاهل من طرف الولايات المتحدة والقوى الغربية. وبسبب خذلان الغرب له مجددًا وتركه وحيدًا في مواجهة الذئاب الألمانية، على الأقل من وجهة نظره وافق ستالين على إقامة الحلف النازي السوفييتي في عام ١٩٣٩ كسبيل الحماية دولته بالأساس.

ومن جانبها، دخلت الولايات المتحدة حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى وهي لا تحمل سوى الازدراء لذلك النظام العنيد الذي لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، الذي صادر الممتلكات وأنكر ديون ما قبل الحرب وتعهد بدعم ثورات الطبقة العاملة في العالم. لم يخش المخططون الاستراتيجيون الأمريكان القوة العسكرية التقليدية للاتحاد السوفييتي. التي كانت محدودة دون شك، لكنهم خشوا من أن تروق الرسالة الماركسية اللينينية للجماهير المضطهدة في الدول الأخرى – بل في الولايات المتحدة نفسها ومن التمرد الثوري وما يستتبعه من عدم استقرار. وبناءً عليه عملت واشنطن على احتواء فيروس الشيوعية وعزل أنصاره في موسكو خلال العشرينيات وأوائل الثلاثينيات. يقول الرئيس هربرت هوفر في مذكراته إن الأمر كان أشبه بوجود جار فظ خبيث. إننا لم نهاجمه، لكننا لم نعلن قبولنا لشخصيته من خلال دعوتنا له إلى منازلنا. ولم يغير الاعتراف الدبلوماسي الذي تم في عام ١٩٣٣ في عهد إدارة

روزفلت، الذي حثت عليه حسابات تجارية وأخرى جيوسياسية، من الصورة إلا قليلا. وظلت العلاقات السوفييتية الأمريكية فاترة إلى أن خرق هتلر تحالفه مع السوفييت في يونيو عام ١٩٤١. وقبل ذلك، كان الحلف الشيطاني بين ألمانيا وروسيا قد زاد من النفور الأمريكي من نظام ستالين. وحين استغل الديكتاتور السوفييتي الغطاء الألماني على نحو انتهازي واعتدى على بولندا ودول البلطيق وفنلندا في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، زادت المشاعر المعادية للشيوعية في جنبات المجتمع الأمريكي.

في أعقاب الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي تراجع النفور الأيديولوجي أمام متطلبات الواقعية السياسية وسريعا ما أدرك روزفلت وكبار الاستراتيجيين المزايا الجغرافية الاستراتيجية العظيمة التي ستعود على الولايات المتحدة بفضل قدرة الاتحاد السوفييتي على مقاومة العدوان الألماني؛ إذ خشوا بالمثل من القوة المتقدمة التي ستحصل عليها ألمانيا حين تتمكن من إخضاع بلد غني بالموارد كالاتحاد السوفييتي. ومن ثم، وبداية من صيف عام ١٩٤١ ، بدأت الولايات المتحدة في شحن الإمدادات العسكرية إلى الاتحاد السوفييتي من أجل دعم الجيش الأحمر. كان جوهر سياسات روزفلت بداية من يونيو 1941م وصاعدًا، كما عبر عنه المؤرخ فالدو هاينريش بكفاءة، هو «الاقتناع بأن بقاء الاتحاد السوفييتي كان أمرًا ضروريًا لهزيمة ألمانيا، وأن هزيمة ألمانيا كانت أمرا ضروريا الأمن الولايات المتحدة». وحتى تشرشل، المعارض الأصيل للشيوعية، أدرك على الفور الأهمية الحرجة لبقاء الاتحاد السوفييتي للصراع ضد العدوان الألماني. وقد قال مازحا: لو غزا هتلر الجحيم، فسأذكر إبليس بالخير في مجلس العموم.

وهكذا وجد الأمريكان والسوفييت والبريطانيون فجأة أنهم يحاربون عدوا مشتركا، وهي الحقيقة التي أخذت صورتها الرسمية مع إعلان هتلر الحرب على الولايات المتحدة بعد يومين من الهجوم على بيرل هاربر تدفق ما يزيد عن أحد عشر مليار دولار من المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفييتي خلال الحرب، وهو ما يمثل أكبر تجسيد ملموس لحس المصلحة المشتركة الجديد الذي جمع بين واشنطن وموسكو في الوقت ذاته جاهدت الآلة الدعائية الحربية التابعة للحكومة الأمريكية للتخفيف من صورة «العم جو» ستالين والنظام البغيض الذي أبغضته فترة طويلة.

ومع هذا فالأسئلة المتعلقة بكيفية ومكان وتوقيت قتال العدو الألماني المشترك ولدت الخلاف على الفور داخل التحالف العظيم ضغط ستالين على حلفائه الإنجليز والأمريكيين من أجل فتح جبهة رئيسية ضد الألمان بأسرع ما يمكن كي تخفف

الضغط العسكري الشديد عن بلاده لكن بالرغم من وعود روزفلت بالقيام بذلك اختارت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى عدم فتح جبهة رئيسية ثانية إلا بعد مرور عامين ونصف العام على بيرل هاربر، وفضلوا عوضا عن ذلك الدخول في عمليات عسكرية هامشية أقل مخاطرة في شمال أفريقيا وإيطاليا في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣. وحين علم ستالين في عام ١٩٤٣ أنه لن تفتح جبهة ثانية في شمال غرب أوروبا لمدة عام آخر، كتب غاضبا إلى روزفلت يقول له إن ثقة الحكومة السوفييتية في حلفائها ... معرضة لضغط شديد». ثم طالب بقوة بالانتباه إلى «التضحيات الهائلة التي تقوم بها الجيوش السوفييتية، والتي تبدو تضحيات الجيوش الإنجليزية والأمريكية مقارنة بها تافهة. من غير المستغرب ألا يكترث ستالين البتة بالمشكلات التي يعانيها حلفاؤه من حيث الإمداد والاستعداد. كان لديهم رفاهية الانتظار قبل أن يكتووا بنيران القوة المسلحة الألمانية العاتية، أما الروس فلم يكن لديهم هذه الرفاهية. شك ستالين في أن حلفاءه المزعومين لم يولوا التخفيف عن السوفييت أولوية قصوى، وقد كان محقا بالتأكيد لأن الأمريكيين والبريطانيين كانوا يفضلون أن يموت السوفييت في الحرب ضد هتلر إذا كان هذا يعني أن يعيش المزيد من جنودهم. وحتى بداية غزو الحلفاء الذي أجل طويلا لساحل نورماندي الذي تحتله ألمانيا في يونيو ١٩٤٤، كانت القوات السوفييتية تقاتل أكثر من ٨٠ بالمائة من القوات المسلحة الألمانية المعروفة باسم فيرماخت وحدها.

المتعلقة بشروط السلام المفروضة على ألمانيا وحالة أوروبا الشرقية على الترتيب. في مؤتمر طهران الذي عقد إبان الحرب، في نوفمبر ١٩٤٣ ، وفي العام التالي فرض ستالين على روزفلت وتشرشل قناعته بأن ألمانيا ستستعيد قوتها الصناعية والعسكرية بعد انتهاء الحرب بوقت قصير وستمثل مجددًا خطرًا قاتلا على الاتحاد السوفييتي. وبناء عليه طالب الزعيم الروسي بقوة بفرض سلام قاس يجرد ألمانيا من مناطقها وبنيتها التحتية الصناعية على السواء. كان من شأن هذا النهج أن يرضي الحاجة المزدوجة للسوفييت الممثلة في كبح جماح ألمانيا في الوقت نفسه الذي يقتطع فيه منها مساهمات كبيرة موجهة لجهود إعادة الإعمار السوفييتية. أظهر روزفلت عدم استعداده للالتزام الكامل بمقترحات ستالين العقابية، مع أنه أخبر ستالين أنه هو أيضًا يرى فائدة في نزع سلاح ألمانيا على نحو دائم. في الواقع، لم يكن الخبراء الأمريكيون قد حسموا قرارهم، حتى تلك اللحظة، باختيار أحد بديلين متباينين: إما سحق الدولة التي سببت هذا القدر من الخراب، أو معاملتها بكرم، واستخدام فترة الاحتلال المتوقعة في المساعدة على تشكيل ألمانيا جديدة يمكنها أن تلعب دورًا بناءً في أوروبا ما بعد الحرب، مع تسخير مواردها وصناعتها في المهمة العملاقة لإعادة إعمار أوروبا الممزقة بفعل الحرب. وبالرغم من موافقة روزفلت

المبدئية على النهج العقابي، فقد ظلت القضية أبعد ما تكون عن الحسم، وهو ما ستوضحه التطورات التالية على نحو مؤلم.

وبالمثل، استعصت قضايا أوروبا الشرقية، التي مست على نحو مباشر المصالح الأمنية الحيوية السوفييتية على الحل اليسير نظريا وعمليا ارتضى الأمريكيون والبريطانيون وجود منطقة نفوذ سوفييتية في أوروبا الشرقية بمعنى أن يحظى الاتحاد السوفييتي بنفوذ غالب في أوروبا الشرقية. في مثال بسيط على دبلوماسية منطقة النفوذ إبان الحرب اتفق تشرشل وستالين في نوفمبر ١٩٤٤ مؤقتًا على اتفاقيات الحصص سيئة السمعة التي قصد منها تقسيم السواد الأعظم من البلقان إلى مناطق نفوذ بريطانية وروسية. لم يوقع روزفلت قط على تلك التسوية المؤقتة؛ لأنها كانت تمثل خرقا فاضحا لمبادئ حق تقرير المصير الحر الديمقراطي التي شكلت حجر أساس الخطط الأمريكية للنظام السياسي لحقبة ما بعد الحرب. لكن لم يكن بالإمكان تفادي هذا الأمر. وقد جسدت بولندا، التي أشعل الغزو الألماني الروسي لها جذوة الحرب في أوروبا، الطبيعة الصعبة للمشكلة. سعت حكومتان بولنديتان متنافستان للحصول على الاعتراف الدولي خلال سنوات الحرب إحداهما مقرها لندن ويتزعمها القوميون البولنديون المناهضون بشدة للاتحاد السوفييتي، والثانية في مدينة لوبلين البولندية، وكانت مجرد واجهة لا أكثر يتحكم فيها النظام السوفييتي. في مثل هذا الاستقطاب السياسي، لم تكن هناك أرض مشتركة، ومن ثم لم يكن هناك مجال أمام روزفلت للوصول لحل وسط في هذه القضية كما اعتاد أن يفعل في الصراعات السياسية المحلية.

الصراع بين الدول المتحالفة : ١٩٤٥-١٩٤٧

في غضون أسابيع من اختتام جلسات المؤتمر، اهتزت روح مؤتمر يالطا لدى الأمريكيين والإنجليز بسبب عدم رضاهم عن الأفعال السوفييتية في أوروبا الشرقية. فأمور مثل قمع السوفييت الفظ الوحشي للبولنديين غير الشيوعيين، والأفعال الغاشمة في بلغاريا ورومانيا والمجر، وجميعها تحررت حديثا على يد الجيش الأحمر، مثلت في نظر تشرشل وروزفلت خرقا لاتفاقيات بالطا. حث تشرشل روزفلت على أن يجعل من بولندا سابقة مرجعية بيننا وبين الروس». إلا أن الزعيم الأمريكي بالرغم من انزعاجه المماثل من سلوك ستالين رفض هذا؛ إذ ظل مقتنعًا حتى أيامه الأخيرة بأنه من الممكن الحفاظ على علاقات متبادلة معقولة مع الروس. وحين توفي روزفلت في الثاني عشر من أبريل جراء الإصابة بنزيف في المخ، وقع عبء تلك المسئولية الثقيلة على عاتق هاري إس ترومان عديم الخبرة. لا يزال الباحثون يختلفون بشأن مقدار الاختلاف الحقيقي الذي أحدثه تغير القيادة الأمريكية في ذلك

المنعطف الخطير من مسار العلاقات الأمريكية السوفييتية. بالتأكيد بدا ترومان أكثر استعدادًا من سابقه للقبول بتوصيات مستشاريه من الصقور الذين نصحوه بأن التزام الشدة مع الروس من شأنه أن يساعد الأمريكيين على تحقيق ما يريدونه. وفي تعليق يكشف الكثير ويكثر اقتباسه عن ترومان، قال الرئيس الأمريكي في العشرين من أبريل إنه لا يرى سببًا يمنع الولايات المتحدة من الحصول على ٨٥ بالمائة مما تريده في القضايا المهمة. بعدها بثلاثة أيام دعا على نحو فظ وزير الخارجية الروسي في إم مولوتوف للتأكد من أن بلاده ستفي باتفاقاتها فيما يخص بولندا صار تشرشل أيضًا أكثر انزعاجا مما

وصفه بالقسوة والاستئساد السوفييتيين، وهو ما مهد الطريق لاجتماع حاسم للثلاثة الكبار في ألمانيا التي مزقتها الحرب.

في يوليو ١٩٤٥، بعد شهرين من استسلام ألمانيا، بذل زعماء الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي خطوة أخرى لتسوية الخلافات بينهم – وكانت لها نتائج متباينة – وذلك خلال آخر المؤتمرات الكبرى المنعقدة خلال الحرب. تناول الاجتماع المنعقد في ضاحية بوتسدام الألمانية التي سواها القصف بالأرض، نطاقا عريضا من

القضايا، منها التعديلات الحدودية في شرق آسيا والتوقيت المحدد لدخول السوفييت حرب المحيط الهادي. لكن القضايا الشائكة، تلك التي هيمنت على المؤتمر الذي امتد أسبوعين كانت تدور حول تسويات ما بعد الحرب في أوروبا الشرقية وألمانيا اغتنم ستالين واحدًا من أهم أهدافه الدبلوماسية في بداية جلسات المؤتمر الاعتراف الأمريكي الإنجليزي بالنظام القائم حديثا في وارسو. شعر حلفاؤه الكبار بأنه لا مناص أمامهم من القبول بالأمر الواقع في بولندا التي يسيطر عليها السوفييت بالرغم من التوسع الفظ في الحدود الغربية لبولندا ليضم أراضي ألمانية سابقة. لكنهم رفضوا الاعتراف بنظم مماثلة تابعة للاتحاد السوفييتي في بلغاريا ورومانيا. إلا أن المؤتمر أسس مجلس وزراء الخارجية» الهادف إلى معالجة تلك القضايا الإقليمية وغيرها من القضايا التي ستتمخض عنها الحرب في اجتماعات مستقبلية ولوضع مسودات المعاهدات السلام لقوات المحور المهزومة. أحدثت ألمانيا – أو القضية الكبرى كما سماها تشرشل على نحو ملائم - جدلا شديدًا قبل أن ينقذ الحل الوسط الذي رعته الولايات المتحدة فعاليات المؤتمر من الوصول إلى طريق مسدود على الرغم مما أدى إليه هذا الحل من انقسام اقتصادي للبلاد. ظهرت مشكلة التعويضات مجددًا كعقبة أساسية. قوبل طلب ستالين بالعشرة مليارات دولار

من التعويضات الألمانية، التي ظن أنه اتفق عليها في يالطا برفض راسخ من جانب مشكلة التعويضات مجددًا كعقبة أساسية. قوبل طلب ستالين بالعشرة مليارات دولار من التعويضات الألمانية التي ظن أنه اتفق عليها في يالطاء برفض راسخ من جانب ترومان ومستشاريه. ولأن الأمريكيين باتوا مقتنعين الآن بأن التعافي الاقتصادي والرخاء المستقبلي لأوروبا الغربية - والولايات المتحدة نفسها – يستلزم أن تكون ألمانيا قوية من الناحية الاقتصادية، فقد عارضوا أي خطط من شأنها إعاقة تحقيق ذلك الهدف. قدم وزير الخارجية الأمريكي جيمس إف بيرنز مقترحا للتسوية قبله الاتحاد السوفييتي في نهاية المطاف على مضض. نص العرض على أن تستخلص القوى الأربع العظمى - الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفييتي – التعويضات بالأساس من مناطق الاحتلال الواقعة تحت سيطرتها، كما وعد السوفييت – بالإضافة لذلك . بالحصول على بعض المعدات الرأسمالية من المناطق الغربية. إلا أن تلك المناطق التي تحتوي على أعلى القطاعات الصناعية بالبلاد وأغناها بالموارد ستكون معزولة فعليا عن النفوذ السوفييتي. وبسبب عدم قدرة شركاء التحالف العظيم على الاتفاق على نهج موحد لحل القضية الألمانية – أكثر القضايا الدبلوماسية إثارة للخلاف أثناء الحرب والقضية التي قدر لها أن تظل محور الحرب الباردة - فقد اختاروا التقسيم مع محاولة التظاهر بالوحدة كانت تبعات هذا الأمر واسعة المدى؛ إذ مثل الخطوة المبدئية على سبيل دمج القطاعات الغربية من ألمانيا، وتلك الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي، في نظامين سياسيين اقتصاديين منفصلين، وأذن بانقسام القارة الأوروبية إلى معسكرين شرقي، وغربي.

ومع ذلك فقد عبر ترومان عن رضاه بالقرارات الواعدة التي جرى التوصل إليها في بوتسدام. وقد علق وقتها قائلا: «إن ستالين يروق لي، فهو رجل صريح يعرف ما يريد ومستعد للتوصل إلى حل وسط حين يتعذر عليه الحصول على ما يريد. كانت ثقة الزعيم الأمريكي في قدرته على تحقيق أكثر ما يرغب فيه في المفاوضات المستقبلية مع نظيره السوفييتي ترتكز تحديدًا على ما اعتبره الرئيس وكبار مستشاريه الورقتين الرابحتين في يد الولايات المتحدة قوتها الاقتصادية وامتلاكها الحصري للقنبلة الذرية. وقد تعززت ثقة ترومان بذاته على نحو كبير حين تلقى، وهو وسط محادثات بوتسدام، أخبار نجاح تجربة القنبلة الذرية التي أجريت في نيو مكسيكو، كان من شأن «الورقة الرابحة الأمريكية – كما كان وزير الحربية هنري ستيمسون يفضل تسميتها – أن تحسن فرص التسويات السلمية بما يتفق والمصالح الأمريكية أو هكذا آمن ترومان والمقربون منه وأجبرت القنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على هيروشيما في السادس من أغسطس وناجازاكي في التاسع من الشهر

عينـه، واللتـان تسـببتا فـي مقتـل ١١٥ ألـف شـخص وخلفتـا آلاف المحتضـرين بفعـل الإشـعاع اليابـان علـى الاستسـلام حقـق الاسـتخدام شـبه المتـزامن للقنبلتـين العديـد مـن الأهـداف الأمريكيـة العسـكرية والدبلوماسـية : أنهـى الحـرب علـى نحـو سـريع، وأنقـذ حياة آلاف الأمريكيين، وأنهى الحاجة إلى نشر القوات السوفييتية في منـاطق الحـرب بالمحيط الهادي باستثناء تحـرك القوات السوفييتية في منشوريا)، وأغلـق البـاب أمـام أي مطالبات سوفييتية بالقيام بدور في احتلال اليابان فيما بعد الحرب.

خـلال ذلـك العـام، بـدأت إدارة ترومـان وحلفـاؤه الأوروبيـون الأساسـيون فـي النظر إلى روسيا ستالين بوصفها دولة انتهازية مستأسدة ذات شـهية نهمـة للمزيـد مـن الأراضـي والمـوارد والامتيـازات عبـر جـورج إف كينـان كبيـر دبلوماسـي مـع نظيـره السوفييتي ترتكز تحديدًا على ما اعتبره الرئيس وكبار مستشاريه الـورقتين الـرابحتين فـي يـد الولايـات المتحـدة قوتهـا الاقتصـادية وامتلاكهـا الحصـري للقنبلـة الذريـة. وقـد تعززت ثقة ترومان بذاته علـى نحـو كبيـر حين تلقـى، وهـو وسـط محادثـات بوتسـدام، أخبار نجاح تجربة القنبلة الذرية التي أجريت في نيو مكسيكو، كان من شـأن «الورقـة الرابحـة الأمريكيـة - كمـا كـان وزيـر الحربيـة هنـري ستيمسـون يفضـل تسـميتها - أن تحسن فرص التسويات السلمية بمـا يتفق والمصـالح الأمريكيـة أو هكـذا آمـن ترومـان والمقربون منه وأجبرت القنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على هيروشيما في السادس مـن أغسطس وناجازاكي في التاسع من الشـهر عينـه، واللتـان تسـببتا فـي مقتـل ١١٥ ألـف شـخص وخلفتـا آلاف المحتضـرين بفعـل الإشـعاع اليابـان علـى الاستسـلام حقـق الاسـتخدام شـبه المتـزامن للقنبلتـين العديـد مـن الأهـداف الأمريكيـة العسـكرية والدبلوماسية : أنهـى الحـرب علـى نحـو سـريع، وأنقـذ حيـاة آلاف الأمـريكيين، وأنهـى الحاجة إلى نشر القوات السوفييتية في مناطق الحرب بالمحيط الهادي باستثناء تحـرك القوات السوفييتية في منشوريا)، وأغلق الباب أمام أي مطالبات سوفييتية بالقيام بـدور في احتلال اليابان فيما بعد الحرب.

لكـن بـالرغم مـن أوراق إدارة ترومـان الرابحـة، شـهدت العلاقـات السـوفييتية الأمريكيـة تـدهورا متزايـدًا فـي الأشـهر التـي أعقبـت استسـلام اليابـان فبالإضـافة إلـى ألمانيـا وأوروبـا الشـرقية، كـان للحليفـين السـابقين رؤى متباينـة حـول كيفيـة تحقيـق السـيطرة الدوليـة علـى الأسـلحة الذريـة، وحـول المصـالح المتصـارعة فـي الشـرق الأوسط وشرق المتوسط، وحـول قضـية المسـاعدات الأمريكيـة الاقتصـادية، وحـول الدور السوفييتي فـي منشوريا. وبـالرغم مـن التوصـل إلـى بعض الحلـول الوسـط فـي اللقاءات العديدة لمجلس وزراء الخارجية، فإن عام ١٩٤٦ أذن بنهاية التحالف العظيم وبداية الحرب الباردة بأوضح صورها.

خلال ذلك العام، بدأت إدارة ترومان وحلفاؤه الأوروبيون الأساسيون في النظر إلى روسيا ستالين بوصفها دولة انتهازية مستأسدة ذات شهية نهمة للمزيد من الأراضي والموارد والامتيازات عبر جورج إف كينان كبير دبلوماسي الولايات المتحدة في موسكو طعن هذا الرأي وشدد عليه في برقيته المطولة الشهيرة التي بعث بها في ٢٢ فبراير ١٩٤٦.

وقد أكد كينان على أن عداوة السوفييت للعالم الرأسمالي عداوة راسخة مثلما هي حتمية وهي نتاج الاتحاد المؤسف لانعدام الأمان الروسي التقليدي والعقيدة الماركسية اللينينية.

وقد زعم أن زعماء الكرملين فرضوا نظامًا شموليا قمعيا على الشعب السوفييتي، وأنهم يستخدمون الآن التهديد المزعوم من طرف الأعداء الخارجيين لتبرير الاستمرار في طغيانهم الداخلي وتمسكهم بالسلطة. كانت نصيحة كينان محددة تجنبوا المهادنة، التي لن تفلح

على أي حال، وركزوا بدلا من ذلك على كبح انتشار القوة والنفوذ السوفييتيين. وقد أصر على أن الكرملين لن يرضخ إلا للقوة الأكثر تفوقًا. وفي الخامس من مارس جاهر ونستون تشرشل، الذي لم يعد في السلطة وقتها برأيه منضما إلى الجموع المتزايدة المناهضة للسوفييت. ففي فولتون، ميزوري، وأثناء مشاركته المنصة مع هاري ترومان الذي كان من الولايات المتحدة في موسكو عن هذا الرأي وشدد عليه في برقيته المطولة الشهيرة التي بعث بها في ٢٢ فبراير ١٩٤٦.

وقد أكد كينان على أن عداوة السوفييت للعالم الرأسمالي عداوة راسخة مثلما هي حتمية وهي نتاج الاتحاد المؤسف لانعدام الأمان الروسي التقليدي والعقيدة الماركسية اللينينية.

وقد زعم أن زعماء الكرملين فرضوا نظامًا شموليا قمعيا على الشعب السوفييتي، وأنهم يستخدمون الآن التهديد المزعوم من طرف الأعداء الخارجيين لتبرير الاستمرار في طغيانهم الداخلي وتمسكهم بالسلطة. كانت نصيحة كينان محددة تجنبوا المهادنة، التي لن تفلح

على أي حال، وركزوا بدلا من ذلك على كبح انتشار القوة والنفوذ السوفييتيين. وقد أصر على أن الكرملين لن يرضخ إلا للقوة الأكثر تفوقًا. وفي الخامس من مارس جاهر ونستون تشرشل، الذي لم يعد في السلطة وقتها برأيه منضما إلى الجموع المتزايدة المناهضة للسوفييت. ففي فولتون، ميزوري، وأثناء

مشاركته المنصة مع هاري ترومان الذي كان من الواضح أنه يوافقه الرأي، ندد زعيم بريطانيا خلال الحرب بالسوفييت وحذر تشرشل من أن الحضارة المسيحية نفسها معرضة للخطر بسبب المد الشيوعي.

لم يكن السلوك السوفييتي وحده هو المبرر لهذا الذعر من جانب العواصم الغربية وبالتأكيد لم يكن السبب هو سيناريو يوم القيامة الذي جرى تصوره في بعض الدوائر الأمريكية.

لا ريب أن نظام ستالين كان يسعى لتحقيق مصالحه بكل قوة. وقد فرض حكومات تابعة له في بولندا ورومانيا وبلغاريا، ونسج لنفسه دائرة من النفوذ في المناطق المحتلة من ألمانيا الشرقية، ورفض في البداية إخراج قواته من إيران، وهو ما سبب أول أزمة كبرى شهدتها الحرب الباردة في مارس ١٩٤٦ ، وضغط على تركيا بقوة كي تقدم له تنازلات بل نشر قواته على الحدود البلغارية في محاولة للترهيب، ونهب منشوريا وغير ذلك الكثير. ومع ذلك فقد سمح السوفييت أيضًا بإقامة انتخابات حرة في المجروتشيكوسلوفاكيا، وتعاون في تكوين حكومات نيابية في فنلندا والنمسا، واستمر في الانخراط في مفاوضات نشطة مع القوى الغربية من خلال مجلس وزراء الخارجية بل عمل على كبح الأحزاب الشيوعية القوية في إيطاليا وفرنسا وأماكن أخرى في أوروبا الغربية. باختصار، يسمح السلوك السوفييتي بتفسيرات أكثر دقة وتوازنا من تلك التي طرحها كينان وتشرشل.

في الواقع، لم يكن أقصى ما يخشاه المحللون الأمريكيون والبريطانيون هو السلوك السوفييتي السابق ذكره، ولا النوايا العدائية التي قد تكمن خلف هذا السلوك. كما أنهم لم يفرطوا في الخوف من القدرات العسكرية السوفييتية على الأقل على المدى القريب. رأى كبار الخبراء العسكريين الأمريكيين والبريطانيين أن الاتحاد السوفييتي كان أضعف من أن يغامر بخوض حرب ضد الولايات المتحدة، وقد اعتبروا أن هجمات الجيش الأحمر ضد أوروبا الغربية، تحديدًا، مستبعدة بدرجة كبيرة. بيد أن ما أثار خوف كبار صناع القرار الأمريكيين والبريطانيين كان إمكانية استفادة الاتحاد السوفييتي من الضغوط الاقتصادية الاجتماعية، وما يصاحبها من حراك سياسي، التي استمرت في الهيمنة على عالم ما بعد الحرب. مهدت هذه الظروف السبيل لبزوغ نجم اليسار حول العالم، وهي الظاهرة التي انعكست على نحو مثير للضيق في الشعبية المتزايدة للأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية بل تجسدت أيضًا في الظهور القوي للحركات القومية الثورية المناهضة للاستعمار في شتى أنحاء العالم الثالث كانت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التي سببتها الحرب تجعل الشيوعية تبدو بديلا جذابًا في نظر الكثير من شعوب العالم. خشي وزراء

خارجية ودفاع الدول الغربية من تحالف الأحزاب الشيوعية المحلية والحركات الثورية الوطنية مع الاتحاد السوفييتي وإذعانها له، خاصة وأن الدور المحوري الذي لعبه في مكافحة الفاشية منحه شرعية ونفوذا بالغين. ومن ثم، سيكون بوسع الكرملين أن يزيد قوته ويوسع مداه دون الحاجة إلى المخاطرة بعمل عسكري مباشر. رأى المخططون الاستراتيجيون الأمريكيون أن شبح عامي ١٩٤٠ – ١٩٤١ يلوح من جديد. فها هي قوة معادية، مسلحة هي الأخرى بأيديولوجية مختلفة تفرض التهديد، في سبيلها للسيطرة على أوراسيا، ومن ثم تقلب موازين القوى في غير مصلحة الولايات المتحدة، وتمنعها من الوصول إلى الأسواق والموارد المهمة، وتعرض الحرية السياسية والاقتصادية داخل البلاد لخطر داهم.

ترسيم الحدود

المواجهة هذه التهديدات الخطيرة، وإن كانت موزعة، سعت الولايات المتحدة بسرعة بالغة خلال النصف الأول من عام ١٩٤٧ لتنفيذ استراتيجية تهدف إلى احتواء الاتحاد السوفييتي بالإضافة إلى تقليل القبول الذي تتمتع به الشيوعية في الوقت ذاته. وقد عجلت مبادرة بريطانية، حتمها أفول قوة لندن وعمق أوجاعها المالية، بحدوث الخطوة الأولى الحاسمة في الحملة الدبلوماسية الأمريكية. ففي الحادي والعشرين من فبراير، أعلمت بريطانيا وزارة الخارجية الأمريكية أنها لن تملك القدرة على توفير المساعدات الاقتصادية والعسكرية المقدمة لليونان وتركيا. قرر المسئولون الأمريكان سريعًا أن على الولايات المتحدة أن تضطلع بدور بريطانيا بحيث تصد الانتشار المحتمل للنفوذ السوفييتي في شرق المتوسط ومن ورائه الشرق الأوسط الغني بالنفط. وللحصول على دعم الكونجرس الحساس لأي نفقات والجماهير العازفة عن القبول بأي التزامات دولية جديدة، ألقى ترومان في الثاني عشر من مارس، خطابًا قويا أمام الكونجرس يطالب فيه بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار من المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدعم الحكومتين المأزومتين في اليونان وتركيا.

على أحد المستويات كانت الولايات المتحدة تعمل ببساطة على ملء فراغ القوى الناتج عن تقلص قوة بريطانيا. كانت الحكومة اليونانية اليمينية تخوض حربا أهلية ضد جماعات الشيوعيين الوطنية التي تدعمها يوغوسلافيا الشيوعية. من جانبها، كانت تركيا تواجه ضغوطاً روسية متواصلة من أجل تقديم تنازلات في منطقة الدردنيل. ومن ثم استفادت روسيا وحلفاؤها من الانسحاب البريطاني، وهو تطور مقلق سعت الولايات المتحدة الأمريكية للحيلولة دونه. إلا أن أهم جوانب عقيدة ترومان لم يكن متعلقا بسياسة القوة نفسها بقدر ما كان متعلقا بالطريقة التي

اختـار بهـا الـرئيس الأمريكـي أن يعـرض طلـب المسـاعدة. فبالاسـتعانة بالمبالغـات اللغويـة والصـور البلاغيـة المتعارضـة والتبسيط المتعمد التعزيز قبـول الجمـاهير لـه حاول ترومان تحقيق إجماع بين الجماهير وبين أعضاء الكونجرس ليس فقط على هذا الالتزام المحدد، بل على سياسة خارجية أمريكية أكثر نشاطا سياسة من شأنها أن تكون مناهضة للاتحاد السوفييتي مثلما هي مناهضة للشيوعية. وبهذا تحولت عقيدة ترومان إلى إعلان عن حرب باردة أيديولوجية إلى جانب الإعلان عن حرب باردة جيوسياسية. ومع هذا فقد تزايد الغموض، واستمر في التزايد خلال حقبة الحرب الباردة بأسرها. ماذا كانت تحديدًا، طبيعة التهديد الذي برر مثل هذا الالتزام الشامل؟ أكان النمو المحتمل للقوة السوفييتية ؟ أم كان انتشار مجموعة من الأفكار المناقضة للقيم الأمريكية؟ لقد اندمج الخطران المتمايزان على نحو كبير، بطريقة غير ملحوظة في التفكير الأمريكي.

عقيدة ترومان

خاطب ترومان الكونجرس وهو يطلب حزمة مساعدات لليونان وتركيا قائلا: «في اللحظة الحالية من تاريخ العالم على كل دولة تقريبا أن تختار بين سبل الحياة المتباينة. وبعد أن استعرض مواقف غدر الاتحاد السوفييتي، بالرغم من عدم تسميته على نحو مباشر، اختتم ترومان بتحذيره الشهير الذي قال فيه: «من الحتمي أن تكون سياسة الولايات المتحدة داعمة للشعوب الحرة التي تقاوم محاولات الاستعباد التي تمارسها الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية.. وسريعا ما سمي هذا الالتزام المفتوح على نحو مبهر باسم عقيدة ترومان.

بعد ثلاثة أشهر من خطاب ترومان الملحمي، أعلنت الولايات المتحدة جهارًا عن المرحلة الثانية الكبرى من حملتها الدبلوماسية. فقد وعد وزير الخارجية الأمريكي، جورج سي مارشال، خلال خطاب ألقاه بحفل تخرج بجامعة هارفارد بمنح مساعدات أمريكية الجميع الدول الأوروبية الراغبة في تنسيق جهود التعافي الخاصة بها. استهدف ذلك المشروع، الذي سرعان ما حمل اسم مشروع مارشال»، محاربة الجوع والفقر وانخفاض المعنويات، وهي العوامل التي تدعم بزوغ اليسار في أوروبا ما بعد الحرب، وقد عزز هذه المجموعة من الظروف توقف جهود التعافي وزاد من حدتها مرور القارة بأقسى فصل شتاء على مدار الثمانين عاما الماضية استجاب وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفن

والفرنسي جورج بيدو على الفور وبكل حماس المشروع مارشال. وقد نظما اجتماعا للدول الأوروبية المهتمة بالأمر سريعا ما خرج بمجموعة من المبادئ التنظيمية الحاكمة لبرنامج المساعدات الأمريكية المقترح استشعرت الحكومتان

البريطانية والفرنسية، وغيرهما من الحكومات الأوروبية، وجود فرصة ذهبية للمساعدة في التخفيف من المشكلات الاقتصادية القاصمة، ومجابهة الأحزاب الشيوعية المحلية والتصدي للمد السوفييتي. أي إنهم، باختصار، تشاركوا العديد من مخاوف إدارة ترومان بشأن الخطر الكامن في بيئة ما بعد الحرب، حتى وإن بدا الأوروبيون أقل تركيزا على الجانب الأيديولوجي من نظرائهم الأمريكيين في إدراكهم للتهديد رحب زعماء أوروبا الغربية، بل نادوا بالسياسة الأنشط والحضور الأقوى لأمريكا في أوروبا ما بعد الحرب؛ لأن هذا توافق مع احتياجات بلادهم الاقتصادية والسياسية والأمنية. وفي نهاية المطاف قدم مشروع مارشال ١٣ مليار دولار كمساعدات لأوروبا الغربية، وهو ما ساعد على البدء في التعافي الاقتصادي هناك، وتشجيع التكامل الاقتصادي الأوروبي، واستعادة سوق مهمة للسلع الأمريكية. إلا أن ستالين المتخوف من أن يستخدم برنامج التعافي الأوروبي في إرخاء قبضة روسيا على الدول التابعة لها، منع دول أوروبا الشرقية من المشاركة بالبرنامج. وقد خرج وزير الخارجية الروسي، مولوتوف من مؤتمر باريس التنظيمي وقد حذر بصرامة من أن مشروع مارشال من شأنه أن يقسم أوروبا إلى مجموعتين من الدول.

تجسد جزء آخر من الحملة الدبلوماسية لإدارة ترومان في صورة تحول حاسم في سياستها تجاه ألمانيا. فقد ارتأى صناع السياسات الأمريكان أن مشاركة المناطق الغربية المحتلة من ألمانيا في مشروع مارشال سيكون أمرا ضروريا لنجاح المشروع؛ لأن الصناعة والموارد الألمانية شكلت قوة دافعة لا غنى عنها للنمو الاقتصادي الأوروبي. وحتى قبل الكشف عن مشروع مارشال كانت الولايات المتحدة قد تحركت صوب تعزيز إنتاج الفحم داخل المناطق الموحدة الواقعة تحت الاحتلال الأمريكي والبريطاني، كان المخططون بواشنطن مقتنعين بأن السلام والرخاء العالمي، إضافة إلى الأمن والسلامة الاقتصادية للولايات المتحدة، تعتمد كلها على التعافي الاقتصادي الأوروبي، وأن تلك الأهداف الأساسية للسياسة الأمريكية تتطلب بالتبعية، أن تكون ألمانيا قوية ومنتعشة اقتصاديا. تعارضت هذه الأهداف مع أي تسوية دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي حول القضية الألمانية ذات الأهمية البالغة. وأد إصرار وزير الخارجية الأمريكي مارشال على مشاركة ألمانيا في برنامج التعافي الأوروبي أي احتمالات باقية لاتفاق القوى الأربع العظمى حول ألمانيا، وأدى على نحو مباشر إلى فشل حاد لاجتماعات مجلس وزراء الخارجية في نوفمبر ١٩٤٧. وقد أقر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين رفيعي المستوى بهذا سرًا بقوله: «إننا حقا لا نريد أو ننوي القبول، بتوحيد ألمانيا وفق أي شروط قد يوافق عليها الروس. وبالفعل، أخذت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، في بدايات عام ١٩٤٨، الخطوات الأولى على سبيل إيجاد دولة ألمانية غربية مستقلة، مفضلين بذلك

تقسيم ذلك البلد عن المخاطرة بإيجاد ألمانيا موحدة قد تتحالف مع الوقت مع الاتحاد السوفييتي أو وهو الأمر المساوي في السوء، تتبنى موقفا محايدًا. وقد أصاب السفير البريطاني لورد إنفر شابل حين قال إن الأمريكيين كانوا يؤمنون بأن «تقسيم ألمانيا واستيعاب القسمين داخل المعسكرين الشرقي والغربي المتنافسين هو السبيل المفضل لخلق منطقة عازلة عند حدود الدولة السوفييتية المتوسعة».

وفي ضوء مخاوف ستالين المعلنة من إعادة إحياء القوة الألمانية، كان من شأن هذه المبادرات الغربية أن تضمن رد فعل قويا من طرف الاتحاد السوفييتي. وقد توقع المسئولون الأمريكيون هذا الأمر بالتأكيد، وبالفعل لم يخب ظنهم. ففي سبتمبر ١٩٤٧، وفي أحد المؤتمرات ببولندا، أسس السوفييت مكتب الإعلام الشيوعي المعروف اختصارًا بالكومينفورم) كوسيلة لإحكام سيطرتهم على الدول التابعة في أوروبا الشرقية وعلى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية. وقد شجب أندري زادنوف كبير المندوبين الروس مشروع مارشال بوصفه جزءا من استراتيجية مشتركة لعقد تحالف غربي من شأنه أن يكون نقطة انطلاق المهاجمة الاتحاد السوفييتي، ثم أردف أن العالم أصبح الآن منقسما إلى «معسكرين».

تبع ذلك انقلاب على السلطة في تشيكوسلوفاكيا بمباركة سوفييتية، وذلك في فبراير ١٩٤٨. وأدى الانقلاب إلى طرد جميع الوزراء غير الشيوعيين من الحكومة، ووفاة وزير الخارجية جان مازاريك الذي يحظى بالاحترام، في ظروف مشكوك فيها للغاية. وإلى جانب القمع الشديد للمعارضة غير الشيوعية في المجر، أذن الانقلاب التشيكي بتبني الاتحاد السوفييتي الموقف أكثر قسوة داخل معسكره وساعد على بلورة الانقسام الأوروبي بين المعسكرين الشرقي والغربي. بعد ذلك، وفي الرابع والعشرين من يونيو ١٩٤٨ ، أقدم ستالين على تصعيد الموقف على نحو خطير. فاستجابة لعمليات إعادة إعمار ألمانيا الغربية وتوحيدها، منع السوفييت على نحو مفاجئ قوات الحلفاء كافة من دخول برلين الغربية أرضًا. كان ستالين يهدف من عزل هذا الجيب الغربي بالمدينة المقسمة، والواقعة على بعد ١٢٥ ميلا داخل ألمانيا الشرقية المحتلة من جانب السوفييت، إلى فضح مدى ضعف خصومه، وبهذا يعيق تأسيس دولة ألمانيا الغربية المنفصلة التي كان يخشى منها كثيرًا. استجاب ترومان بأن دشن جسرا جويا على مدار الساعة لنقل الإمدادات والوقود إلى المليوني مواطن المحاصرين في برلين الغربية في واحدة من أكثر فترات الحرب الباردة المبكرة بروزا وتوترًا. وفي مايو ١٩٤٩، أنهى ستالين أخيرًا ما اتضح أنه حصار غير فعال، وكارثة على مستوى العلاقات العامة. لم ينجح ذلك الفعل الانتقامي السوفييتي إلا في تعميق الهوة بين الشرق والغرب وإثارة غضب الرأي العام في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وتدمير أي بادرة أمل متبقية في إمكانية تسوية المسألة الألمانية

على نحو مقبول من جميع القوى الأربعة المحتلة. وفي سبتمبر ١٩٤٩ ، أسست القوى الغربية جمهورية ألمانيا الاتحادية، بعدها بشهر واحد أسس الاتحاد السوفييتي جمهورية ألمانيا الديمقراطية في المنطقة التي يحتلها صارت خطوط الحرب الباردة في أوروبا محددة على نحو واضح، وبات تقسيم ألمانيا بين الغرب والشرق يعكس تقسيم أوروبا بين معسكر غربي تحت لواء الولايات المتحدة وآخر شرقي تحت لواء الاتحاد السوفييتي.

آمن عدد من كبار الدبلوماسيين الغربيين وأشدهم تصميما في هذا الصدد وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفن - بأن الصلة المزدهرة بين أوروبا وأمريكا لا يمكن تدعيمها إلا عن طريق اتفاق أمني يضم دول جانبي الأطلسي. ولتحقيق هذا الهدف، صار زعيم حزب العمال السابق المحرك الأساسي وراء عقد ميثاق بروكسل في أبريل ١٩٤٨. وقد أمل بيفن أن يكون ذلك الاتفاق الأمني المشترك بين بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ولكسمبورج أساسا لتحالف غربي أوسع. كان يسعى لوضع آلية من شأنها أن تعمل على انغماس الولايات المتحدة بشكل كامل في شئون أوروبا الغربية، وتهدئة مخاوف فرنسا من صحوة ألمانيا، وكبح جماح السوفييت، أو كما يقول المثل الشائع بإيجاز، وإن كان على نحو دقيق وسيلة تهدف إلى تقريب الأمريكان، وإبعاد السوفييت، وتهدئة الألمان». أوفت منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) بالاحتياجات التي حددها بيفن، وباحتياجات إدارة ترومان الراغبة في إضافة ثقل أمني إلى استراتيجية الاحتواء النامية الخاصة بها. تم توقيع ميثاق إنشاء المنظمة في واشنطن في الرابع من أبريل ١٩٤٩ بحضور الدول الموقعة على ميثاق بروكسل إضافة إلى إيطاليا والدنمارك والنرويج والبرتغال وكندا والولايات المتحدة، وبذا تكون حلف أمني مشترك وافقت كل دولة من الدول الأعضاء على أي هجوم على دولة أو أكثر من دول المنظمة بمنزلة هجوم على كل الدول مثل هذا الالتزام تراجعا تاريخيا للولايات المتحدة عن أحد التقاليد المحددة لسياستها الخارجية إذ لم يحدث أن دخلت واشنطن، منذ تحالفها مع فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، في حلف ملزم أو دمجت احتياجاتها الأمنية على هذا النحو الكامل مع احتياجات دول أخرى ذات سيادة.

إن دائرة النفوذ، أو «الإمبراطورية»، التي شكلتها الولايات المتحدة في أوروبا ما بعد الحرب ترمز إلى مخاوفها أكثر مما ترمز إلى طموحاتها علاوة على ذلك، جاءت هذه الإمبراطورية نتاجا لتلاقي المصالح بين الولايات المتحدة وصفوة دول أوروبا الغربية في الواقع، يستحق هؤلاء التقدير بوصفهم مؤلفين مشاركين فيما سماه المؤرخ جير لوندشتاد الإمبراطورية الأمريكية الطوعية». وهنا يجب التفرقة بين الإمبراطورية السوفييتية التي فرضت بالأساس على أغلب دول أوروبا الشرقية،

والإمبراطورية الأمريكية التي نتجت عن شراكة ولدت بدافع من المخاوف الأمنية المشتركة والاحتياجات الاقتصادية المتداخلة. بالرغم مما يمثله تقسيم أوروبا إلى دائرتي نفوذ متعاديتين من تطور حاسم في بدايات الحرب الباردة، فإن هذا التقسيم لم يكن سوى جزء من القصة. فلو أن الحرب الباردة اقتصرت على التنافس على السلطة والنفوذ في أوروبا وحدها، لسارت القصة على نحو مخالف للغاية عما سارت عليه في النهاية. ومن ثم، يحول الفصل التالي التركيز الجغرافي نحو قارة آسيا، ثاني أكبر مسارح الحرب الباردة في بدايات حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

سباق التسلح

عمدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إلى تدعيم مخزونهما من الأسلحة - التقليدية والنووية – في أعقاب اندلاع الحرب الكورية. وبين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٣ زادت الولايات المتحدة قوتها المسلحة بقرابة المليون جندي في الوقت الذي توسعت فيه على نحو كبير في إنتاج الطائرات والسفن الحربية والمركبات المدرعة وغيرها من معدات القتال التقليدية. أما تدعيم القوة النووية فكان أبرز. ففي أكتوبر ١٩٥٢ اختبر الأمريكيون بنجاح القنبلة النووية الحرارية، أو القنبلة الهيدروجينية، التي كانت أشد قوة من القنبلتين المستخدمتين في هيروشيما وناجازاكي بأضعاف مضاعفة. وفي أكتوبر ١٩٥٤ فجر الأمريكيون قنبلة أقوى من هذا بكثير. واكبت أنظمة الوصول للأهداف هذا التقدم. فحتى نهاية الخمسينيات اعتمد الردع النووي الأمريكي على القاذفات متوسطة المدى التي يمكنها ضرب الأراضي السوفييتية ثم العودة انطلاقا فقط من القواعد المتقدمة في أوروبا، لكن بنهاية العقد

حسنت الولايات المتحدة قدرة القصف النووي لديها من خلال بناء نحو ٥٣٨ من القاذفات العابرة للقارات، وكل واحدة منها يمكنها ضرب الأهداف السوفييتية انطلاقا من قواعدها بالولايات المتحدة. وفي عام ١٩٥٥ أمر أيزنهاور أيضًا بتطوير صواريخ بالستية عابرة للقارات يمكنها حمل رؤوس نووية لضرب الاتحاد السوفييتي انطلاقا من الأراضي الأمريكية. وبحلول عام ١٩٦٠ بدأت الولايات المتحدة في نشر الجيل الأول من الصواريخ البالستية العابرة للقارات، إلى جانب أول دفعة من الصواريخ البالستية التي يمكن إطلاقها من الغواصات منحت هذه التطورات الولايات المتحدة القوة الثلاثية التي تشتهيها من الأسلحة النووية التي يمكن إطلاقها من القاذفات والأرض والغواصات، وكل عنصر منفرد من هذه العناصر الثلاث قادر على محو أهداف سوفييتية كبرى من الوجود. نمت الترسانة النووية الأمريكية الإجمالية من قرابة ألف رأس نووي في عام ١٩٥٣، وهو أول أعوام أيزنهاور في الحكم، إلى ١٨ ألف رأس في عام ١٩٦٠ ؛ آخر أعوامه بالحكم. وبحلول ذلك الوقت

كانت القيادة الجوية الاستراتيجية تتباهى بامتلاك ١٧٣٥ قاذفة استراتيجية قادرة على ضرب أهداف سوفييتية بالأسلحة النووية.

عمل الاتحاد السوفييتي قدر جهده من أجل اللحاق بالركب. فبين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ زاد عدد جنود الجيش الأحمر بثلاثة ملايين جندي ليصل حجم القوات المسلحة الإجمالي إلى ٥.٨ ملايين فرد، قبل أن يأمر خروشوف بتقليل عدد القوات في أواسط الخمسينيات لتقليل ميزانية موسكو الدفاعية الباهظة. بيد أن التفوق الواضح للاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي في عدد الجنود وازنه وأبطله تفوق الأخيرين في كل جانب آخر من جوانب القوة العسكرية. تبدى التفاوت في أوضح صوره في المجال النووي. اختبر السوفييت أول قنبلة نووية حرارية بنجاح في أغسطس ١٩٥٣ متبوعة بقنبلة أخرى أشد قوة في نوفمبر ١٩٥٥. لكن القدرة على الوصول للأهداف ظلت محدودة. وحتى عام ١٩٥٥ ظل السوفييت عاجزين عن شن ضربة نووية ضد الولايات المتحدة، ومن ثم فقد اعتمدوا لأغراض الردع على قدرة قاذفاتهم على ضرب الأهداف في أوروبا الغربية وبنهاية العقد كان كل ما في استطاعة أسطول القاذفات السوفييتية الاستراتيجية هو الوصول إلى الولايات المتحدة في مهام قصف دون عودة انطلاقا من قواعد بأقصى الشمال، التي سيسهل اعتراضها من جانب الطائرات الاعتراضية الأمريكية. فقط في أوائل الستينيات بدأ الاتحاد السوفييتي في إنتاج ونشر الصواريخ البالستية العابرة للقارات، وبالرغم من الإطلاق المبالغ في الدعاية عنه للمركبة سبوتنيك أول مركبة تدور حول الأرض، في ١٩٥٧ ، فقد تخلف الاتحاد السوفييتي عن الولايات المتحدة في كل الجوانب التكنولوجية المهمة. هذه الحقيقة يؤكدها تعليق أيزنهاور عقب مناقشة مع مجلس الأمن القومي في عام ١٩٥٣ بشأن القدرات النووية المقارنة للقوتين العظميين حين وصف السوفييت بقوله: «لا بد أنهم مذعورون.»

لكن من قبيل المفارقة أنه في أواخر الستينيات بدأت بعض الدوائر داخل الولايات المتحدة في انتقاد أيزنهاور لسماحه بوجود فجوة صواريخ» بين الأمريكيين والسوفييت. نبعت الانتقادات من التخوف من أن يمثل الاختبار السوفييتي الأول للصواريخ البالستية العابرة للقارات في أغسطس ١٩٥٧ وإطلاق المركبة سبوتنيك تهديدًا مؤثرًا للتفوق التكنولوجي الأمريكي المحتفى به. فالأمر لا يقتصر على أن السوفييت سبقوا الأمريكيين إلى الفضاء وحسب، بل أدى ولع خروشوف بالتباهي والتهديد بعدد الصواريخ بعيدة المدى التي تطورها دولته ببعض أرجح المحللين الاستراتيجيين حكمًا إلى القلق من التفوق السوفييتي العسكري التكنولوجي خشي الكثيرون من أن تميل كفة ميزان القوى ناحية الشرق، وهي النزعة التي تشكك البعض في أن نعومة المجتمع الأمريكي وتدهور استعداد أطفال المدارس لدراسة

الرياضيات والعلوم هو ما شجع عليها. حافظ أيزنهاور على رباطة جأشه. وبالاستعانة بصور التقطتها طائرات استطلاع سرية فوق الأراضي السوفييتية كان يعرف أن هذا ليس صحيحًا، وأن الولايات المتحدة تحتفظ بتقدم كبير على غريمها من حيث الأسلحة النووية القادرة على ضرب أهدافها. ومع ذلك، تصاعد جدل سياسي محموم حول فجوة الصواريخ المفترضة، وظهرت هذه الفجوة المفترضة كقضية مثيرة للرأي العام في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٦٠.

على مر التاريخ المسجل كانت سباقات التسلح سمة أساسية للصراعات الدولية. لكن بطبيعة الحال ما أضفى التفرد على سباق التسلح في حقبة الحرب الباردة كان البعد النووي. ولطالما تدبر الباحثون ومحللو السياسات وواضعو الاستراتيجيات الحكومية كيف شكل توافر الأسلحة القادرة على صنع دمار لا نظير له المسارات التي اتخذتها الحرب الباردة. وهذا التساؤل في غاية الأهمية، مثلما هو في غاية الصعوبة فيما يتعلق بالإجابة عليه بأي درجة من اليقين فمن ناحية، ربما منحت الأسلحة النووية قدرًا من الاستقرار للعلاقة بين القوتين العظميين وقللت على نحو مؤكد من احتمالية نشوب صراع مفتوح في أوروبا. وقد استندت استراتيجية حلف شمال الأطلسي لصد أي غزو سوفييتي تقليدي إلى إدراك أن أي حرب أوروبية ستكون حربا نووية، وبهذا توافرت الدوافع لدى كلا الجانبين لتجنب أي صراع من . شأنه أن يسبب خسائر ضخمة في أرواح الطرف المهاجم والمدافع على السواء. وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي في يناير ١٩٥٦ أكد أيزنهاور في حكمة على ما سماه اعتبارًا ساميا» في جميع النقاشات الدائرة حول الاستراتيجية النووية، وتحديدًا أنه لن يفوز أي طرف في حرب نووية.

لكن من ناحية أخرى تبنى أيزنهاور أيضًا عقيدة رسمية خلال عامه الأول في البيت الأبيض تقضي بأنه في حالة أعمال القتال، ستنظر الولايات المتحدة إلى الأسلحة النووية بعين الاعتبار مثلما تنظر إلى غيرها من الذخائر». وقد صدقت إدارته على نشر أولى الأسلحة النووية القتالية في ألمانيا في نوفمبر ١٩٥٣ ، وتعهدت عملية تدعيم الأسلحة النووية الضخمة ونظم الوصول إلى الأهداف التي ذكرناها سابقا، وشجعت على مبدأ الانتقام الساحق كمبدأ جوهري للحالة الدفاعية الأمريكية، وهددت باستخدام الأسلحة النووية خلال المراحل الأخيرة من الحرب الكورية وفي محاولاتها لردع بكين خلال أزمة مضيق تايوان في عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥.

باختصار، أظهر الأمريكان توجها متناقضا حيال الأسلحة النووية وقيمتها في تحقيق أهداف الأمن القومي خلال أول خمسة عشر عامًا من الحقبة الذرية، وفي

الوقت الذي كانوا ينتقدون فيه سرا وعلنا حماقة الصراع النووي الذي لن يفوز فيه أي طرف، فإنهم كافحوا لتحقيق التفوق الواضح في السلاح النووي. ومن المؤكد أن التفوق الأمريكي في الجانب النووي شجع الولايات المتحدة على الإقدام على مخاطرات في أزمات لاحقة في كل من تايوان وبرلين وكوبا، كما سيبين الفصل التالي، ومن ثم ساعد على استفحال مرحلة الحرب الباردة المحفوفة بالفعل بالمخاطر.

كان تأثير الحرب الباردة على بنية السياسة الدولية والعلاقات بين الدول عميقا ومتعدد الأوجه حتى إنه صار من المتعارف عليه تسمية الفترة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٩٠ باسم حقبة الحرب الباردة. هذه التسمية تصير أكثر ملاءمة حين نتدبر الأثر القوي الذي خلفه الصراع السوفييتي الأمريكي من أجل السيطرة على العالم وإعلاء الأيديولوجية داخل» العديد من دول العالم ذات السيادة، وهو موضوع هذا الفصل. بالطبع لا يمكن ربط كل تطور كبير جرى بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٩٠ بالحرب الباردة. وعلى المنوال نفسه فإن الكثير من التطورات تأثر بالحرب الباردة وتشكل وفقها، حتى إنه ليس بوسعنا تدوين تاريخ النصف الثاني من القرن العشرين دون أن ندرك على نحو منهجي التبعات القوية المشوهة في أحيان كثيرة للصراع بين القوتين العظميين على دول العالم ومجتمعاته.

نالت التبعات الداخلية للحرب الباردة من اهتمام الباحثين المنهجي قدرًا أقل بكثير مما نالته العلاقات الدولية. وهذا الفصل يقدم مسحا عاما غير تفصيلي لهذا الموضوع الضخم. وهو يعرض بعضًا من الطرق التي أثرت بها الحرب الباردة على مجموعة القوى الداخلية بالعالم الثالث وأوروبا والولايات المتحدة.

العالم الثالث: إنهاء الاستعمار، وتكون الدول، وسياسات الحرب الباردة

لم يتصادف ظهور عشرات الدول ذات السيادة المستقلة حديثا في شتى أرجاء العالم الثالث، وما صاحبه من عملية إنهاء للاستعمار اتسمت بالدموية أحيانا وبالصراع دائما مع الحرب الباردة من الناحية الزمنية وحسب، بل إن الحرب الباردة نفسها هي التي رسمت ملامح هذه العملية. ففي الواقع، أدى الصراع الشامل على القوة والنفوذ العالميين بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وحلفائهما إلى إيجاد مصطلح العالم الثالث». إن هذا المصطلح السياسي الملائم، الذي ضم على نحو فضفاض مناطق العالم الفقيرة غير البيضاء وغير المنحازة، كان يشير ضمنًا إلى مناطق التنافس بين الغرب والشرق أو ما يسمى بالعالمين الأول والثاني في بعض الأحيان صعبت ضغوط الحرب الباردة الانتقال من الاستعمار إلى الاستقلال، وفي أحيان أخرى سهلتها. ومع أن التأثير المحدد للحرب الباردة تباين على نحو عظيم من أحد طرفي الصراع الاستعماري إلى الآخر، فإن التنافس بين القوتين العظميين لاح

دومًا كعامل خارجي محوري. وأي تأريخ لعملية إنهاء الاستعمار لن يكون تاما إذا لم يتقص السبل العديدة التي أثر بها الصراع بين القوتين العظميين على هذه العملية من حركات التحرر في جنوب آسيا وجنوب شرقها في أواسط الأربعينيات وأواخرها، التي افتتحت حقبة إنهاء الاستعمار، وصولا إلى مقاومة الأفريقيين للحكم الاستعماري البرتغالي في أوائل السبعينيات وأواخرها، الذي اختتم هذه الحقبة.

أيضًا جاء تكون الدول الجديدة لما بعد الحقبة الاستعمارية في أغلب أنحاء آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، وأجزاء من الكاريبي كذلك على خلفية صراع الحرب الباردة ذي الحضور الدائم. فقد تأثر شكل وتماسك وحيوية تلك الدول، أو ترتيبات السلطة داخلها، أو قدرتها على جذب الانتباه الدولي والتمتع بالمكانة، أو قدرة قادتها على تأمين الموارد الخارجية ورأس المال والدعم التقني من أجل الوفاء بأولويات التنمية الاقتصادية أو حشد الدعم العسكري لتعزيز الاحتياجات الدفاعية؛ على نحو بالغ بالحرب الباردة. وفي مناح عدة، يستحيل تدوين تاريخ عملية تكون دول العالم الثالث في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية – على غرار تاريخ عملية إنهاء الاستعمار دون الانتباه الحريص المنهجي لذلك العامل الخارجي المحوري.

طرحت الحرب الباردة أمام قادة العالم الثالث الطموحين نطاقا معقدا من المشكلات والتحديات والفرص صار هذا واضحًا في البداية خلال الصراعات ضد الاستعمار في جنوب شرق آسيا عقب الحرب مباشرة. التمس كل من هو تشي منه وسوكارنو دعم الولايات المتحدة عقب استسلام اليابان مباشرة، واعتمدا في التماسيهما في إطار دعم أمريكا التاريخي لحق تقرير المصير. لكن سريعًا ما خاب أملهما حين أدركا أن التزام إدارة ترومان الحلفاء الحرب الباردة في أوروبا له الأولوية، وهو ما حال مبدئيا على الأقل دون أي التزام دبلوماسي أو عسكري لحركتي الاستقلال اللتين يمثلانهما، اتجه هو.

الحرب الباردة بالداخل

عميل الكومينترن المخضرم والعضو المؤسس للحزب الشيوعي بالهند الصينية، إلى الاتحاد السوفييتي وجمهورية الصين الشعبية طلبا للدعم، وبالفعل بدأ في تلقيه مع بدايات عام ١٩٥٠. على العكس، أثبت سوكارنو معاداته للشيوعية من خلال قمع محاولة شيوعية داخلية للسيطرة على حركة الاستقلال الإندونيسية الأكبر. وبعد قمع تمرد ماديون في عام ١٩٤٨، أظهر القوميون الإندونيسيون الطبيعة المعتدلة لحركتهم، وهذا الفعل القوي شكل جزءا من استراتيجية واعية إلى حد بعيد تهدف إلى السعي لنيل دعم الغرب، وخاصة دعم أمريكا. وفي النهاية حققت هذه الاستراتيجية هدفها حين ضغطت إدارة ترومان على هولندا في العام التالي لمنح

الاستقلال لإندونيسيا التي رأت أنها تتمتع بقيادة معادية للشيوعية يمكن الاعتماد عليها.

يوضح المساران المتباينان تبايناً جذريا لمطلبي الحكم الذاتي القومي من جانب القوميين الفيتناميين والإندونيسيين بجلاء أهمية ديناميكيات الحرب الباردة «داخل» مجتمعات العالم الثالث تلقي هاتان الحالتان أيضًا الضوء على الاختيارات المختلفة المتاحة لرجال الدولة القوميين خلال سعيهم لخوض غمار سياسات القوتين العظميين. وفي أقصى الحالات تطرفا، تمكن هؤلاء القادة من التماس الدعم الأمريكي من خلال إظهار قناعاتهم المعادية للشيوعية وشخصياتهم المعتدلة وميولهم الموالية للغرب، أو على النقيض، كان بمقدورهم التماس الدعم السوفييتي أو الصيني بإظهار ميولهم الثورية المعادية للغرب.

في ذلك العالم ثنائي القطب الذي تعين على جميع حركات الاستقلال بالعالم الثالث من أواسط الأربعينيات حتى أواسط السبعينيات أن تواجهه، كان من الصعب تحاشي ضغط الاصطفاف إلى جانب أحد المعسكرين الأيديولوجيين وما صاحبه من نظام تحالف عسكري، خاصة أن المنافع المادية يمكن أن تتدفق، أو تحجب، نتيجة الخيار المتخذ. وكلما اشتد السعي لنيل الاستقلال، زادت حاجة طالبي الاستقلال لدعم أي كتلة من الكتلتين.

علاوة على ذلك، حين انهارت الائتلافات المعادية للاستعمار، كما حدث في الكونغو في عام ١٩٦٠ وأنجولا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ، كانت العصب المتناحرة تعجز عن مقاومة إغراء طلب دعم إحدى القوتين العظميين لها. وقد أسهمت الرؤى الخاصة التي امتلكها الزعماء القوميون للمستقبل، والتي عادة ما تضمنت تحولات اقتصادية اجتماعية عسيرة المنال داخل بلادهم، في تعقيد الخيارات التي تفرضها عليهم ضغوط الصراع بين القوتين العظميين. فاللجوء للكتلة الغربية، بما تحمله من شكوك مترسخة حيال من يميلون للاستجابة لنداءات الاشتراكية، يمكن أن يقلص عدد المسارات التنموية والسياسية الأهلية.

ويخاطر بتجريد النخب القومية المؤسسة من حرية الاختيار التي تتحرق إليها دائما. وعلى النقيض من المؤكد أن يؤدي اللجوء للكتلة الاشتراكية إلى تقليل، أو استبعاد، خيار الحصول على الدولارات والدعم من أغنى دولة في العالم وأقوى دولة، وهي الولايات المتحدة.

مع الاستقلال، واجهت دول العالم الثالث الجديدة مجموعة كبيرة من المعضلات. سعى بعضها بنشاط لأخذ جانب الولايات المتحدة لأن الالتزام الرسمي

مع الغرب بدا المسلك الأكثر توافقا مع الاحتياجات الداخلية المحورية. ففي حالة باكستان، مثلا، سعت النخب الحاكمة لتقوية العلاقات مع الولايات المتحدة بكل قوة منذ الأيام الأولى للدولة الوليدة وصارت حليفا رسميًا في وسط الخمسينيات من خلال التفاوض على اتفاقية أمنية ثنائية مع واشنطن وعضوية حلفين متعددي الأطراف. كان من شأن العلاقة مع الولايات المتحدة أن توفر لباكستان الحماية من الهند غريمتها الإقليمية، أكثر من الاتحاد السوفييتي أو هكذا ظن كبار واضعي السياسات الباكستانيين. وبهذا وفرت هذه العلاقة السبيل للمساعدة في ضمان بقاء أكثر تجارب بناء الدولة تقلقلا، وذلك في ضوء بناء باكستان السياسي المنقسم عرقيًا ولغويا وجغرافيا، وفي الوقت ذاته عملت على تقوية الموقف المهيمن داخل دولة جماعة البنجاب العرقية تلك، الذي كان يضغط بقوة طلبا للمساعدة الأمريكية والتحالف مع الغرب. وعلى مدار العقد ونصف العقد التاليين شكلت التزامات باكستان الخاصة بالحرب الباردة، إلى جانب المساعدات العسكرية والاقتصادية التي نتجت عنها، مجموعة القوى الداخلية بالبلاد دعم التحالف مع الولايات المتحدة النخبة البنجابية والجيش الباكستاني تحديدا، وذلك على حساب منافسي السلطة الداخليين الآخرين، وهو ما أخل بالتوازن السياسي للبلاد منذ ظهورها للنور تقريبا.

مثال دامغ آخر يأتينا من تايلاند، حيث سعى قادتها لإرساء علاقة مع الولايات المتحدة لخليط مشابه من الأسباب كان جزء من استراتيجيتهم القومية الراسخة منذ زمن يقوم على وجود راع خارجي، وذلك خوفا من الصين، جارتها الضخمة التي قد تسبب لها الخطر، سواء أكان هذا الراعي شيوعيًا أم لا. وفرت الحرب الباردة للنخبة التايلاندية سبيلا لتأمين تلك الرعاية الخارجية نظرًا لأن احتياجاتهم تصادف أنها توافقت مع بحث أمريكا عن حلفاء من العالم الثالث وشأن نظرائهم في باكستان، سعى القادة العسكريون التايلانديون أيضًا لتوثيق العلاقة مع الولايات المتحدة وما ينتج عنها من تدفق للأموال بغرض إحكام قبضتهم الداخلية على السلطة وإسكات الأصوات المنشقة. ونتيجة لذلك تغير تاريخ تايلاند الحديث على نحو عميق.

مع أن كل ظرف بعينه يكشف بطبيعته عن سمات فريدة، يظهر نمط عريض جلي في ظله اختارت بلدان العالم الثالث تلك التحالف مع الغرب بدافع من أسباب داخلية، لا بسبب خوفها من الشيوعية، وفي ظله تأثرت التطورات الداخلية في هذه البلدان على نحو عميق. فكل دولة من هذه الدول المتنوعة – ومن بينها العراق وإيران والسعودية وتركيا وباكستان والفلبين وسيلان وكوريا الجنوبية وتايلاند، وهذه فقط أبرز الدول لا جميعها وجدت أن أولوياتها الداخلية ومواردها المتاحة وتوازن القوى الداخلي كلها تأثرت على نحو بالغ بقرار قادتها بالتحالف على نحو رسمي أو غير رسمي مع الغرب بطبيعة الحال بعض هذه الدول كان ناشئًا، وجاء بعد صراع

من أجل الاستقلال، لكن بعضها كان دولا أقدم بكثير تعرضت مكانتها ككيانات مستقلة للتهديد، لكنها لم تخضع قط على نحو تام للاستعمار الغربي. ومع ذلك، بالرغم من هذا التباين التاريخي، فالبصمة القوية التي خلفتها الحرب الباردة على كل دولة تظل واضحة أشد الوضوح. راقت استراتيجية عدم الانحياز المصطنع المجموعة أخرى من قادة دول العالم الثالث الذين آمنوا أن الأهداف القومية المهمة يمكن تحقيقها على نحو أكثر فعالية من خلال تحاشي أي التزام رسمي سواء للشرق أو للغرب.

وقد جاهد كل من سوكارنو في إندونيسيا وجمال عبد الناصر في مصر وكوامي نكروما في غانا وجواهر لال نهرو في الهند، من بين آخرين لاستقلال دولهم عن طرفي الصراع في الحرب الباردة على السواء. العوامل المعقدة الكامنة خلف حسابات نهرو في تبني مسلك غير منحاز تلقي الضوء على هذا الأمر. فقد حذر نهرو قائلا: «بمجرد أن تخرج العلاقات الخارجية من أيدينا لتصير تحت إمرة شخص آخر، فإلى هذا الحد ووفق هذا المعيار لم نعد مستقلين.» كان نهرو أول رئيس وزراء للهند - مقتنعًا بأن دولته الفتية يمكنها تعظيم مكانتها ونفوذها الدوليين في مجالس العالم من خلال تبني دور القوة الثالثة في شئون العالم. علاوة على ذلك سيتمكن حزب المؤتمر الحاكم بهذا من تجنب عزل بعض القوى السياسية المؤثرة داخل الكيان السياسي الهندي شديد التنوع الذي كان يحدث على نحو حتمي كنتيجة للالتزام الرسمي تجاه الشرق أو الغرب. إضافة إلى ذلك، بالحفاظ على الاستقلال عن نطاق النفوذ الأمريكي والسوفييتي، رأى المخططون الهنود أنهم سيتمكنون من اجتذاب المزيد من المعونات التنموية من كلا المعسكرين. وقد أسر نهرو الواقعي إلى أحد معاونيه قائلا: حتى فيما يخص قبول المساعدة الاقتصادية، ليس من الحكمة أن تضع كل البيض في سلة واحدة.

ومن المؤكد أن كلا من سوكارنو وعبد الناصر ونكروما كانوا يتفقون تماما مع وجهة النظر هذه ومع أن هذا سبب الضيق للساسة الأمريكيين إبان الحرب الباردة الذين تعاملوا دائمًا بمنطق إذا لم تكن حليفا فأنت عدو»، فإنهم كانوا مجبرين في الواقع على التنافس على ولاء دول العالم الثالث غير المنحازة، أو المحايدة. إجمالا، علينا الإقرار بالدور الذي لعبته دول العالم الثالث وهي تحاول تسخير الواقع الدولي السائد في عصرها؛ أي الحرب الباردة، في تعظيم مكاسبها المحتملة، أو على الأقل تقليل خسائرها المحتملة. لكن يجب أيضًا أن ندرك أن العديد من عواقب الحرب الباردة على شعوب العالم الثالث ومجتمعاته كانت غير متوقعة، مثلما كانت أيضًا خارجة عن سيطرة أي دول بعينها. وفي هذا النطاق، يجدر بنا أن نعيد التأكيد على أن العالم الثالث ظهر للوجود كساحة الصراع الرئيسية للحرب الباردة منذ عام

١٩٥٠ . وقد صارت الصراعات ذات الجذور المحلية – شأن كوريا والكونغو وفيتنام وأنجولا وأفغانستان ونيكاراجوا – أكثر تكلفة بكثير لأن الصراع بين القوتين العظميين خلف بصمته عليها. ويجدر بنا هنا أن نتذكر أن السواد الأعظم من العشرين مليون شخص الذين يعتقد أنهم لقوا حتفهم في الحروب التي استعرت في أرجاء العالم بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٩٠ كانوا ضحايا لصراعات بالعالم الثالث، وأغلب هذه الصراعات كان مرتبطا ولو على نحو غير مباشر بالحرب الباردة.

تأثير الحرب الباردة داخل أوروبا

يضرب تأثير الحرب الباردة داخل أوروبا أروع صور التناقض فإذا أمكن إلقاء اللوم على الصراع السوفييتي الأمريكي لإشاعته الكثير من الحروب والخراب وعدم الاستقرار في الدول البازغة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٩٠ ، فإن له على العكس من ذلك الفضل الأكبر في إرساء حقبة غير مسبوقة من السلام والرخاء والاستقرار في أوروبا. ومن قبيل المفارقة أن النزاع الأيديولوجي والجيوسياسي الذي بدأ صراعًا على مصير أوروبا لم ينته به الحال في الواقع إلى الابتعاد عن أوروبا وحسب، بل إلى إرساء الأساس الجوهري لأطول حقبة ازدهار اقتصادي في التاريخ الأوروبي. صاحب هذه الحقبة من الازدهار، بل تسبب في وجودها السلام الدائم المنتشر في ربوع القارة والتحرك السريع نحو التكامل السياسي والاقتصادي داخل أوروبا الغربية، وهما الأمران اللذان ساعدت الحرب الباردة على تحقيقهما. وقد تزامن «العصر الذهبي للتوسع والإنتاجية الرأسماليين، الذي امتد من أواخر الأربعينيات وحتى أوائل السبعينيات، مع أول عقدين ونصف العقد من الحرب الباردة، وقد تعزز من نواح عدة بهذه الحرب عينها. شهدت تلك السنوات أكثر الثورات تأثيرا وسرعة وعمقا في التاريخ الإنساني المدون»، وذلك وفق التقييم الملائم للمؤرخ إريك هو بسباوم. ويضيف المؤرخ دون يونج قائلا: «في نظر الكثيرين الذين عايشوا الكساد العظيم والحرب، بدت أوروبا الغربية أرض الميعاد.»

عززت الاتجاهات الاقتصادية والسياسية والأمنية بعضها بعضا في أوروبا خلال حقبة الحرب الباردة لا ريب أن الثلاثة عشر مليار دولار التي ضخت في أوروبا الغربية بموجب مشروع مارشال الأمريكي للمساعدة بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٢ قد ساعدت في دفع الازدهار في فترة ما بعد الحرب، حتى مع استمرار المؤرخين الاقتصاديين في الجدل بشأن الثقل المحدد الذي يمكن تعيينه لهذا الإسهام الأمريكي. أيضًا لعبت المظلة الأمنية الأمريكية والدعم الأمريكي الذي شجع كلا من اندماج ألمانيا الغربية في أوروبا الغربية وتحركها الموازي نحو التكامل الإقليمي الأوسع دورًا كبيرًا في هذا الأمر. وأحيانا ما حذا رجال الدولة الأوروبيون حذو

أمريكا، لكن كثيرًا ما تولوا زمام أمورهم بأنفسهم وانتهزوا الفرص التي قدمتها لهم الحرب الباردة واحتلال ألمانيا والاهتمام الأمريكي الجديد بالشئون الأوروبية الصياغة التغيرات الإقليمية والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الداخلية التي رأوا أنها ضرورية. وقد أدركوا هم ومساندوهم الأمريكان منذ البداية، كما يذكر المؤرخ هيرمان جوزيف روبيبر أنهم لو رغبوا في تحقيق الديمقراطية والرخاء في النصف الغربي من القارة الأوروبية المقسمة، فعلى أوروبا الغربية، بمساعدة أمريكا وحمايتها، أن تتحرك صوب نظام سياسي وعسكري واقتصادي متكامل. أيضًا كان قادة الدول الأوروبية الكبرى على وعي كبير بأن مشكلة ألمانيا، التي أقلقت أمن القارة الأجيال، كانت بحاجة للحل حتى يمكن تسخير القدرة الإنتاجية الألمانية لمصلحة التعافي الاقتصادي لأوروبا، لكن دون أن تبزغ ألمانيا من جديد كخطر عسكري.

عمل القادة بابتكارية وبعزم شديد من أجل العثور على حلول لتلك المشكلات. وفي يوليو ١٩٥٢ ، شكلت فرنسا وإيطاليا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج «الجماعة الأوربية للفحم والصلب». وفي مارس ١٩٥٧، وفي خطوة أكثر جرأة وأهمية على سبيل الوحدة، وقعت الدول الست عينها على اتفاقات روما المؤسسة لكل من الجماعة الاقتصادية الأوروبية» و«الجماعة الأوروبية للطاقة الذرية». سهل التقارب التاريخي بين فرنسا وألمانيا من إنشاء تلك المنظمات الناجحة المتجاوزة لنطاق الدول. وكما قال المستشار الألماني كونراد أديناور فإن ألمانيا وفرنسا جارتان شنتا الحرب إحداهما على الأخرى مرة تلو الأخرى على مر القرون. ويجب وقف هذا الجنون الأوروبي على نحو تام. وقد أظهرت معدلات النمو المبهرة للجماعة الاقتصادية الأوروبية التي كانت في طليعة الازدهار الاقتصادي لأوروبا الغربية كلها، المزايا الملموسة لاستبدال التعاون الاقتصادي بالتنافس العسكري. وبحلول عام ١٩٦٠ ، أسهمت «مجموعة الست»

مجتمعة بربع الإنتاج الصناعي وخمسي إجمالي التجارة الدولية. كان المواطنون الأوروبيون العاديون هم المستفيدين الأساسيين من تلك التطورات. فقد وفر لهم النمو الاقتصادي المستدام أجورًا أعلى، وساعات عمل أسبوعية أقل، ومنافع اجتماعية سخية، وأحدث تحسنا في الصحة والتعليم. أيضًا أسهم نجاح الصيغة الإنتاجية والقائمة في جوهرها على فكرة تحقيق ازدهار اقتصادي كبير ومن ثم يعود النفع على الجميع – في الاستقرار السياسي، وقلل من التوتر التقليدي بين العمال وأصحاب رأس المال، وقلل من شعبية الأحزاب الشيوعية بأوروبا الغربية. اختفت البطالة بالكامل تقريبا؛ إذ لم يتجاوز متوسطها ٢,٩% في كل أنحاء أوروبا الغربية في عام ١٩٥٠ و ١,٥ فقط في الستينيات. وبالمقارنة بالماضي، كانت أوروبا الغربية

وقت الحرب الباردة جنة حقيقية للمستهلكين، وكسبت الطبقتان العاملة والوسطى على نحو متزايد دخولا تكفيهم الشراء السلع التي كانت في الماضي مقصورة على الأثرياء وحسب. ففي إيطاليا، مثلا، قفز عدد الأفراد الذين يقتنون سيارات خاصة من ٤٦٩ ألف شخص عام ١٩٣٨ إلى ١٥ مليون شخص عام ١٩٥٧. وفي بريطانيا قفزت نسبة من يملكون ثلاجات منزلية من ٨ فقط عام ١٩٥٦ إلى ٦٩ عام ١٩٧١. وبحلول عام ١٩٧٣ كان ٦٢٪ من الأسر الفرنسية يأخذون إجازات سنوية، وهي ضعف النسبة في عام ١٩٥٨. ومما يشهد على هذا أن رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان تقرب للناخبين في الانتخابات العامة لعام ١٩٥٩ بالشعار اللافت لم يسبق لنا أن مررنا بهذا الرخاء».

خلال العقود القليلة التالية على الحرب العالمية الثانية، أغلق المستهلكون الأوروبيون على نحو كبير الفجوة التي طالما فصلت بينهم وبين نظرائهم الأمريكيين. وبحلول الستينيات، صار المجتمعان يتسمان بالسمات التي يطلق عليها ديفيد رينولدز السمات الجوهرية للمجتمعات الموجهة للمستهلك وهي: السلع المنزلية المنتجة إنتاجا ضخمًا، والزيادة في عدد السكان ذوي الدخول المرتفعة، والائتمان الأكبر، والإعلان الأقوى». وبما أن الحرب الباردة كانت أيضًا معركة على قلوب وعقول ومعدة المواطنين الكادحين، فإن النجاح المبهر للاقتصاديات الرأسمالية خلال الربع الثالث من القرن العشرين عزز على نحو كبير الادعاءات السياسية والأيديولوجية للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين.

إن مواطن القصور المجتمعة للاقتصاديات الشمولية التي سارت على النموذج السوفييتي في أوروبا الشرقية التي عانت من أجل الوفاء بالاحتياجات الأساسية المجتمعاتها، عززت ادعاءات التفوق الغربية بشكل أكبر. ومن الستينيات فصاعدًا، انفتحت فجوة متزايدة الاتساع بين الظروف المادية في نصف أوروبا الشرقي ونصفها الغربي. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، مرت أغلب المجتمعات الزراعية شرق نهر الألب بتحول مباغت من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وذلك تحت الإشراف المباشر الستالين. شرعت الأحزاب الشيوعية الحاكمة في أوروبا الشرقية، التي تحاكي على نحو وثيق النموذج السوفييتي، في تبني سياسات للتصنيع السريع القسري وفي الوقت ذاته إخضاع الدوافع القومية لواجبات الأممية البروليتارية»، كما حددتها موسكو. لا شك أن المواطنين الطبيعيين تمتعوا ببعض المنافع؛ إذ تحسنت الرعاية الصحية والغذاء، وانخفضت نسب الوفيات، وزادت فرص التعليم، وتحقق التوظيف الكامل. بيد أن تلك المكاسب تحققت بتكلفة مرتفعة للغاية في البلدان التي صار فيها القمع السياسي والاضطهاد الديني وكبت الحريات الفردية وفرض الامتثال الأيديولوجي أمورًا طبيعية، مثلما كان الحال لفترة طويلة داخل الاتحاد السوفييتي

ذاتـه. سـجلت الاقتصـاديات الشـمولية فـي أوروبـا الشـرقية والاتحـاد السـوفييتي تقدمًا مبهرا حتـى نهايـة الخمسـينيات، بـل إنهـا فاقـت اقتصـاديات أوروبـا الغربيـة مـن نـاحيـة معدلات النمـو السـنوية. لكـن بحلـول السـتينيات، تباطـأ هـذا النمـو علـى نحـو بـالغ؛ إذ اتضحت على نحو متزايد المشكلات الكامنة في نماذج التخطيط الهرمية، إلى جانب عجز دول الكتلة الشرقية عن الوفاء بطلبات المستهلكين المتزايدة.

عقيدة بريجينيف

قـرر المكتـب السياسـي السـوفييتي اسـتخدام القـوة لسـحق التعدديـة السياسـية النشـطة فـي تشيكوسـلوفاكيا بسـبب الخـوف مـن تفشـي الليبراليـة فـي أرجـاء أوروبـا الشرقية، مما قد يؤدي إلى تقويض سلطة الكرملين هناك. وفي السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٨، أصدرت الصحيفة الرسمية «برافدا» ما صار يعرف بعد ذلك بعقيدة بريجينيف لتبرير هذا الغزو. قضت هذه العقيدة أن بإمكان القادة الوطنيين اتباع مسارات تنموية مختلفة، لكن فقط لو أن تلك المسارات لا تضر بالاشتراكية داخل الدولة ولا تسبب الضرر للحركة الشيوعية الأوسع. بعبارة أخرى، سيحدد الكرملين حدود التنوع داخل أوروبا الشرقية.

واجهت الجهود الدورية الرامية إلى تحرير النظم السياسية والاقتصادية داخل دول حلف وارسو المنفردة الفشل المتواصل خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين.

كـان الاتحـاد السـوفييتي، سـواء تحـت زعامـة سـتالين الصـارم أم خروشـوف الأكثر مرونة أم بريجينيف العنيد، غير مستعد ببساطة للتسامح مع أي إصلاح هيكلي حقيقي أو السماح بأي تنوع سياسي حقيقي داخل نطاق نفوذه. وقد أرسى ازدهار «ربيع براج» لعام ١٩٦٨ ونهايته السريعة حدود التحرر على نحو واضح ومؤلم. ففي يناير من ذلك العام، اعتلى ألكسندر دوبتشيك، الزعيم الشيوعي ذو التوجه الإصلاحي، سدة الحكم في تشيكوسلوفاكيا. وقد جاهد للوفاء بالمطالبات الشعبية الصاخبة بالمزيد من الإصلاحات السياسية والإصلاحات الاقتصادية ذات المغزى وفي الوقت نفسه الحفاظ على دعم الاتحاد السوفييتي والوحدة داخل حزبه الشيوعي الحاكم. لكن تبين أن هذا التوازن مستحيل. وفي ليلة العشرين من أغسطس ١٩٦٨ دخلت الدبابات السوفييتية تشيكوسلوفاكيا وسحقت تجربة التعددية السياسية الواعدة، تماما كما حدث في المجر قبلها باثني عشر عاما. وفي حكمة، اختار التشيكيون عدم المقاومة، وهو ما حافظ لا ريب على أرواح الآلاف. ومن تلك النقطة فصاعدا، لم يعد هناك من شك في أن السيطرة السوفييتية على أوروبا الشرقية.

استندت في النهاية إلى القوة الصريحة، وعلى الاستعداد لاستخدامها. شهد عام ١٩٦٨ نقطة تحول مهمة في التاريخ الداخلي لأوروبا الغربية في حقبة الحرب الباردة أيضًا. ففي مايو من ذلك العام، نظم الطلاب والعمال في باريس سلسلة من المظاهرات التي كادت تطيح بحكومة ديجول. كانت الاحتجاجات الفرنسية هي الأكثر تأثيرا في سلسلة التحديات التي واجهت بنى السلطة السائدة واجتاحت أوروبا الغربية والولايات المتحدة في عام ١٩٦٨. وبالرغم من تمتع كل حركة بسماتها المحلية الخاصة فإن ازدهار ثقافة الشباب، واليسار الجديد، والروح المعادية للتقاليد السائدة والسلطة أن نجاح داخل أغلب الديمقراطيات الغربية يوحي بوجود روابط مشتركة بينها. ويبدو الحرب الباردة في أوروبا الغربية هو ما أنتج جيلا جديدًا ا أخذ الثمار الرئيسية لذلك النظام السلام والاستقرار والسعة المادية والمنافع الاجتماعية المتزايدة والفرص التعليمية كأمور مسلم بها. وفي فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية، وغيرها من البلاد، بدأ هذا الجيل الجديد، المدفوع جزئيًا بالتدخل الأمريكي المغضوب عليه شعبيا في فيتنام، في التشكيك في بعض حقائق الحرب الباردة. هل احتواء الشيوعية يستلزم بالضرورة التدخلات الدموية في العالم الثالث؟ هل لا يزال الاتحاد السوفييتي يمثل تهديدًا ؟ هل وجود القوات الأمريكية والأسلحة النووية على الأراضي الأوروبية له ما يبرره ؟ هل يمكن لسياسات غربية بديلة أن تقلل من فرص وقوع حرب نووية مهلكة؟ ومن ثم بدأ الإجماع حول السياسات الخارجية والعسكرية الخاصة بالحرب الباردة في التفتت داخل أوروبا الغربية المزدهرة حديثًا، ولاقى النظام السياسي الذي دعمه المصير ذاته.

تأثير الحرب الباردة داخل الولايات المتحدة

أيضًا خلفت الحرب الباردة بصمة لا تمحى على الدولة والمجتمع داخل الولايات المتحدة. ففي الواقع، لم يفلت أي منحى من مناحي الحياة الأمريكية من قبضتها. كنتيجة مباشرة للمخاوف الأمنية النابعة من التهديد الشيوعي / السوفييتي، اضطلعت الحكومة الفيدرالية بقدر أكبر من السلطة والمسئولية، وتبوأت «الرئاسة الإمبراطورية» بؤرة الاهتمام، وصارت الزيادة البالغة في الإنفاق الدفاعي ملمحا دائمًا للميزانية الفيدرالية، وترسخت العقدة العسكرية الصناعية داخل المجتمع الأمريكي. وقد كان التحول الواسع في الأنماط السكانية والهياكل الوظيفية في البلاد في حقبة ما بعد عام ١٩٤٥ ، بدرجة كبيرة، منتجا جانبيًا للحرب الباردة أيضًا. والأمر عينه يسري على تخصيص الابتكارات العلمية والتكنولوجية للأغراض العسكرية وما صاحبه من تحول العديد من كبرى الجامعات إلى مواقع رائدة للأبحاث تحت الرعاية الحكومية. وعلى نحو مشابه تشكل العديد من الأولويات الداخلية المحددة، وفي بعض الحالات بررت على نحو واضح بواسطة الحرب الباردة بداية

من نظام الطرق السريعة الرابط بين الولايات الذي اقترحه أيزنهاور، مرورا بالإنفاق الفيدرالي على التعليم، ووصولاً لاستكشاف الفضاء. وحتى مسار حركة الحريات المدنية تأثر بالصراع السوفييتي الأمريكي، وإن كان هذا على نحو متناقض. ففي البداية حاول دعاة الفصل العنصري إعاقة حركات الكفاح من أجل حرية السود من خلال وصم مؤيديها بأنهم مؤيدون للشيوعية. بيد أن هذه المحاولات فشلت في نهاية المطاف، مع إقرار إدارتي أيزنهاور وكينيدي بأن الاستمرار في نظام الفصل العنصري الذي يتبعه الجنوب وإنكار الحقوق الأساسية للأمريكيين من أصول أفريقية لطخ الصورة الأمريكية حول العالم ومن ثم مثل عبئًا من غير المقبول تحمله أثناء الحرب الباردة.

من الناحية السياسية والثقافية، بل النفسية أيضًا، غيرت الحرب الباردة وجه الحياة الأمريكية بطرق عدة. أدى التطابق الأيديولوجي الذي طالبت به العديد من النخب السياسية بالدولة إلى تضييق حدود الخطاب السياسي المسموح بها، ووضعت العديد من الحركات الإصلاحية في موقف المدافع، وتركت بعض الليبراليين عرضة للاتهام بالراديكالية وعدم الولاء.

صار الاتهام بالشيوعية ورمي التهم جزافا أسلوبًا شائعا، وإن كان باعثا على الأسى، في الانتخابات المحلية والقومية والنقابات العمالية، كم شاع التحقيق مع الموظفين الحكوميين والمعلمين وأعضاء صناعة السينما وغيرهم. يلوم المؤرخ ستيفن جيه وايتفيلد الحرب الباردة على خنق الحرية والحط من كرامة الثقافة ذاتها في الولايات المتحدة، خاصة في الخمسينيات. وهو يرى أن هذا عزز من القمع الذي أضعف إرث الحريات المدنية، وانتهك معايير التسامح والعدالة، ولطخ صورة الديمقراطية نفسها. يرى زميلاه بيتر جيه كوزنيك وجيمس جيلبرت أن أكبر تأثيرات الحرب الباردة كان داخل نطاق علم النفس الاجتماعي المترامي، إذ يقولان إنها أقنعت ملايين الأمريكيين بتأويل عالمهم على ضوء فكرة الأعداء الغادرين بالداخل والخارج الذين كانوا يهددونهم بالإبادة النووية وغيرها من أشكال الإبادة. باختصار، يعد الخوف الواسع من الهلاك ومن الأعداء الخارجيين هو الإرث الجوهري للحرب الباردة.

من الواضح أن الخوف المنتشر على نطاق المجتمع بأسره حيال الخطر الشيوعي المحتمل الماثل «داخل» الولايات المتحدة يعد من أكثر تأثيرات الحرب الباردة المباشرة واللافتة للنظر بالداخل احتضنت هذا الترقب مجموعة من النخب وسخرته لأغراضها الخاصة بالفعل كان هناك شيوعيون داخل الولايات المتحدة، بل

يمكن القول إنه كان هناك الكثيرون منهم. كان الحزب الشيوعي الأمريكي يتفاخر بعضوية ٣٢ ألف شخص في عام ١٩٥٠ ، وهو العام نفسه الذي دشن فيه نائب ويسكونسن الشهير المناهض للشيوعية جوزيف مكارثي حملته الواسعة ضد حشود الشيوعيين المفترضة الذين يسكنون، حسب زعمه، أروقة الحكومة الأمريكية نفسها. لوضع هذا الرقم في إطاره السليم نقول إن عدد أعضاء الكنيسة اللوثرية التبشيرية الفنلندية في عام ١٩٥٠ كان مماثلا لعدد أعضاء الحزب الشيوعي. كان هناك بالفعل شيوعيون، أو متعاطفون مع الشيوعية، داخل الفرع التنفيذي للحكومة، لكن كان عددهم قليلاً. وأبرز الأمثلة على هذا الأمر حالة الجر هيس، المسئول الحكومي الأوسط السابق بوزارة الخارجية الذي تجسس بالفعل المصلحة الاتحاد السوفييتي وأدين بالشهادة الزور في محاكمة حظيت بالاهتمام البالغ في عام ١٩٤٨. إلا أن مكارثي وغيره من السياسيين الموالين له بالغوا عن عمد في المشكلة، واستغلوا خوف العامة كي يدفعوا مستقبلهم المهني للأمام. ويكفي تمكن مكارثي من تشويه سمعة جورج مارشال تحديدًا، وهو من هو في مرحلة ما كدليل على حيل النائب المتجرد من المبادئ والخداع المتأصل فيه. فقد أعلن مكارثي أن الجنرال ووزير الخارجية والدفاع السابق الذي يحظى باحترام شديد كان جزءًا من مؤامرة ضخمة وشريرة على نحومخز حتى إن أي مؤامرة أخرى عبر تاريخ البشر تتضاءل إلى جوارها». ولم يكن مكارثي

الوحيد الذي يكيل الاتهامات السخيفة من أجل إبقاء خصومه السياسيين في موقف دفاعي. فعلى سبيل المثال، يدين عضو مجلسي الشيوخ والنواب عن كاليفورنيا ريتشارد ام نيكسون، ممثل الادعاء الأساسي ضد هيس بشعبيته القومية إلى السمعة التي اكتسبها من ملاحقته للمخربين الشيوعيين بضراوة غير معتادة. وعند ترشحه كنائب للرئيس أيزنهاور في انتخابات عام ١٩٥٢ ، انتقد المرشح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي أدلاي ستيفنسون بشدة ووصفه بأنه «مهادن» على الرغم من كل الاهتمام المستحق الذي حظيت به المكارسية – وغيرها من حركات مناهضة الشيوعية التي كانت المكارثية الفصيل الأكثر تطرفا بها - من الباحثين فإن التأثيرات الداخلية الأخرى للحرب الباردة كانت واسعة النطاق بالفعل. يستحق النمو الضخم في الإنفاق الدفاعي، مع ما له من تأثيرات بالغة على اقتصاد الدولة العام والفرص الوظيفية والتحولات السكانية، الإقرار بكونه أبرز عوامل التغير داخل الولايات المتحدة خلال سنوات الحرب الباردة. فخلال العقدين الأولين من الحرب الباردة استثمرت الحكومة الفيدرالية ٧٧٦ مليار دولار في الدفاع القومي، وهو ما يساوي قرابة ٦٠% من إجمالي الميزانية الفيدرالية بل ستصير تلك النسبة أعلى لو أدرجنا الإنفاق غير المباشر المرتبط بالدفاع وسريعًا ما هيمنت احتياجات الدفاع على

الأبحاث والأولويات التنموية للدولة وتدافع العلماء والمهندسون الجامعيون والمستقلون من أجل الوفاء باحتياجات الحكومة، والحصول على عقود مربحة كذلك. توسعت صناعات جديدة بالكامل وأخرى استعادت حيويتها، على غرار صناعات الاتصالات والإلكترونيات والطائرات والحاسبات واستكشاف الفضاء، مع مرور سنوات الحرب الباردة، وغالبا ما حدث هذا بسبب هذه الحرب، بعض هذه الصناعات، حسب الوصف الملائم لاقتصادية أن ماركوسين وكان من شأنها تغيير الاقتصاد الأمريكي والمشهد الوظيفي والإقليمي على نحو تام».

ومن أعظم ثمار الإنفاق الدفاعي الذي حركته الحرب الباردة كان بناء المصانع في جنوب وغرب الدولة على حساب القاعدة الصناعية الأقدم للدولة في الشمال الشرقي والغرب الأوسط. تلقت كاليفورنيا وحدها أكثر من ٦٧ مليار دولار من العقود الدفاعية بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٥ ، وهو ما يساوي نحو ٢٠٪ من إجمالي قيمة هذه العقود، وعززت الحرب الباردة من نمو المنطقة المسماة بحزام الشمس. وقد حفزت الحرب الباردة، على نحو متكرر تحولا ديموجرافيا كبيرًا للسكان الأمريكيين نحو الغرب والجنوب وأعادت ضبط ثقل موازين السلطة السياسية داخل الكونجرس وداخل نظام الأحزاب، وكلا الأمرين كان من العلامات المميزة لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. إن متطلبات الميزانية الواسعة والالتزامات العسكرية المتعددة التي فرضتها الحرب الباردة على الشعب الأمريكي استلزمت حشد المواطنين والتزامهم. وقد عمل الرؤساء الأمريكيون - بداية من ترومان وصاعدًا - بكل مثابرة على حشد إجماع داخلي مؤيد لدور الأمة الجديد بوصفها الحامي اليقظ للعالم ضد أي علامة لعدم الاستقرار أو العدوان تقف خلفه الشيوعية. وقد تمكنوا من هذا بكل مهارة ونجاح خلال منتصف الستينيات وقد ساعدهم في هذا الأدلة المؤكدة على مغامرات السوفييت والصينيين غير المسئولة في كل من أوروبا الشرقية وبرلين وكوريا وتايوان وكوبا. لكن مع دخول الحرب الباردة عقدها الثالث، بدأ هذا الإجماع في التفتت. فقد أثبتت حرب فيتنام للأمريكيين التكلفة العالية وفي نظر عدد متزايد غير المقبولة – لهيمنة دولتهم العالمية. إن هذه الحرب التي تمخضت عنها أكبر حركة سلام في التاريخ الأمريكي، أطلقت جدلا داخليا عنيفا حول ثمن العولمة الأمريكية. وقد استعر هذا الجدل على نحو شديد في أواخر الستينيات، فارضًا عملية إعادة تقييم على أعلى مستويات الحكومة الأمريكية لاستراتيجية الحرب الباردة العالمية التي جعلت البلاد تمد نطاق نفوذها على نحو مؤلم، منقسمة على ذاتها بعمق في الوقت ذاته.

الحرب الباردة في مرحلتها الأخيرة

بعد ارتقاء ميخائيل جورباتشوف في مارس ١٩٨٥ لمنصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي نقطة التحول الأهم في المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة؛ إذ إنه كان العامل الأهم دون منازع، الذي عجل بنهاية الحرب الباردة وما صاحبها من تحول جذري في العلاقات السوفييتية الأمريكية. لقد قدم الزعيم السوفييتي النشيط البالغ من العمر ٥٤ عاما كل التنازلات الكبرى التي أدت إلى اتفاقيات التخفيض النووي التاريخية في أواخر الثمانينيات. ومن خلال سلسلة من العروض والتنازلات غير المتوقعة بالكامل، والأحادية الجانب في المعتاد نجح هذا الزعيم في تغيير اتجاه العلاقات السوفييتية الأمريكية بالكامل وفي النهاية تخليص الولايات المتحدة من العدو الذي ظلت تسعى لإحباط خططه التوسعية المزعومة طيلة السنوات الخمس والأربعين الماضية. ودون هذا الشخص الاستثنائي، لصار من المستحيل تقريبا استيعاب التغيرات المذهلة التي وقعت بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٠. ناصر جورباتشوف ووزير خارجيته، إدوارد شيفر نادزه، أفكارًا جديدة ثورية بشأن الأمن والأسلحة النووية وعلاقة الأمرين بأهم أولوياتهما الإصلاح الداخلي، وإعادة تجديد الاشتراكية، وبفضل تأثرهما بالبيئة الفكرية في الاتحاد السوفييتي، والمشكلة في جزء منها على يد العلماء السوفييت وخبراء السياسة الخارجية ذوي التعرض الواسع للغرب والعلاقات الوثيقة بنظرائهم الغربيين، أدخل جورباتشوف وشيفر نادزه «فكرًا جديدًا» إلى كل من دائرة القيادة المحافظة بالكرملين والحوار السوفييتي الأمريكي المتوقف.

يقول أناتولي تشيرنايف مساعد جورباتشوف عن رئيسه في أوائل ١٩٨٦: «انطباعي عنه أنه قرر على نحو حاسم إنهاء سباق التسلح بصرف النظر عن تكلفة الأمر. وهو مقدم على هذه «المخاطرة» لأنه يتفهم أن الأمر ليس فيه مخاطرة على الإطلاق؛ لأنه لن يقدم أحد على مهاجمتنا إذا تخلينا عن سلاحنا بالكامل ومن أجل بناء البلاد على أساس متين من جديد علينا أن نخلصها من عبء سباق التسلح الذي يستنزف ما هو أكثر من الاقتصاد.»

وصل جورباتشوف وشيفر نادزه إلى قناعة مفادها أن سباق التسلح يعود على بلدهما بالضرر، وأنه لا يضيف شيئًا إلى أمن الدولة الحقيقي وفي الوقت ذاته يثقل اقتصادها المترنح بالفعل. يقول شيفر نادزه: إن الأفكار التقليدية المعتنقة منذ قرون عن الأمن القومي بوصفه الدفاع عن البلاد ضد التهديدات العسكرية الخارجية تزعزعت بفعل تحولات بنيوية ونوعية عميقة في الحضارة الإنسانية، وهو ما تحقق نتيجة للدور المتنامي للعمل والتكنولوجيا وازدياد الاعتماد السياسي والاقتصادي

والاجتماعي والمعلوماتي المتبادل بين دول العالم. أكد جورباتشوف على أن الأمن الحقيقي لا يمكن توفيره إلا «بالوسائل السياسية» لا العسكرية، وأن «الاعتماد المتبادل بين دول العالم مهم حتى إن شعوب العالم صارت أشبه بالمتسلقين المربوطين بحبل واحد على جانب جبل. وبإمكانهم أن يتسلقوا معا إلى القمة، أو أن يهووا معًا إلى الهاوية». وعلق في مناسبة أخرى قائلا: «أي محاولة للتفوق العسكري تعني الدخول في حلقة مفرغة. ولاقتناع جورباتشوف وشيفرنادزه بأنه لن يستخدم شخص عاقل، أو دولة عاقلة، الأسلحة النووية، وبأن الاتحاد السوفييتي يملك على أي حال ترسانة من الأسلحة النووية تكفي لأغراض الحماية القومية، رأى الزعيمان الجديدان أن الهدف الأسمى للسياسة الخارجية السوفييتية ينبغي أن يكون تشجيع التخفيض المشترك للأسلحة النووية والتقليدية مع الولايات المتحدة. وقد آمنا أن هذا من شأنه أن يحض على وجود بيئة دولية أكثر أمنا وفي الوقت ذاته يحرر الموارد المطلوبة من أجل الإصلاحات الداخلية التي تأخرت كثيرًا لنظام بلادهم الاقتصادي المأزوم بشدة. وهكذا ارتبطت سياستا جورباتشوف الداخليتان البيروسترويكا على نحو وثيق من البداية بعزمه على وقف سباق التسلح مع الولايات المتحدة والإنهاء الفوري لعلاقة العداء المسموم التي نمت بين القوتين العظميين منذ نهاية حقبة الوفاق.

أصاب تسلسل الأحداث السريع للغاية بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٠ واضعي سياسات الحكوميين وخبراء السياسة الخارجية والمواطنين العاديين في كل أرجاء العالم على حد سواء بالذهول. إلا أن هذه الأحداث، كما يتضح لنا الآن، كانت مسبوقة ومشروطة بفكر جديد عن الأمن والأسلحة النووية والاحتياجات الداخلية وقف خلف كل تعاملات جورباتشوف مع الولايات المتحدة وأوروبا الشرقية والعالم أجمع. وقد وجد رونالد ريجان أكثر زعيم أمريكي معاد للشيوعية عبر حقبة الحرب الباردة كلها، قائدًا سوفييتيا يقبل بالحد من التسليح بكل سهولة، ويمضي نحو «نزع الأيديولوجية» عن سياسة موسكو الخارجية، ويقدم تنازلات أحادية الجانب بشأن القوات المسلحة التقليدية، ويتعهد بإخراج القوات السوفييتية من أفغانستان وإحقاقا للحق، فقد كان ريجان في البداية مستعدا لتخفيف ثم التخلي تماما عن قناعاته الشخصية العميقة بشأن الطبيعة الخبيثة للشيوعية، وبهذا سمح بحدوث هذا التقارب الحقيقي.

تقابل الرجلان خمس مرات بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٨ ، ووثقا علاقاتهما أحدهما بالآخر. فبعد قمة تعارف عقدت في جينيف في نوفمبر ١٩٨٥ نتج عنها القليل من الأفعال الملموسة، لكنها حسنت بقدر كبير من أجواء العلاقة السوفييتية الأمريكية أقنع جورباتشوف ريجان بحضور اجتماع رتب له على عجل في ريكيافيك، أيسلندا،

في أكتوبر ١٩٨٦. وهناك كان الزعيمان على وشك اتخاذ قرار بالخلاص من جميع الأسلحة الاستراتيجية. لكن في نهاية المطاف، أدى إصرار ريجان على مواصلة مبادرة الدفاع الاستراتيجي إلى سحب الزعيم الروسي عروضه المبهرة من طاولة التفاوض. إلا أن هذا الإخفاق في ريكيافيك كان عارضًا. فبعد وقت قصير، تخلى جورباتشوف عن إصراره على تخلي الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي ومضى لقبول «الخيار صفر» الذي قدمه المفاوضون الأمريكان في عام ١٩٨١ ؛ الذي كان وقتها مجرد حيلة دعائية لأنه يحابي الجانب الأمريكي على نحو واضح.

أدت تنازلات جورباتشوف إلى إتمام معاهدة القوى النووية متوسطة المدى، التي وقعت في ديسمبر ١٩٨٧ في قمة واشنطن اعتاد ريجان أن يكرر في أحاديثه العامة ما سماه بالقول الروسي المأثور الذي يقول بمعنى «ثق، لكن تحقق». قدم الزعيم الروسي رؤية أكثر سموا. إذ يقول جورباتشوف: «لقد صار الثامن من ديسمبر ١٩٨٧ محفورًا في كتب التاريخ تاريخا يمثل خطا فاصلا بين حقبة الخطر المتعاظم من الحرب النووية وحقبة إنهاء السيطرة العسكرية على الحياة البشرية. أدت هذه المعاهدة، التي سريعًا ما صدق عليها مجلس الشيوخ الأمريكي، إلى تدمير ١٨٤٦ سلاحا نوويا سوفييتيا و ٨٤٦ سلاحًا نوويا أمريكيًا في غضون ثلاث سنوات، مع سماح الطرفين بعمليات تفتيش غير مسبوقة على المواقع النووية لكليهما. وللمرة الأولى في الحقبة النووية، لم يُقَلِّص أحد أصناف الأسلحة النووية وحسب، بل قُضي عليه نهائيا.

كانت زيارة ريجان إلى موسكو في ربيع عام ١٩٨٨ دليلا أقوى على التحول الدائر في العلاقات السوفييتية الأمريكية، والحرب الباردة ككل بات واضحًا أن زعيمي القوتين العظميين يعامل أحدهما الآخر كشريك حميم، لا كعدو. بل إن الرئيس الأمريكي تخلى عن تصويره السابق للدولة السوفييتية على أنها إمبراطورية الشر. فحين سأله أحد المراسلين عما إذا كان لا يزال يفكر في الاتحاد السوفييتي بهذه الصورة أجاب ريجان: «كلا، كنت أتحدث عن وقت آخر عن حقبة أخرى وفي تصريحاته العامة قبيل مغادرة موسكو.

طلب الرجل الذي وجه أعنف سهام النقد للدولة السوفييتية منذ بدء الحرب الباردة من جورباتشوف أن يخبر «شعب الاتحاد السوفييتي عن مشاعر الصداقة العميقة التي يكنها هو وزوجته نانسي، والشعب الأمريكي تجاهه. وقد عبر عن «الأمل في بدء عهد جديد من التاريخ الإنساني، عهد من السلام بين الدول والأفراد ومن المؤكد أن صور ريجان وجور با تشوف وهما يسيران متأبطي الذراعين عبر

الميدان الأحمر والرئيس الأمريكي يتحدث بكاريزميته الأبوية المعهودة لطلاب جامعة موسكو الحكومية، أمام تمثال نصفي للينين نفسه؛ توضح الكثير عن التحول المذهل الذي حدث.

في ديسمبر ١٩٨٨، زار جورباتشوف الولايات المتحدة مرة أخرى المقابلة ريجان للمرة الأخيرة، وفي الوقت ذاته لإجراء مباحثات مع الرئيس المنتخب جورج بوش (الأب) والتعرف عليه تصادفت الزيارة مع خطاب مهم ألقاه الزعيم السوفييتي في الأمم المتحدة كشف فيه عن نواياه تقليل القوة المسلحة السوفييتية، بشكل أحادي الجانب، بواقع ٥٠٠ ألف جندي تحدثت المقالة الافتتاحية لصحيفة نيويورك تايمز بحماس عن الأمر قائلة: ربما لم يحدث منذ أن قدم وودرو ويلسون نقاطه الأربعة عشر في عام ١٩١٨ أو منذ أن أعلن فرانكلين روزفلت وونستون تشرشل عن ميثاق الأطلسي في عام ١٩٤١ أن أظهرت شخصية عالمية الرؤية التي أظهرها ميخائيل جورباتشوف بالأمس في الأمم المتحدة.»

نتج عن عرض جورباتشوف تخفيض كبير للوجود السوفييتي في أوروبا. وأشار في سلسلة من التصريحات السرية والعلنية، إلى أن قيادة الكرملين قد تخلت عما يسمى بعقيدة بريجينيف القائلة إن الاتحاد السوفييتي سيستخدم القوة، لو لزم الأمر، للحفاظ على سيطرته على كل دولة عضو بحلف وارسو. ومع تراخي القبضة السوفييتية، ابتهج مواطنو أوروبا الشرقية، وارتعد الشيوعيون المحافظون من أعضاء التنظيم الإداري للحزب الشيوعي. تبع ذلك بسرعة مذهلة عدد من الثورات الديمقراطية الشعبية أطاحت بكل الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية، بداية من بولندا في منتصف ١٩٨٩، حيث شكلت حركة التضامن المحظورة من الحكومة، وانتهاءً بالإطاحة العنيفة لنظام نيكولاي تشاوشيسكو في رومانيا مع نهاية العام. بيد أن أكبر الأحداث تجسيدا لانهيار النظام القديم كان فتح جدار برلين في التاسع من نوفمبر. لقد كان هذا الحاجز الخرساني الشهير البالغ طوله ٢٩ ميلا رمزا ليس فقط لتقسيم العاصمة الألمانية السابقة وحسب، بل أيضًا لانقسام أوروبا ككل. ومع هدم الجدار، انتهى بالمثل انقسام أوروبا بين شرق وغرب. كتب أناتولي تشيرنايف في مذكراته قائلا: «كان التفكيك الشامل للاشتراكية كظاهرة عالمية يسير على قدم وساق. وقد حرك رفيق عادي من ستافروبول عجلة هذه العملية. ولسعادة إدارة بوش التي اختارت في حكمة ألا تحتفي بانهيار دول أوروبا الشرقية الشيوعية، ترك جورباتشوف ذلك الرفيق العادي من ستافروبول - الأمور تسير في مجراها دون تدخل. من جوانب عدة، كان هدم جدار برلين وما تبعه من انهيار ليس فقط لحكومات أوروبا الشرقية الشيوعية وحسب، بل أيضًا للنظام الذي قام عليه حلف

وارسو بالكامل؛ يعني انتهاء الحرب الباردة. لقد انتهى الصراع الأيديولوجي. ولم تعد الشيوعية أو الدولة السوفييتية تمثل خطرًا على أمن الولايات المتحدة أو حلفائها.

ومن ثم، يعتبر العديد من المراقبين عام ١٩٨٩ بمنزلة نهاية الحرب الباردة. لكن حتى ذلك التاريخ ظلت نقطة أساسية دون حل؛ ألمانيا. علاوة على ذلك، كانت تلك القضية عينها بصعوبتها وأهميتها هي التي بدأت الشقاق بين السوفييت والأمريكيين عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة. بمجرد هدم الجدار بدأ المستشار الألماني هيلموت كول في الضغط لتوحيد ألمانيا مجددًا، وهو ما وضع الكرملين في معضلة استراتيجية ليست بالهيئة. كان جورباتشوف قد قرر أن أمن الاتحاد السوفييتي لم يعد يعتمد على الاحتفاظ بأنظمة تابعة موالية له في أوروبا الشرقية. إلا أن وضع ألمانيا كان مختلفا. فألمانيا المقسمة مثلت عنصرا جوهريا في السياسة الأمنية السوفييتية منذ حكم ستالين. يقول شيفر نادزه: «لقد دفعنا ثمنا باهظا لهذا، وإنهاؤه بجرة قلم أمر يستحيل تصوره. كانت ذكرى الحرب أقوى من المفاهيم الجديدة بشأن حدود أمننا. لكن في النهاية، تقبل جورباتشوف في منتصف عام ١٩٩٠ حتمية إعادة توحيد ألمانيا.

وقد وجد الزعيم السوفييتي، العازف عن استخدام القوة للتصدي للزخم المستحيل مقاومته، عزاءه في تأكيدات بوش بأن ألمانيا ستظل جزءًا لا يتجزأ من النظام الأمني الغربي. كان أعظم مخاوف جورباتشوف هو أن تصير ألمانيا الطليقة ذات القدرات الجديدة تهديدًا مستقبليًا للأمن الروسي، ويجدر بنا التأكيد على أن هذا هو التخوف ذاته الذي كان يكمن خلف نهج ستالين حيال المشكلة الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة إلا أن سجل الديمقراطية الألمانية على امتداد أربعة عقود هدأ من هذه المخاوف. وقد ساعد الإصرار الأمريكي على بقاء ألمانيا جزءًا من حلف شمال الأطلسي، وليست مستقلة عنه، المصحوب بذلك السجل من السلام والاستقرار والحكم الرشيد الديمقراطي جورباتشوف على التخلص من مخاوفه.

بحلول صيف عام ١٩٩٠ ، وافق السوفييت والأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والألمان على أن تتحد الألمانيتان في دولة واحدة مستقلة ذات سيادة تظل جزءًا من حلف شمال الأطلسي. ومع استمرار القوة الألمانية كجزء من التحالف الغربي، اختفى أحد أعظم المخاوف التي أقضت مضاجع المسئولين الأمريكيين؛ وجود ألمانيا موحدة موالية للاتحاد السوفييتي. ومن ثم، تبدو عبارة برنت سكوكروفت، مستشار بوش للأمن القومي، الموجزة التي قال فيها: «لقد انتهت الحرب الباردة لحظة قبول السوفييت بوجود ألمانيا موحدة تحت لواء حلف شمال

الأطلسي صحيحة في جوهرها. إن عام ١٩٩٠، وليس ١٩٨٩، هو العام الذي انتهت فيه الحرب الباردة فعليا. ويعد تفكك الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٩١، الذي نتج عن حراك القوى التي أطلقت إصلاحات جورباتشوف لها العنان وصار من المستحيل السيطرة عليها؛ حدثًا تاريخيًا مهما في حد ذاته، لكنه جاء بعد الانتهاء الفعلي للحرب الباردة وبحلول الوقت الذى تفكك فيه الاتحاد السوفييتى كانت الحرب الباردة نفسها قد صارت صفحة طواها التاريخ.

صورة للحرب العالمية الأولى والثانية

الحرب العالمية الأولى في ألمانيا

صورة عالمية للحرب وأوضاعها

الخرائط

أ
بريطانيا
روسيا
ألمانيا
المحيط الأطلسي
فرنسا
النمسا
صربيا
إسبانيا
الدولة العثمانية
البحر المتوسط

الحرب العالمية الأولى

الخريطة الجغراسياسية الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى
النرويج
السويد
ايرلندا
المملكة المتحدة
الاتحاد السوفياتي
المانيا
بولونيا
فرنسا
رومانيا
يوغسلافيا
بلغاريا
البحر الأسود
اسبانيا
البرتغال
تركيا
ايران
سورية
العراق
فلسطين
الأردن
البحر المتوسط
المغرب الأقصى
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر

قائمة المراجع

1- جلال يحيي: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

عبدالفتاح أبو علية، اسماعيل أحمد: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993م.

- حسن جلال: الثورة الفرنسية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 0937

- عبد الحميد البطريق ، وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، دار الفكر العربي، القاهرة، 0997)

- عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في الحديث من ظهور البرجوازية حتى الحرب الباردة الهيئة العامة للكتاب، 1997 ،القاهرة.

- عمر عبد العزيز، التاريخ الأوروبي والأمريكيالحديث ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2000)

- عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815 -1919، دار المعرفة الجامعية، االسكندرية، 1992.

- محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس، أوربا في العصور الحديثة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة، 1961.

- محمد فؤاد شكري، الصراع بين البرجوازية والإقطاع 1786 -1848 دار الفكر العربي، 1958.

- هربرت فشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ترجمة وديع الضبع دار المعارف، القاهرة، ط3 ،2.

-عبد اللطيف الصباغ: تاريخ أوروبا الحديث، مذكرة دراسية.

- عبد اللطيف الصباغ: تاريخ أوروبا المعاصر، مذكرة دراسية.

- سيد عبد العال: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، مذكرة دراسية.

-عبد العزيز سليمان نوار، عبدالمجيد نعنعي: التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 2014.

- عبدالعزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.

- روبرت جيه ماكمان: الحرب الباردة مقدمة قصيرة جدا، ترجمة محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي، 2017م.